



Princeton University Library



32101 073505487

مكتاب

سيرة صلاح الدين

الأيوبي

المسماة



بالتواضع السلطانية والمحاسن اليوسفية



تأليف

القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد
Ibn Soddāh Yūsuf
(المتوفي سنة ٦٣٢ هجرية)

وفي ذيله منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماء
(تأليف تاج الدين شاهنشاه ابن أيوب رحمه الله)

طبع في مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧

على نفقة شركة طبع الكتب العربية بمصر

فهرست كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسمي
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

صحيفة

- ٣ الخطبة
٤ القسم الاول في ذكر مولده وأوصافه وشمائله
٥ ذكر مواظبته على القواعد الدينية
١٠ ذكر عدله رحمه الله
١٣ ذكر طرف من كرمه
١٤ ذكر شجاعته
١٦ ذكر اهتمامه بأمر الجهاد
١٨ ذكر صبره واحتسابه
٢١ ذكر نبذ من حلمه
٢٤ ذكر محافظته على أسباب البروءة
٢٨ القسم الثاني في بيان تقلبات أحواله وفتوحاته
٢٩ ذكر عودته الى مصر في واقعة البابين
٣٠ ذكر عودته الى مصر مرة أخرى
٣٢ ذكر وفاة أسد الدين ومصير الامر الى السلطان صلاح الدين
٣٣ ذكر قصد الافرنج دمياط
٣٤ ذكر طلبه والده
٣٥ ذكر موت العاضدة

1276

977

347

OCT -7 1902 165856

- ٣٦ ذكر أول غزوة غزاها من مصر
 ٣٦ وفاة والده نجم الدين
 ٣٧ وفاة نور الدين محمود زنكي
 ٣٧ مناقفة الكندباسوان الكنز
 ٣٨ قصد الافرنج ثغر الاسكندرية
 ٣٨ ذكر خروج السلطان الى الشام وأخذ دمشق
 ٣٩ ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين الى لقائه
 ٤٠ ذكر مسير سيف الدين بنفسه
 ٤٢ ذكر كسرة الرملة
 ٤٣ ذكر عودة السلطان الى الشام
 ٤٤ ذكر وفاة الملك الصالح ووصول عز الدين الى حلب
 ٤٤ ذكر متابعة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد
 ٤٥ ذكر عود السلطان الى مصر ورجوعه منها الى حلب
 ٤٦ ذكر نزوله علي الموصل
 ٤٦ ذكر قصة شاه أرمن صاحب خلاط
 ٤٧ ذكر عود السلطان الى الشام
 ٤٨ — ذكر غزاة عين جالوت
 ٥٠ — ذكر غزاة أنشأها الى الكرك
 ٥١ ذكر اعطائه أخاه الملك العادل الى حلب
 ٥٢ ذكر التحاق القاضي بن شداد (مؤلف هذا الكتاب) بخدمة السلطان

- ٥٢ — ذكر غزاة أخرى الى الكرك
٥٤ ذكر خروج السلطان الي الموصل مرة ثانية
٥٥ ذكر موت شاه أرمن صاحب خلاط
٥٦ ذكر صلح المواصله مع السلطان
٥٧ ذكر عود السلطان الي الشام
٥٨ ذكر مسير الملك العادل الي مصر ووصول الملك الظاهر الي حلب
٥٩ — ذكر غزاة أنشأها الي الكرك
٦٠ — ذكر وقعة حطين
٦٥ ذكر فتوح القدس الشريف
٦٧ ذكر قصده صور
٦٨ ذكر كسره الاسطول
٦٨ ذكر نزوله علي كوكب
٧٠ ذكر دخوله الساحل الاعلى وأخذه اللاذقية وجبله وغيرها
٧٢ ذكر فتوحه جبله واللاذقية
٧٣ ذكر فتوح صهيون
٧٤ ذكر فتوح بكاس
٧٥ ذكر فتوح برزيه
٧٦ ذكر فتوح دربساك
٧٧ ذكر فتوح بفراس
٧٨ ذكر فتح صفد

صحيفة

- ٧٨ ذكر فتوح كوكب
٧٩ ذكر توجه السلطان الى شقيف
٨٠ ذكر اجتماع الافرنج بقصد عكا
٨١ ذكر الواقعة التي استشهد فيها ابيك الاخرش
٨٢ ذكر وقعة ثانية استشهد فيها جماعة من المسلمين
٨٣ ذكر مسير جريدة الى عكا
٨٣ ذكر وقعة اخرى
٨٥ ذكر أصحاب الشقيف وسبب ذلك
٨٧ ذكر واقعة عكا
٨٩ ذكر فتح الطريق الى عكا
٩٠ ذكر تأخر الناس الى تل العياضية
٩١ ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو
٩٢ ذكر المصاف الاعظم على عكا
٩٨ ذكر وصول خبر الألمان
٩٩ ذكر وقعة الرمل التي على جانب نهر عكا
١٠٠ ذكر وفاة الفقيه عيسي
١٠٠ ذكر تسليم الشقيف سنة ٨٦
١٠١ ظريفة
١٠١ ذكر وصول رسول الخليفة
١٠٣ لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر

- ١٠٤ ذكر وصول عماد الدين زنكي صاحب سنجار
- ١٠٦ ذكر خبر ملك الالمان
- ١٠٧ صورة كتاب الكايفكوس الارمني
- ١٠٧ ذكر مسير العساكر الى اطراف البلاد
- ١٠٩ ذكر طريق ملك الالمان
- ١١٠ ذكر تمام خبر ملك الالمان
- ١١١ ذكر وقعة العادلية
- ١١٥ ذكر وصول الكندهري
- ١١٥ ذكر كتاب وصل من القسطنطينية
- ١١٧ ذكر حريق المنجنيقات
- ١١٩ ذكر حيلة في ادخال المؤنة الى عكا وهي محصورة
- ١٢٠ ذكر قصة العوام عيسى
- ١٢٠ ذكر حريق المنجنيقات
- ١٢١ ذكر تمام حديث ملك الالمان والحيلة التي عملها المركز
- ١٢٢ ذكر وصول البطس من مصر
- ١٢٣ ذكر محاصرة برج الذباب
- ١٢٤ ذكر وصول ملك الالمان الى عسكرهم
- ١٢٦ ذكر حريق برج الكبش
- ١٢٩ ذكر قصة معز الدين
- ١٣١ ذكر طلب عماد الدين الدستوري

صحيفة

- ١٣٢ خروج العدو الى رأس الماء
 ١٣٦ ذكر وقعة الكمين
 ١٣٧ ذكر عود العسكر عن الجهاد
 ١٣٨ ذكر اتحاد السلطان لادخال البدل الى البلد
 ١٤٠ ذكر الظفر بمراكب العدو
 ١٤٠ ذكر موت ابن ملك الألمان
 ١٤١ ذكر غارة أسد الدين
 ١٤١ ذكر وقائع عدة في هذه السنة
 ١٤٢ ذكر وصول العساكر الاسلامية والملك افرنسيس
 ١٤٣ ذكر نادرة وبشارة
 ١٤٤ ذكر ملك الانكتار
 ١٤٥ ذكر قصة الرضيع
 ١٤٦ ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية
 ١٤٧ ذكر الشروع في مضايقة البلد
 ١٤٨ ذكر وصول الانكتار
 ١٤٨ غرق البطسة الاسلامية
 ١٤٩ ذكر حريق الدبابة
 ١٥٠ وقعات عدة
 ١٥٢ ذكر هرب المركيس الى صور
 ١٥٣ ذكر وصول بقية عساكر الاسلام

- ١٥٣ ذكر وصول رسولهم الي السلطان
 ١٥٥ ذكر قوة زحفهم على البلد ومضايقته
 ١٥٧ ذكر ما آل اليه أمر البلد من الضعف
 ١٥٩ ذكر كتب وصلت من البلد
 ١٦٠ ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم
 ١٦١ ذكر استيلاء العدو على عكا
 ١٦٢ ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك
 ١٦٣ ذكر خروج ابن باريك
 ١٦٤ ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا
 ١٦٥ مسير العدو الي عسقلان
 ١٧٢ ذكر وقعة جرت
 ١٧٣ ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم
 ١٧٤ ذكر اجتماع الملك العادل والانكسار
 ١٧٥ ذكر واقعة ارمون
 ١٨٢ ذكر رحيل السلطان الي الرملة
 ١٨٣ ذكر وصول رسول المركيس
 ١٨٤ ذكر مسير الملك العادل الي القدس
 ١٨٥ ذكر أخبار يزك كان على عكا
 ١٨٦ ذكر رسول الملك العادل الي الانكسار
 ١٨٧ ذكر هرب شركوه ابن باخل الكردي من عكا

- ١٨٨ ذكر ايفاد ابن شداد من الملك العادل الى السلطان
 ١٧٩ ذكر عود الرسول الى الانكتار بالجواب
 ١٩٠ ذكر خروج الافرنج من يافا
 ١٩١ ذكر وفاة تقي الدين الملك المظفر
 ١٩١ ذكر كتاب وصل من بغداد
 ١٩٣ ذكر وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس
 ١٩٣ ذكر واقعة الكمين الذي استشهد فيه اياس المهرني
 ١٩٤ ذكر اجتماع الملك العادل والانكتار
 ١٩٥ ذكر الرسالة التي انفذها الانكتار الى السلطان
 ١٩٥ ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان
 ١٩٦ ذكر وصول رسول الانكتار الى السلطان
 ١٩٧ التخيير بين الصلحين مع الانكتار أو المركيس
 ١٩٨ ذكر رحيل السلطان الى تل الجزر
 ١٩٩ ذكر مسير الملك العادل
 ٢٠٠ ذكر انفصال رسول المركيس
 ٢٠١ ذكر خروج سيف الدين المشطوب من الاسر
 ٢٠٢ ذكر عود رسول صور
 ٢٠٢ ذكر قتل المركيس
 ٢٠٣ ذكر تمة خبر الملك المنصور
 ٢٠٣ ذكر قدوم رسول ملك الروم

- ٢٠٤ ذكر ما جرى للملك العادل بين بلاد القرات
- ٢٠٤ ذكر استيلاء الافرنج على الدارون
- ٢٠٥ ذكر قصد الافرنج مجدل يابا
- ٢٠٥ ذكر وقعة جرت في صور
- ٢٠٦ ذكر قدوم المساكر الاسلامية للجهاد
- ٢٠٦ ذكر تعبئة العدو لقصد القدس الشريف
- ٢٠٧ ذكر نزول الافرنج بيت نوبة بالقرب من القدس
- ٢٠٨ » أخذ العدو قافلة مصر
- ٢١١ » قدوم الملك الافضل
- ٢١٢ » عود العدو الى بلادهم وسبب ذلك
- ٢١٥ » رسالة الكندهرى
- ٢١٦ » عود رسول الافرنج في معنى الصلح
- ٢١٧ » عود رسول الافرنج تانيا
- ٢١٨ » عود الرسول
- ٢١٩ » تبريز السلطان
- ٢٢٠ » حصار يافا
- ٢٢٢ » فتح يافا
- ٢٢٤ » كيفية بقاء القاعة في يد العدو =
- ٢٢٧ » حديث الصلح ✓
- ٢٣٠ » قدوم المساكر

	صحيفة
» قدوم الملك المنصور بن تقي الدين	٢٣١
» رحيل الملك المنصور الى الرملة	٢٣٢
» الاجابة الى النزول عن عسقلان	٢٣٣
» تمام الصلح	٢٣٥
» خراب عسقلان	٢٣٧
» عود العساكر الاسلامية الى اوطانهم	٢٣٩
» وصول رسول من بغداد	٢٣٩
» توجه الملك الظاهر الى بلاده	٢٤٠
» مسير السلطان الى القدس الشريف	٢٤١
» عود السلطان الى دمشق	٢٤٣
» قدوم الملك العادل	٢٤٤
» لقاء السلطان للعجاج	٢٤٥
» مرض السلطان	٢٤٦
» تحليف الملك الافضل الامراء والوزراء	٢٤٨
» وفاة السلطان	٢٤٩



﴿ فهرست الذيل من منتخبات التاريخ لصاحب حماة ﴾

	صحيحة
ذكر قتل الصالح ابن رزبك	٢٥٣
ذكر ولاية شاور ثم الدرغام	٢٥٣
حوادث سنة ٥٥٩	٢٥٤
ذكر ابتداء الدولة الايوبية	٢٥٦
اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية	٢٦٣
ذكر ملك شمس الدين توران شاه ابن أيوب لليمن	٢٦٧
ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمن	٢٦٧
ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر	٢٦٩
ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها	٢٦٩
ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل	٢٧٢
ذكر وفاة المستضيء وخلافة الامام الناصر	٢٧٦
ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل	٢٧٧
ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب	٢٧٨
ذكر مسير السلطان صلاح الدين الى الشام	٢٧٩
ذكر ارسال سيف الاسلام الي اليمن	٢٧٩
ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما أخذه من البلاد	٢٨٠
ذكر حوادث حجة	٢٨١
ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد	٢٨٢
ذكر غير ذلك من الحوادث	٢٨٤
ذكر غزو السلطان الكرك	٢٨٥
ذكر حصار السلطان الموصل	٢٨٦
ذكر ملك السلطان ميفارقين	٢٨٦
ذكر نقل الملك العادل من حلب واخراج الملك الافضل من مصر	٢٨٧
ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل	٢٨٨

صحيفة

- ٢٨٩ ذكر غزوات السلطان وفتوحاته في سنة ٥٨٣
٢٨٩ ذكر واقعة حطين
٢٩٦ ذكر حصار الافرنج عكا وغير ذلك من الحوادث
٢٩٩ ذكر استيلاء الافرنج على عكا
٣٠٠ ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر
٣٠٣ عقد الهدنة مع الافرنج
٣٠٥ ذكر وفاة عز الدين صاحب بلاد الروم
٣٠٨ ذكر وفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب
٣١٠ ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان

﴿ تم ﴾



Yūsuf ibn Rāfi', called Ibn Shaddād

كُتَابُ

سِيَرِ صَالِحِ الدِّينِ

Kitāb sirat Ṣalāh al-Dīn al-Ayyūbi
الايوبي

— ﴿ السماة ﴾ —

بالتوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

Navādir al-sultāniyah

﴿ تأليف ﴾

(القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد)

(المتوفي سنة ٦٣٢ هجرية)

|| وفي ذيله منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماء

(تأليف تاج الدين شاهنشاه ابن أيوب رحمه الله)

طبع في مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧

على نفقة شركة طبع الكتب العربية بمصر



- ﴿ قرر مجلس ادارة (شركة طبع الكتب العربية في عصر القاهرة) بجلسة ﴾
- ﴿ يوم الخميس ٦ صفر سنة ١٣١٧ طبع كتاب سيرة السلطان يوسف ﴾
- ﴿ صلاح الدين الأيوبي المسماة (النوادر السلطانية * والمحاسن ﴾
- ﴿ (اليوسفية) تأليف العلامة القاضي بهاء الدين ابن شداد . وذلك لان ﴾
- ﴿ هذا السلطان العظيم اكبر مجدد لمجد الاسلام في اثر غارات الصليبيين ﴾
- ﴿ الكبرى على البلاد الاسلامية . ولان هذا الكتاب الجليل من ﴾
- ﴿ أضبط الكتب التي اشتملت على تاريخ حياة ذلك المجدد العظيم ﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الحمد لله) الذي من علينا بالاسلام * وهدانا بالايان الجارى على أحسن نظام * وأنم علينا بشفاعة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام * وجعل سير الأولين عبرة لأولى الأفهام * وتقلبات الاحوال قاضية على كل أمر حادث بالانصرام * كبلا يفتتر ذو جمال حسن ولا يياس من لعبت بأحواله اكف السقام (وأشهد) أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشفى القلوب من لظى الأوام (وأشهد) أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي فتح للهداية أبوابا يلج المستفتحون لها بمفاتيح الانتقاد والاستسلام * صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة بقاء الأيام * وبعد * فاني لما رأيت أيام مولانا السلطان * الملك الناصر جامع كلمة الايمان * وقامع عبدة الصلبان * رافع علم العدل والاحسان * صلاح الدنيا والدين * سلطان الاسلام والمسلمين * منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين خادم الحرمين الشريفين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى سقى الله ضريحه صوب الرضوان * وأذاقه فى مقر رحمة حلاوة نتيجة الأيمان * قد صدقت من أخبار الأولين ما كذبه الاستبعاد * وشهدت بالصحة لما روى من نوادر الكرام الاجواد * وحققت وقفات شجعان مماليكها ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان * ورأيت بالميان من الصبر على المكاره فى ذات الله ما قوي بها الايمان * وغظمت عجائبها عن أن يحيط بها خاطر أو يجنحها جنان * وجلت نوادرها أن تحد بيان لسان * أو أن تسطر فى طرس

بنان * وكانت مع ذلك من قبيل لا يمكن الخبير بها اخفاؤها * ولا يسع
المطلع عليها الا أن تروي عنه أخبارها وأباؤها * ومسنى من رق نعمتها * وحق
محبها وواجب خدمتها * ما يجب على به إيداء ما حققت من حسناتها * ورواية
ما علمت من محاسن صفاتها. (رأيت) أن أختصر من ذلك على ما أملاه على
العيان * أو الخبر الذي يقارب مضمونه درجة الايقان * وذلك جزء من كل
* وقل من جل * ليستدل بالقليل على الكثير * وبالشعاع على المستطيل بعد
المستطير * وسميت هذا المختصر من تاريخها * النواذر السلطانية * والمحاسن
اليوسفية * وجعلته قسمين أحدهما في مولده رحمه الله ومنشئه وخصائصه
وأوصافه وأخلاقه المرضية * وشمائله الراجعة في نظر الشرع الوافية * والقسم
الثاني في تقلبات الاحوال به ووقائعه وفتوحه * وتواريخ ذلك أيام حياته قدس
الله روحه * والله المستعان في الصيانة عن هفوات اللسان والقلم * وجريان
الخطار بما فيه مزلة القدم * وهو حسبي ونعم الوكيل

— القسم الاول في ذكر مولده وخصائصه وأوصافه —

﴿ شمائله وخلالله رحمة الله عليه ﴾

كان مولده رحمه الله على ما بلغنا من السنة الثقات الذين تتبوه حتى بنوا عليه تسيير
مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم في شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة
وذلك بقامة تكريت * وكان والده أيوب بن شاذي رحمه الله تعالى واليا بها وكان
كريماً اريحياً حليماً حسن الاخلاق مولده ببدين ثم اتفق له الانتقال من
تكريت الى الموصل المحروسة وانتقل ولده المذكور معه وأقام بها الى أن
ترعرع وكان والده محترماً هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتاك زنكي

واتفق لوالده الانتقال الى الشام وأعطى بعلبك وأقام بها مدة فنقل ولده المذكور الى بعلبك المحروسة وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ثدى محاسن أخلاقه حتى بدت منه أمارات السعادة * ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة * فقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى وعول عليه ونظر اليه وقربه وخصه * ولم يزل كلما تقدم قدما تبدو منه أسباب تقتضى تقديمه الى ما هو أعلى منه حتى بدا لعمه أسد الدين رحمه الله الحركة الى مصر المحروسة وذهابه اليها . وسيأتي بيان ذلك مفصلاً مبيناً ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية ﴾

﴿ وملاحظته للامور الشرعية ﴾

ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج الى بيت الله الحرام * وكان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم واكابر الفقهاء وفهم من ذلك ما يحتاج الى تفهمه بحيث كان اذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وان لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه * غير مارق سهم النظر الي التعطيل والتمويه جارية على نمط الاستقامة موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند اكابر العلماء * وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج اليه في هذا الباب . وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من

اولاده حتى ترسخ في اذهانهم في الصغر ورأيتة وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها
من حفظهم بين يديه*

(وأما الصلاة) فانه كان رحمه الله تعالى شديد المواظبة عليها بالجماعة حتى انه ذكر
يوماً أن له سنين ماصلي الجماعة . وكان ان مرض يستدعي الامام وحده
ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة . وكان يواظب على السنن الرواتب . وكان
له صلوات يصلها اذا استيقظ في الليل والا أتى بها قبل صلاة الصبح
ولم يكن يترك الصلاة مادام غفله عليه . ولقد رأيتة قدس الله روحه يصلي في
مرضه الذي مات فيه قائماً وما ترك الصلاة الا في الايام الثلاثة التي تغيب فيها
ذهنه . وكان اذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى

(وأما الزكاة) فانه مات رحمه الله تعالى ولم يحفظ ما يجب عليه به الزكاة (وأما
صدقة النفل) فانها استرقت جميع مملكته من الاموال فانه ملك ما ملك ولم
يخلف في خزانته من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرما
واحدا ذهباً ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة
ولا شيئاً من أنواع الاملاك

(وأما صوم رمضان) فانه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت
عليه في رمضانات متعددة وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الايام
وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي
فيها وقد واظب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته
الامراض وملازمة الجهاد عن قضائها ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه اللهم
الله تعالى الصوم وأقدرد على ما قضاه من تلك الفوائت فكان يصوم وانا أثبت
الايام التي يصومها لان القاضي كان غائباً وكان الطيب يلومه وهو لا يسمع ويقول

لا أعلم ما يكون فكانه كان ملهما ما يراد به رحمه الله تعالى
 (وأما الحج) فانه كان لم يزل عازماً عليه وناوياً له سيما في العام الذي توفي فيه
 فانه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب وعملنا الرفاة ولم يبق الا المسير فاعتاق
 عن ذلك بسبب ضيق الوقت وخلو اليد عما يليق بأمثاله فأخر الى العام
 المستقبل ففضى الله ما قضى وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام *
 وكان رحمه الله تعالى يحب سماع القرآن العظيم ويستجيد إمامه ويشترط أن
 يكون عالماً بعلم القرآن العظيم متقناً لحفظه . وكان يستقرئ من يحرسه في
 الليل وهو في برجه الجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع . وكان يستقرئ وهو
 في مجلسه العام من جرت عاداته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك . ولقد
 اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقرّبه وجعل
 له حظاً من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة *

وكان رحمه الله تعالى خاشع القلب رقيقه غزير الدمعة اذا سمع القرآن يخشع
 قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته . وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع
 الحديث ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فان كان ممن يحضر
 عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده
 ومما ليك المختصين به . وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث اجلاًلاً
 له * وان كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن
 الحضور في مجالسهم سعى اليه وسمع عليه * تردد الى الحافظ الاصفهاني
 بالاسكندرية حرسها الله تعالى وروى عنه أحاديث كثيرة

وكان رحمه الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه وكان يستحضرني في
 خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث ويقرؤها هو فاذا مرّ بحديث فيه

عبرة رقق قلبه ودمعت عينه

وكان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين يقول بعث الاجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار مصدقا بجميع ما وردت به الشرائع منسرحا بذلك صدره مبنضاً للفلاسفة والمعتلة ومن يعاند الشريعة * ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي قيل عنه انه كان معاندا للشرائع مبطلا وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمره بقتله فطلبه أياما فقتله

وكان قدس الله روحه حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة اليه . ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه . وذلك أن الفرنج خذلهم الله كانوا نازلين بيت نوبة وهو موضع قريب من القدس الشريف حرسها تعالى الله بينهما بعض مرحلة وكان السلطان بالقدس وقد أقام يزكا على العدو محيطا به وقد سير اليهم الجواسيس والمخبرين فتواصلت الاخبار بقوة عزهم على الصعود الي القدس ومحاصرته وتركيب القنابل عليه واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك فاستحضر الأمراء وعرفهم ما قددم المسلمين من الشدة وشاورهم في الاقامة بالقدس فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها وأصر الجميع على أنه لا مصلحة في اقامته بنفسه فانها مخاطرة بالاسلام وذكروا أنهم يقصدونهم ويخرج هو رحمه الله بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بمكا ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر على أن يقيم بنفسه علما منه انه ان لم يقيم لم يقيم

أخذ فلما انصرف الامراء الى بيوتهم جاء من عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون الا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره فعلم ان هذه اشارة منهم الى عدم الاقامة وضاف صدره وتقسيم فكره واشتدت فكرته * ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة من أول الليل الى أن قارب الصبح وكان الزمان شتاء وليس معنا ثلث الا الله تعالى ونحن نقسم أقساما ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى أخذني الاشفاق عليه والخوف على مزاجه فانه كان يغلب عليه اليبس فشفت اليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة فقال رحمه الله لملك جاءك النوم ثم نهض فما وصلت الي بيتي وأخذت لبعض شأني الا وأذن المؤذن وطلع الصبح وكنت أصلي معه الصبح في معظم الاوقات فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه فقال ما أخذني النوم أصلا فقلت قد علمت فقال من أين فقلت لاني ما نمت وما بقي وقت للنوم ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه فقلت له قد وقع لي واقع وأظنه مفيداً ان شاء الله تعالى فقال وما هو فقلت له الاخلاص الى الله تعالى والابانة اليه . والاعتماد في كشف هذه النعمة عليه . فقال وكيف نصنع فقلت اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرواح ويصلي على العادة بالاقصى موضع مسري النبي صلى الله عليه وسلم ويقدم المولى التصديق بشيء خفية على يد من يثق به ويصلي المولى ركعتين بين الاذان والاقامة ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح وتقول في باطنك « إلهي قد انقطعت أسبابي الارضية في نصرة دينك ولم يبق الا الاخلاص اليك والاعتصام بجميلك والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل » . فان الله اكرم من أن يخيب قصدك ففعل ذلك كله

وصلت الي جانبه على العادة وصلي الركعتين بين الاذان والاقامة
ورأته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجاده ولا أسمع
ما يقول فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك
وكان على اليزك يخبر فيها أن الفرنج محتبطن وقد ركب اليوم عسكرهم
بأسرد الي الصحراء ووقفوا الي قائم الظهيرة ثم عادوا الي خيامهم وفي بكرة
السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك . ووصل في أثناء النهار
جاسوس أخبر أنهم اختلفوا فذهبت الفرنسية الي أنهم لا بد لهم من
محاصرة القدس وذهب الانكتار وأتباعه الي أنه لا يخاطر بدين النصرانية
ويرميهم في الجبل مع عدم المياه فان السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس
من المياه وأنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على
مظهر الخيل وانهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم فأشاروا
به لا يخالفونهم . واما كانت بكرة الاثنين جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا عائدين
الي جهة الرملة فهذا ماشاهدته من آثار استنباطه واخلاده الي الله تعالى
رحمه الله

﴿ ذكر عدله رحمه الله تعالى ﴾

(روي) أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال الوالي العادل
ظل الله في أرضه فمن نصحه في نفسه أو عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا
ظل الا ظله ومن خانه في نفسه أو في عباد الله خذله الله يوم القيامة يرفع
للوالى العادل في كل يوم عمل ستين صديقا كلهم عابد مجتهد لنفسه
ولقد كان رحمه الله عادلاً رؤفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي . وكان

يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس غام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكين حتي يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً. على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يرض عليه من القصص في كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات. وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه. ولقد كان رؤوفاً بالرعية ناصراً للدين مواظباً على تلاوة القرآن العزيز عالماً بما فيه عاملاً به لا يعدوه أبداً رحمة الله عليه وما استغاث اليه أحد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعنى بقصته. ولقد رأيت واستغاث اليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه فأنفذ اليه ليحضر الى مجلس الحكم وكان تقي الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنه لم يجابه في الحق

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع انسان تاجر يدعي عمر الخلاطي وذلك اني كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل على شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي معه كتاب حكى يسأل فتحه فسألته من خصمك فقال خصمي السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعنا أنك لا تحابي قلت وفي أي قضية هو خصمك فقال ان سنقر الخلاطي كان مملوكي ولم يزل على ملكي الي أن مات وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها فقلت له يا شيخ وما أقعدك الى هذه الغاية فقال الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب

الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي الي أن مات فأخذت الكتاب منه
وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حاية - نقر الخلاطى وأنه قد اشتراه من
فلان التاجر بأرجيش اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وأنه لم يزل
في ملكه الي أن شد عن يده في سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب
خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط الي آخره فتمعجت من هذه القضية
وقلت للرجل لا ينبغي سماع هذا بلا وجود الخصم وأنا أعرفه وأعرفك
بإعنده فرضي الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك
اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعادا عظيما وقال كنت نظرت في
الكتاب فقلت نظرت فيه ورأيت متصل الورود والقبول الي دمشق وقد
كتب عليه كتاب حكمي من دمشق وشهد به على يد قاضي دمشق شهود
معروفون فقال مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل في القضية ما يقتضيه
الشرع * ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة فقلت له هذا الخصم يتردد ولا يد
أن نسمع دعواه فقال أقم عني وكيفا يسمع الدعوى ثم يقيم الشهود شهادتهم
وأخر فتح الكتاب الي حين حضور الرجل هاهنا ففعلت ذلك ثم أحضر
الرجل واستدناه حتى جالس بين يديه وكنت الي جانبه ثم نزل من طراحته
حتى ساواه وقال ان كان لك دعوي فاذكرها فحرر الرجل الدعوي على معنى
ما شرح أولا فاجابه السلطان أن سنقر هذا كان مملوكي ولم يزل على ملكي حتى
أعتقته وتوفى وخلف ما خلفه لورثته فقال الرجل لي بينة تشهد بما ادعيتيه ثم
سأل فتح كتابه ففتحته فوجدته كما شرحه فلما سمع السلطان التاريخ قال عندي
من يشهد أن سنقر هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر وأني
اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم يزل

في يدي وملكي الى ان اُعتقته ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ادعاه فأبأس الرجل فقلت له يا مولاي هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلبا لمراحم السلطان وقد حضر بين يدي المولى ولا يحسن أن يرجع خائبا للقصد فقال هذا باب آخر وتقدم له بخلمة ونفقة بالنة قد شذعتي متدارها. فانظر الى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة والتواضع والانتقياد الى الحق وارغام النفس والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمه الله تعالى رحمة واسعة

﴿ ذكر طرف من كرمه رحمه الله ﴾

قال صلى الله عليه وسلم اذا عثر الكريم فان الله آخذ بيده وفي الكرم أحاديث * وكرمه قدس الله روحه كان أظهر من أن يسطر * وأشهر من أن يذكر لكن نهت عليه جملة * وذلك أنه ملك ما ملك ومات ولم يوجد في خزائنه من الفضة الا سبعة وأربعون درهما ناصرية ومن الذهب الاجرم واحد صوري ما علمت وزنه وكان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد وطلبها منه ابن قره ارسلان فاعطاه اياه

ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف وكان قد عزم على التوجه الى دمشق ولم يكن في الخزانة ما يعطى الوفود فلم أزل أخاطبه في معنهم حتى باع أشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد وكان رحمه الله يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة * وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئا من المال حذراً أن يفاجئهم مهم لعلهم بأنه متى علم به أخرجه * وسمعته يقول في معرض حديث جرى يمكن أن يكون في الناس

من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب فكانه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى
 وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب فما سمعته قط يقول اعطينا
 لفلان . وكان يعطي الكثير ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً .
 وكان رحمه الله يعطي ويكرم اكثر مما يعطي وكان قد عرفه الناس فكانوا
 يستزيدونه في كل وقت وما سمعته قط يقول قد زدت مرارا فكم أزيد
 واكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني ويدي وكنت أخجل
 من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه من كثرة ما أطلبه لهم لعلمي بعدم
 مؤاخذته في ذلك وما خدمه أحد الا وأغناه عن سؤال غيره
 (وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها) فلا تطمع فيها حقيقة أصلاً وقد
 سمعت من صاحب ديوانه يقول لي قد تجارينا عطاياه فخصرنا عدد
 ما وهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس . ومن شاهد
 مواهبه يستقل هذا القدر * اللهم انك ألهمته الكرم وأنت أكرم منه فتكرم
 عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين

— ذكر شجاعته قدس الله روحه —

(روي) عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله يحب الشجاعة ولو
 على قتل حية * ولقد كان رحمه الله تعالى من عظماء الشجعان قوي النفس شديد
 البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر ولقد رأيتاه يعطى دستوراً في أوائل الشتاء
 ويبقى في شردمة يسيرة في مقابلة عددهم الكثير وقد سألت باليان بن بارزان
 وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد
 الصلح عن عدتهم فقال الترجمان عنه انه يقول كنت أنا وصاحب صيدا

وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرياً من صور فلما أشرفنا عليه تحازرناه فخرهم هو خمس مائة ألف وحزرتهم أنا بستمائة ألف أو قال عكس ذلك قلت فكم هلك منهم فقال أما بالقتل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والغرق فلا تعلم وما رجعت من هذا العالم إلا الأقل

وكان لا بد له من أن يطوف حول المدوّ في كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم . ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على عكا وأنا أعدّها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس

وكان رحمه الله تعالى إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد عنى يده جنيب ويحرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ويرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها . وكان يشارف العدو ويمجاوره رحمه الله . ولقد قرئ عليه جزآن من الحديث بين الصفين وذلك أني قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين الصفين فإن رأي المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً فأذن في ذلك فأحضر جزءه كما أحضر من له به سماع فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين نمشي تارة ونقف أخرى

وما رأيت استكثر المدوّ أصلاً ولا استعظم أمرهم قط وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير تذكر بين يديه الأقسام كلها ويرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه . ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع الكؤوس والعلم وهو رضي الله عنه ثابت القدم في نفر يسير حتى انحاز إلى الجبل يجمع الناس

ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة الى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مستول من جانبهم فان الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها وكانت المصلحة في الصلح وظهر ذلك لما أبدت الاقضية الالهية والاقدار ما في مكنونها. وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابراً مرابطاً وتترامى الناران ونسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون منا صوت الاذان الى ان انقضت الوقعة على أحسن حال وأيسره قدس الله روحه ونور ضريحه

ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ونصوص الجهاد كثيرة. ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد ديناراً ولا درهما الا في الجهاد أو في الارفاد لصدق وبر في يمينه. ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً بحيث ما كان له حديث الا فيه ولا نظر الا في الله ولا كان له اهتمام الا برجاله ولا ميل الا الى من يذكره ويمحى عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة. ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريمية على مرج عكا فلم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك الا رغبة ومصابرة واهتماماً. وكان الرجل

إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روي في فضله وشرحت غريبها . وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز نصره * ولأحكيين عنه ما سمعته منه وذلك انه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة وأعطى العسكر دستوراً وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر وكان مقدماً أخاه الملك العادل عز نصره فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف حرسه الله تعالى وسرنا في خدمته . ولما صلي العيد في القدس وقع له أن يمضي إلى عسقلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ويرتب أحوالها فأشاروا عليه أن لا يفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبتى في عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة فلم يلتفت رحمه الله وودع أخاه والعسكر بعسقلان ثم سرنا في خدمته إلى الساحل طالبي عكا . وكان الزمان شتاء والبحر هائجا شديداً وموجه كالجبال كما قال تعالى وكنت عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أني لو قال لي ان جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل واستخسفت رأي من ركب البحر وجاء دينار أو درهم واستحسن رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر فينا أنا في ذلك إذ التفت إلى رحمه الله . وقال أما أحكي لك شيئاً في نفسي انه متي ما يسر الله تعالى فتحت بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره واتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الارض من يكفر بالله أو أموت فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان خطر لي وقلت له

ليس في الارض أشجع نفساً من انثولي ولا أقوى منه نية في نصره دين الله تعالى فقال فكيف فقلت أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله . وأما نصره دين الله فهو ان المولي ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الارض حتي تطهر جميع الارض منهم واستأذنت أن أحكي له ما كان خطري فخكيت له ثم قلت ما هذه الاية جميلة ولكن المولي يسير في البحر العساكر وهو سور الاسلام ومنعته فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه فقال أنا أستفتيك ما أشرف الميتين فقلت الموت في سبيل الله فقال غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتين فانظر الى هذه الطوية ما أطهرها . والي هذه النفس ما أشجعها وأجرأها رحمة الله عليه اللهم انك تعلم انه بذل جهده في نصره دينك وجاهد رجاء رحمتك فارحمه

﴿ صبره واحتسابه رحمة الله عليه ﴾

قال الله سبحانه وتعالى ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم . ولقد رأيت رحمة الله بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دمايل كانت ظهرت عليه من وسطه الى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس وانما يكون منكبا على جانبه ان كان بالحيمة وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس وكان يأمر أن يفرق على الناس وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبا من العدو وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا تعبية القتال وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الي صلاة المغرب يطوف على الاطلاب صابرا على شدة الالم وقوة ضربان الدمايل وأنا أتعجب من ذلك فيقول اذا ركبت يزول عني ألمها حتي انزل وهذه عناية ربانية *
ولقد مرض رحمه الله ونحن على الحزنوبة وكان قد تأخر عن تل الحجل

لسبب مرضه فبلغ الافرنج نخرجوا طمعا في أن ينالوا شيئا من المسلمين وهي نوبة النهر نخرجوا في مرحلة الآبار التي تحت التل فامر رحمه الله بالثقل حتى يتجهز بالرحيل والتأخر عن جهة الناصرة. وكان عماد الدين صاحب سنجار متعرضا أيضا فاذن له أن يتأخر مع الثقل وأقام هو ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا فركب على مضض ورتب العسكر للقاء القوم تعبئة الحرب وجعل طرف الميمنة الملك العادل وطرف الميسرة تقي الدين وجعل ولده الملك الظاهر والملك الافضل عز نصرهما في القلب ونزل هو وراء القوم يطلبهم واول ما نزل من التل احضر بين يديه افرنجي قد أسر من القوم فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الاسلام عليه وإيائه عنه وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديرا الي ورائهم حتي يقطع بينهم وبين خيامهم وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ولا ينصب له خيمة حتي لا يرى العدو ضعفا ولم يزل كذلك حتي نزل العدو برأس النهر ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم الي أن دخل الليل ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت الي محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح وتأخر هو ونحن في خدمته الي قمة الجبل فضربت له خيمة لطيفة وبتنا تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتي لاح الصباح ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر واحدقت بالعدو ورحل العدو عائدا الي خيامهم من الجانب الغربي من النهر وضايقتهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا وجميع من حضر منهم ولم يزل يبعث من عنده حتي لم يبق عنده الا أنا والطبيب وعارض الجيش والعلماء بايديهم الإعلام والبيارق لاغير فيظن الرأي لها عن بعد

ان تحتها خلقا عظيما ولم يزل العدو سائرا والقتل يعمل فيهم وكلما قتل منهم شخص دفنوه وكلما جرح منهم رجل حملوه حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الامر ونزلوا عند الجسر وكان الافرنج متى نزلوا الى الارض أيس المسلمون من بلوغ غرض منهم لانهم يجتمعون في حالة النزول جماعة عظيمة وبقي رحمه الله في موضعه والساكر على ظهور الخيل قبالة العدو الى آخر النهار ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم وعدنا الى منزلنا في الليلة الماضية وعاد المسكر في الصباح الي ما كان عليه بالامس من مضايقة العدو ورحل العدو وسار على ماضى من القتل والقتال حتى دنا الى خيامه وخرج اليه منها من أنجده حتى وصلوا الي خيامهم *

فانظر الى هذا الصبر والاحتساب والى أي غاية بلغ هذا الرجل . اللهم انك ألهمته الصبر والاحتساب ووقفته له فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين * ولقد رأيتُه رحمه الله تعالى وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه *

واقدر رأيتُه ليلة على صنفد وهو يحاصرها وقد قال لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته قدس الله روحه في ألد مفاكهة وأرغد عيش والرسل تتواصل تخبره بان قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني حتى أتى الصباح وقد فرغ منها ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها وكانت من أطول الليالي وأشدّها بردا ومطرا

ورأيته وقد وصل اليه خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه ونحن في مقابلة
 الافرنج جريدة على الرملة وبيننا وبينهم شوط فرس لاغير فأحضر الملك
 العادل وعلم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين وأمر بالناس فطردوا
 من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم ثم أظهر
 الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديداً حتى أبكنا من غير أن نعلم السبب ثم
 قال رحمه الله والعبرة تخنقه توفي تقي الدين فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ثم عدت
 الى نفسي فقلت استغفروا الله تعالى من هذه الحالة وانظروا أين وفيم أتم وأعرضوا
 عما سواه فقال رحمه الله نعم استغفر الله وأخذ يكررها ثم قال لا يعلم أحد
 واستدعى بشي من الماورد فغسل عينيه ثم أشخص الطعام وحضر الناس ولم
 يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو الى يافا وعدنا نحن الى النظرون وهو مقر ثقلنا*
 وكان رحمه الله شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار وهو صابر على
 مفارقتهم راض ببعدهم عنه وكان صابراً على مر العيش وخشونته مع القدرة
 التامة على غير ذلك احتساباً لله تعالى اللهم انه ترك ذلك كله ابتغاء مرضاتك
 فارض عنه وارحمه *

﴿ ذكر نبد من حلمه وعفود رحمه الله ﴾

قال الله سبحانه وتعالى والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . لقد كان
 متجاوزاً قليل الغضب ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الافرنج
 الي عكا يسر الله فتحها وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب ثم ينزل
 فيمد الطعام ويأكل مع الناس ثم ينهض الي خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ
 من منامه ويصلي ويجلس خلوة وأنا في خدمته نقرأ شيئاً من الحديث أو
 شيئاً من الفقه* ولقد قرأ على كتاباً مختصراً تصنيف الرازي يشتمل على الارباع

الاربعة من الفقه ونزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض
بقيل له ان وقت الصلاة قد قرب فعاد الى الجلوس وقال نصلي وننام ثم جلس
يتحدث حديث متضجر وقد أخلا المكان الامن لزم فنقدم اليه مملوك كبير
محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال له أنا الآن ضجران
آخرها ساعة فلم يفعل وقدم القصة الى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها
بمحيث يقرأها فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فرفه فقال رجل مستحق
فقال يوقع المولى له فقال ليست الدواة حاضرة الآن وكان رحمه الله جالسا في باب
الحركاه بحيث لا يستطيع احد الدخول اليها والدواة في صدرها والحركاه كبيرة
فقال له المخاطب هذه الدواة في صدر الحركاه وليس لهذا معنى الا أمره اياه
باحضار الدواة لا غير فالتفت رحمه الله فرأى الدواة فقال والله لقد صدق ثم
امتد على يده اليسرى ومد يده اليمنى فاحضرها ووقع له فقلت قال الله تعالي
في حق نبيه صلى الله عليه وسلم وانك لم لي خلق عظيم وما أري المولى الا قد
شاركه في هذا الخلق فقال ماضر ناشيا قضيينا حاجته وحصل الثواب ولو وقعت هذه
الواعة لآحاد الناس وافرادهم لقام وقعد ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو
تحت حكمه بمثل ذلك وهذا غاية الاحسان والحلم والله لا يضيع أجر المحسنين*
ولقد كانت طراحته تداس عند التزامه عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر
لذلك ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته فزحمت وركه حتي
ألمته وهو يتبسم رحمه الله . ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير الي
القدس الشريف وهو كثير الوحل فنضحت البغلة عليه من الطين حتي أنقلت
جميع ما كان عليه وهو يتبسم وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني*
ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغظ ما يمكن أن يسمع

ويأتي ذلك بالبشر والقبول * وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها . وذلك انه كان قد اتجه اخو ملك الافرنج خذلهم الله الى يافا فان العسكر كان قد رحل عنهم وبعد وتراجع الى النظرون وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجد وثلاث معتادة وجمع رحمه الله العسكر ومضى الى قيسارية يلتقي نجدتهم عساه يبلغ منها غرضاً وعلم الافرنج الذين كانوا بيافا ذلك وكان بها الانكثار ومعه جماعة فجز معظم من كان عنده في المراكب الى قيسارية خشية على النجدة أن يتم عليها أمر وبقي الانكثار في نفر يسير لعلمهم ببعده رحمه الله عنهم وبعد العسكر * ولما وصل رحمه الله الى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت الى البلد واحتمت به وعلم انه لا ينال منهم غرضه سري من ليلته في أول الليل الى آخره حتى أتى يافا صباحاً والانكثار في سبعة عشر فارساً وثلثمائة راجل نازلاً خارج البلد في خيمة له فصبحه العسكر صباحاً فركب الملعون وكان شجاعاً باسلاً صاحب رأي في الحرب وثبت بين يدي العسكر ولم يدخل البلد فاستدار العسكر الاسلامي بهم الا من جهة البحر وتعبى العسكر تعبى القتال وأمر السلطان العسكر بالحملة انتهازاً للفرصة فأجابه بعض الأكراد بكلام فيه خشونة تعتب لعدم التوفير في اقطاعه فعطف رحمه الله عنان فرسه كالمغضب لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم شيئاً وتركهم وانصرف راجعاً وأمر بخييمته التي كانت منصوبة انقلعت وانفضوا متيقنين ان السلطان في ذلك اليوم ربما صلب جماعة * ولقد حكى لي ولده الملك الظاهر أعز الله أنصاره أنه خاف منه في ذلك اليوم حتى أنه لم يتجاسر أن يقع في عينيه مع أنه حمل في ذلك اليوم وأوغل ولم يزل سائر أختي نزل بسازور وما من الأمراء الا من يرعد خيفة ومن يعتقد أنه مأخوذ

مسخوط عليه قال ولم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه حتى استدعاني قال فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فأكهة كثيرة فقال اطلبوا الامراء حتى يأكلوا شيئاً قال فسرّى عني ما كنت أجده وطلبت الامراء فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والامن والسرور وانصرفوا على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلاً فانظر الى هذا الخلم الذي لا يتأتى في مثل هذا الزمان ولا يحكي عن تقدم من أمثاله رحمة الله عليه *

﴿ ذكر محافظته على أسباب المروءة ﴾

قال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت لأتم مكارم الاخلاق وكان صلى الله عليه وسلم اذا صاحفه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك . ولقد كان السلطان كثير المروءة ندي اليد كثير الحياء مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف لا يرى أن يفارقه الضيف حتى بطم عنده ولا يخاطبه بشيء الا وينجزه وكان يكرم الوافد عليه وان كان كافراً . ولقد وفد عليه البرنس صاحب انطاكية فما أحس به الا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمس مائة عند منصرفه من القدس الي دمشق عرض له في الطريق وطلب منه شيئاً فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل وهو سنة أربع وثمانين *

ولقد رأيتاه وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصره فاحترمه واكرمه واكل معه الطعام ومع ذلك عرض عليه الاسلام فذكر له طرفاً من محاسنه وحثه عليه *

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي
الاقدار وكان يوصينا بان لا نفعل عن مجتاز بالحيم من المشايخ المعروفين
حتى يحضرهم عنده وينالهم من احسانه . ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين
وخمس مائة رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوى الاقدار وأبوه
صاحب توريذ فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل وحج ووصل
زائرا لبيت الله المقدس ولما قضى لباته منه ورأى آثار السلطان رحمه الله
فيه وقع له زيارته فوصل الينا الي المعسكر المنصور فما أحسست به الا وقد
دخل على في الخيمة فلقيته ورحبت به وسألته عن سبب ذلك ووصوله
فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة
فعرفت السلطان بذلك في ليلة وصول هذا الرجل فاستحضره وروي عنه
حديثا ثم انصرفنا وبات عندي في الخيمة فلما صليت الصبح أخذ يودعني
فبجحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال قد
قضيت حاجتي منه ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته وانصرف من
ساعته ومضى على ذلك ليال فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله فظهر عليه آثار
الغضب كيف لم أخبره برواحه وقال كيف يطرقتنا مثل هذا الرجل وينصرف
عنا من غير احسان يمسه منا وشدد النكير على في ذلك فما وجدت بدا من
أن اكتب كتابا الي محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال
الرجل وايصال رقعة كتبها اليه طي كتابي أخبره فيها بانكار السلطان رواحه
من غير اجتماعه به وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي
مثل ذلك فما أحسست به الا وقد عاد الي فرحب به السلطان وانبسط
معه وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة وأعطاه مركبا لائقا وثيابا كثيرة

يحملها الى بنيه واتباعه وخيرانه وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم
 دعاء لأيامه *
 ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير أفرنجي قد أصابه كرب بحيث أنه
 ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع فقال للترجمان من أي شيء يخاف فأجرت
 الله علي لسانه أن قال كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له
 وحضور بين يدي أيقنت أنني ما أرى إلا الخير فرق له ومن عليه وأطلقه
 ولقد كنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الأفرنج وقد وصل بعض
 الزكية ومعه امرأة شديدة التخوف بكثرة البكاء متواترة اللق على صدرها
 فقال الزكي ان هذى خرجت من عند الأفرنج فسألت الحضور بين يديك
 وتد أئنا بها فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها فقالت اللصوص المستنون
 دخلوا البارحة الي خيمتي وسرقوا ابنتي وبت البارحة استغيث الي بكرة النهار
 فقال لي المملوك السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلين ابنتك منه
 فأخرجوني اليك وما عرف ابنتي إلا منك فرق لها ودمعت عينه وحركته سرورته
 وأمر من ذهب الي سوق العسكر يسأل عن الصغيرة فمن اشتراها ويدفع
 له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه فما مضت ساعة
 حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه فما كان إلا أن وقع نظرها عليها فخرت
 الي الارض تغفر وجهها في التراب والناس يكون على ما نالها وهي ترفع
 طرفها الي السماء ولا تعلم ما تقول فسلمت ابنتها اليها وجملت حتى أعيدت
 الي عسكرهم *
 وكان لا يري الإساءة الي من صحبه وان أفرط في الحياة ولقد أبدل في
 خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب

شياً سوى أن طرّفهم من عملهم لا غير *
 ولقد دخل البرنس أرناط صاحب الكرك مع ملك الافرنج بالساحل
 لما أسرها في واقعة حطين في شهر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة والواقعة
 مشهورة تجيء مشروحة في موضعها إن شاء الله تعالى وكان قد أمر باحضارها
 وكان أرناط هذا اللعين كافراً عظيماً جباراً شديداً وكانت قد اجتازت به قافلة
 من مطر نحين كان بين المسلمين وبينهم هدنة فعدوها وأخذها ونكل بهم
 وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الخرجة وذكروا له حديث الهدنة فقال قولوا
 لمحمدكم بخلصكم فلما بلغه رحمه الله ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه
 فلما أمكنه الله منه في ذلك اليوم قوي عزيمته على قتله وفاء بنذره فأحضره
 مع الملك فشكا الملك العطش فأحضر له قدحاً من شراب فشرب منه ثم ناوله
 أرناط فقال السيطان للترخان قل للملك أنت الذي بدميته وأما أنا فإسقيه
 من شرابي ولا أظعمه من طعامي فقصده رحمه الله أن من أكل من طعامي فالروية
 تقضي أن لا أؤذيه ثم ضرب عنقه بيده وفاء بنذره وأخذ عكا وأخرج الأسرى
 كلهم من ضيق الأسر وكانوا زهاء أربعة آلاف أمير وأعطى كل واحد منهم
 نفقة يصل بها إلى بلده وأهله . هكذا بلّغني على السنة جماعة لأنني لم أحضر
 هذه الواقعة *
 وكان حسن البشارة لطيف الإخلاق طيب الفكاهة حافظاً لأنساب
 العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم حافظاً لأنساب خيلهم عالماً بعجائب
 الدنيا ونواديرها بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره *
 وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه
 وتقلبات أحواله .

وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد الا بخير السمع فلا يجب أن يسمع عن أحد الا الخير وطاهر اللسان فما رأته ولع بستم قط * وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يقيم الا وترحم على مخلفيه وجبر قلبه وأعطاه وجبر مصابه وان كان له من اهله كبير يعتمد عليه سلمه اليه والا أبقى له من الخير ما يكف حاجته وسلمه الي من يعتنى بتربيته ويكفلها .
وكان لا يري شيئا الا ويرق له ويعطيه ويحسن اليه ولم يزل على هذه الاخلاق الي ان توفاه الله الي مقر رحمة ومكان رضوانه

فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه اقتصرت عليها خوف الاطالة والسآمة وما سطرت الا ماشاهدته أو أخبرني الثقة به وحقيقته وهذا بعض ما اطلمت عليه في زمان خدمتي له وهو يسير فيما اطلع عليه غيري ممن طالت صحبته وتقدمت خدمته ولكن هذا القدر يكفي الاديب في الاستدلال على طهارة تلك الاخلاق والحلال * وحيث نجز هذا القسم فنشرع الآن في القسم الثاني من الكتاب في بيان تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في توارينها قدس الله روحه . ونور بنور رحمة ضريحه *

﴿ القسم الثاني في بيان تقلبات أحواله وفتوحاته في توارينها ﴾

ذكر حركته الي مصر في الدفعة الاولى صحبة عمه أسد الدين * سبب ذلك أن شاور وزير المصريين كان قد خرج عليه انسان يقال له الضرغام وكان يروم منصبه ومكانه فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل وغلب عليه وأخرجه من القاهرة وقتل ولده واستولي على المكان وولى الوزارة . وكانت عادة المصريين أنه اذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه فان قوتهم انما كانت بمسك

وزيرهم وهو ملقب عندهم بالسلطان وما كانوا يرون المكاشفة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال فلما قهر شاور وأخرج من القاهرة اشتد في طلب الشام قاصدا خدمة نور الدين ابن زنكي مستصر خا به مستنصرا على أعدائه بمسكروه فتقدم نور الدين الي أسد الدين شيركوه بالخروج الي مصر المحروسة قضاء لحق الوافد المستصرخ وحفظا للبلاد وتطلعا الي أحوالها وذلك في شهور سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فتأهب أسد الدين شيركوه وسار الي مصر فاستصحبه معه رحمه الله عن كراهية منه لمكان افتقاره اليه وجعله مقدم عسكريه وصاحب رأيه وساروا حتى وصلوا الي مصر وشاور معهم في الثاني من جمادي الآخرة سنة ثمان المذكورة . وكان لوصلهم الي مصر وقع عظيم وخافه أهل مصر ونصر شاور على خصمه وأعادته الي منصبه ومرتبته وقرر قواعده واستقر أمره وشاهد البلاد وعرف أحوالها وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد وعرف أنها بلاد بغير رجال * تمشي الامور فيها بمجرد الايهام والمحال * وكان ابتداء رحلته عنها متوجها الي الشام في السابع من ذي الحجة سنة ثمان المذكورة . وكان لا يفصل أمرا ولا يقرر حالا الا بمشورته ورأيه للملاح له من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته فاقام بالشام مدبرا لامره مفكرا في كيفية رجوعه الي البلاد المصرية محدثا بذلك نفسه مقررا قواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين زنكي الي سنة اثنتين وستين وخمسمائة

﴿ ذكر عودته الي مصر في الوقة الثانية وهي معروفة بوقعة البابين ﴾

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور فداخله الحرف على البلاد من الاتراك وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد وأنه

لا بدله من قصدها فكاتب الافرنج وقرر معهم أنهم يجيئون البلاد ويمكنهم
 تمكيننا كلياً ويعينونه على استئصال أعدائه بحيث يستقر قلبه فيها وبلغ ذلك أسد
 الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر إن ملكها الكفار
 واستولوا على البلاد كلها فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر
 وألزم السلطان رحمه الله المسير معه على كراهية منه لذلك . وكان توجههم
 في أثنى عشر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسة وكان وصولهم
 إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الافرنج إليها وانفق شاور مع الافرنج
 على أسد الدين والمصريون بأسرهم وجرت بينهم حروب كثيرة
 ووقعات شديدة وانفصل الافرنج عن الديار المصرية وانفصل أسد الدين
 . وكان سبب عود الافرنج أن نور الدين جرّد العساكر إلى بلاد الافرنج وأخذ
 المنيطرة وعلم الافرنج بذلك تخافوا على بلادهم وعادوا . وكان سبب عود أسد
 الدين ضعف عسكره بسبب موقعة الافرنج والمصريين وما عانوه من
 الشدائد وعانوه من الأهوال . وما عاد حتى صالح الافرنج على أن ينصرفوا
 كلهم من مصر وعاد إلى الشام في بقية السنة وقد انضم إلى قوة الطمع في
 البلاد شدة الخوف عليها من الافرنج لعلمه أنهم قد كسبوا كما كسبها
 وعرفوها من الوجه الذي عرفها فأقام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء
 يجره إلى شيء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك

— ذكر عوده إلى مصر في الدفعة الثالثة وهي التي ملكوها —

فيها وجري ماجري في شهور سنة أربع وستين وخمسة

ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد سير أسد الدين في رجب وخرب

قلعة أكاف بالبرية . وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين

ورزين الدين بمحاولة فرار وساروا الى بلاد الافرنج فخرجوا هونين في شوال منها
 . وفي ذي القعدة كان عود أسد الدين من مصر . وكان سبب ذلك أن الافرنج
 أخذهم الله جمعوا راجلهم وفارسهم وخرجوا يريدون الديار المصرية . ناكسين
 لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعا في البلاد
 فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعها الصبر دون أن سارعا الى قصد
 البلاد . أما نور الدين فبالمال والرجال ولم يسر بنفسه خوفا على البلاد من
 الافرنج ولأنه قد حدث نظره الى جانب الموصل بسبب وفاة زين الدين ابن
 بكتكين فانه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة وتسلم ما كان
 في يده من الحصون الى قطب الدين ما عدا أربل فانها كلها كانت له من أتاك
 زكي رحمه الله فحدث لنور الدين الى ذلك الجانب الطمع بهذا السبب فسير
 العسكر . وأما أسد الدين فبسيفه وملكه وأهله ورجاله ولقد قال في السلطان
 قدس الله روحه كنت أكره الناس للخروج في هذه الواقعة وما خرجت مع
 عمي باختياري وهذا معنى قوله تعالى وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم
 . وكان شاور لما أحس بخروج الافرنج الى مصر على تلك القاعدة أنفذ الى
 أسد الدين يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعا . وكان وصولهم الى مصر في
 أثناء ربيع الاول سنة أربع وستين وخمسمائة . ولما علم الافرنج وصول أسد
 الدين الى مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين وعلى أعقابهم
 ناكسين . وأقام أسد الدين بها يتردد اليه شاور في الاحيان . وكان وعدهم
 بمال مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل اليهم شيئا وعلقت مخاليب أسد
 الدين في البلاد وعلم أن الافرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد وترددهم
 اليها في كل وقت لا يفيدون شاور يلعب بهم تارة وبالافرنج تارة أخرى

وعلموا أنه لا سبيل الى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور فأجمعوا أمرهم على قبضه ان خرج اليهم وكانوا هم يترددون الى خدمته دون أسد الدين وهو يخرج في بعض الاحيان الى أسد الدين يجتمع به . وكان يركب على قاعدة ووزرائهم بالطبل والبوق والعلم فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة الا السلطان بنفسه . وذلك أنه لما سار اليهم تلقاه راكبا وسار الى جانبه وأخذ بتلابيه وأمر المسكر أن أخذوا على أصحابه قفروا ونهبهم العسكر وقبض على شاور وأنزل الى خيمة مفردة وفي الحال جاءه التوقيع من المصريين على يد خادم خاص لا بد من رأسه جريا على عادتهم في وزراءهم في تقرير قاعدة فيمن قوى منهم على صاحبه فحزت رقبته وأنفذ رأسه اليهم وأنفذ الى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها وسار ودخل القصر ورتب وزيراً وذلك في سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسة ودام أمراً ناهياً والسلطان رحمه الله مباشر الامور مقرر لها وزمام الامر والنهي مفوض اليه لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته الى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة

﴿ ذكر وفاة أسد الدين ومصير الامر الى السلطان ﴾

وذلك أن أسد الدين كان كثير الاكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة وتواتر عليه التخم والحوائق وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة وفوض الامر بعده الى السلطان واستقرت القواعد واستتبت الاحوال على أحسن نظام وبذل المال . وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله عليه فتاب من الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقصص بلباس الجد

والاجتهاد وما عاد عنه ولا ازداد الاّ جدّاً الى أن توفاه الله الى رحمته * ولقد سمعت منه يقول لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي * ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الافرنج الى الكرك والشوبك وبلادها وغشى الناس من سحائب الافضال والنعم ما لم يورخ عن غير تلك الأيام هذا كله وهو وزير متابع القوم ولكنه مقول مذهب السنة غارس في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين والناس يهرعون اليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصداً * ولا يعدم وافداً * ولما عرف نور الدين استقرار السلطان بمصر أخذ جمص من نواب أسد الدين وذلك في رجب من سنة أربع وستين *

﴿ ذكر قصد الافرنج دمياط حرسها الله تعالى ﴾

ولما علم الافرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وما تم للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية خانوا أن يملك بلادهم ويخرّب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الافرنج والروم جميعاً وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم أنها ان حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروح وآلات الحصار وغير ذلك ولما سمع إفرنج الشام بذلك اشتد أمرهم فسرقوا حصن عكا من المسلمين وأسروا صاحبها وكان مملوكاً لنور الدين يسمى خلطخ العلم دار وذلك في ربيع الآخر منها . ولما رأى نور الدين ظهور أمر الافرنج وبلذته نزولهم على دمياط قصد شغل

قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان من هذه السنة فقصدته افرنج الساحل فرحل عنها وتصد لقاءهم فلم يفت لهم على اثر ثم بلغه وفاد مجد الدين بن الداية بحلب وكانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وستين فاشتغل قلبه لانه كان صاحب أمره فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي أخربت كثيرا من البلاد المذكورة فسار يطلب حلب فبلغه موت قطب الدين أخيه بالموصل وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل ولما علم السلطان شدة قصد العدو دمياط انفذ الى البلد وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح ما آمن معه عليه ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وابعاد العدو عنهم ان نزل عليهم ثم نزل الافرنج في التاريخ المذكور واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها وهويشن الفارات عليهم من خارج والعساكر تقاتلهم من داخل ونصر الله المسلمين وأيدهم وحسن قصدهم في نصر دين الله وأسعدهم وأنجدهم حتى بان للافرنج الحسران . وظهر على الكفر الايمان . وزأوا أنهم ينجون برؤسهم . ويسلمون بنفوسهم . فرحلوا خائنين خاسرين فخرقت مناجيقهم ونهبت وقتل منهم خلق كثير وسلم البلد بحمد الله ومنه عن قصدهم وظهر بتوفيق الله فلّ حدهم * واستقرت قواعد السلطان *

﴿ ذكر طلبه والده ﴾

ثم أنفذ في طلب والده ليكمل السرور به ويتم الحبور وتجرى القصة فشاكلة لما جرى للنبي يوسف صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء أجمعين * فوصل والده نجم الدين اليه في اثناء جمادى الاخرى من سنة خمسة وستين

وسلك معه من الأدب ما كان عادته وألبسه الامر كله فابي أن يلبسه وقال
ياولدي ما اختارك الله لهذا الامر الا وانت كفو له * ولا ينبغي أن يغير موقع
السعادة فحكاه في الخزان بأسرها ولم يزل السلطان وزيراً محكماً حتى مات
العاقد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين .

وأما نور الدين فانه أخذ الرقة في المحرم سنة ست وستين وسار منها
الي نصيبين فأخذها في بقية الشهر وأخذ سنجار في ربيع الآخر منها ثم قصد
الموصل وقصد أن لا يقائلها فمبر بعسكره من مخاضة بلد وسار حتى خيم قبالة
الموصل على تلّ يقال له الحصن وراسل ابن أخيه عز الدين غازي صاحب
الموصل وعرفه صحة قصده فصالحه ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الاولى
وقرر صاحبها فيها وزوجه ابنته واعطى عماد الدين ابن أخيه سنجار وخرج من
الموصل قاصداً نحو الشام فدخل حلب في شعبان من هذه السنة

﴿ ذكر موت العاقد ﴾

وكان موته في يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة سبع وستين واستقر الملك
للسلطان وكان خطب ابني العباس في أواخر أمر العاقد وهو حي وكانت الخطبة
ابتدأوها للمستضيء بأمر الله واستمرت القواعد على الاستقامة وهو كلما استولى
على خزانة من المال وهبها وكلما فتح له خزائن ملك أنهبها ولا يبقى لنفسه
شياً وشرع السلطان في التأهب للغزاة وقصد بلاد العدو وتعبية الأمر
لذلك وتقرير قواعده * وأما نور الدين فانه عزم على الغزاة واستدعي صاحب
الموصل ابن أخيه فومسل بالمساكر الى خدمته وكانت غزاة عرفاً واخذها
في المحرم سنة سبع وستين

﴿ ذكر اول غزوة غزاهها من الديار المصرية ﴾

ولم يزل على قدم بسط العدل ونشر الاحسان واقامة الاحسان على الناس الى سنة ثمان وستين فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكرك والشوبك وانما بدأ بها لأنها كانت أقرب اليه وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فاراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة فخرج قاصدا لها فحاصرها وجري بينه وبين الافرنج وقعات وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الواقعة وحصل ثواب القصد * وأما نور الدين فانه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة وأخذ بهسا في ذي الحجة منها

﴿ ذكر وفاة والده نجم الدين ﴾

ولما عاد السلطان من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة أبيه نجم الدين فشق عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته . وكان سبب وفاته وقوعه عن الفرس وكان رحمه الله شديد الركض ولما بلغ الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت الا من وقوعه عن ظهر الفرس وكانت وفاته في شهر سنة تسع وستين ورأى السلطان قوة عسكره وكثرة عدد اخوته وقوة بأسهم وكان بلغه أن باليمن انسانا استولي عليها وملك حصونها وهو يخطب لنفسه يسمي بعبد النبي بن مهدي ويزعم أن ينتشر ملكه في الارض كلها ويستتب الامر له فرأى أن يسير اليها أخاه الأكبر شمس الدولة الملك المعظم تورانشاه وكان كريما أريحا حسن الاخلاق سمعت منه رحمه الله الثناء على كرمه وحسن أخلاقه وترجيحه على نفسه . وكان توجهه اليها في أثناء رجب سنة تسع

وستين فمضي اليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجي الذي كان بها واستولى على معظمها وأعطى وأغني خلقاً كثيراً.

﴿ ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله ﴾

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته أيضاً عجز الاطباء عن علاجها وتوفي يوم الاربعاء في الحادي والعشرين من شوال سنة تسع وستين وذلك في قلعة دمشق وأقام مقامه ولده الملك الصالح اسماعيل * ولقد حكى لي السلطان قال كان بلغنا عن نور الدين أنه قصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده اذا تحقق قصده وكنت وحدي أخالفهم وأقول لا يجوز أن يقال شيء من ذلك ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاة .

﴿ ذكر منافقة الكند بأسوان وذلك في شهور سنة تسع وستين ﴾

والكند انسان مقدم من المصريين كان قد نزع الي أسوان فاقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية وكان في قلوب القوم من مهاواة المصريين ما تستصغر هذه الافعال عنده فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر وقصدوا قوس واعمالها وانتهى خبره الي السلطان فجرد له عسكراً عظيماً شاكي السلاح من الذين ذاقوا حلاوة المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم فلقبهم بمصاف فكسروهم وقتل منهم خلقاً عظيماً واستأصل شأفتهم وأحمد ثأرتهم وذلك في السابع من صفر سنة سبعين واستقرت قواعد الملك واستوت أموره ولله الحمد والمنة *

﴿ ذكر قصد الافرنج ثغر الاسكندرية حرسها الله تعالى ﴾

وذلك أن الافرنج لما علموا تغيرات الاحوال بالديار المصرية وتقلبات الدول بها داخلهم الطمع في البلاد وجردوا عساكرهم في البحر وكانوا في ستمائة قطعة مابين شاني وطراة وبطسة وغير ذلك . وكانوا في ثلاثين ألفا على ما ذكر ونازلوا الثغر وذلك في أثناء صفر في السابع منه من هذه السنة وهي سنة سبعين فأمده السلطان بالمساكر المنصورة وتحرك وأدخل الله في قلوبهم من الخوف والرعب ما لم يمكنهم الصبر معه وعادوا خائنين خاسرين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالاً شديداً وعصمه الله منهم * ولما أحسوا بحركة السلطان نحوهم ما لبثوا أن خلفوا مناجيتهم وراءهم وآلتهم نخرج أهل البلد الي نهبا وإجراقها وكان أمراً عظيماً ومن أعظم النعم على المسلمين وأمانة كل سعادة *

﴿ ذكر خروج السلطان الى الشام وأخذه دمشق ﴾

وأما نور الدين فانه خلف ولده الملك الصالح اسماعيل وكان بدمشق وكان بقلمة حلب ابن الداية شمس الدين على وشاذ بنحت . وكان قد حدث نفسه بأمر فسار الملك الصالح من دمشق الى حلب فوصل ظاهرها ثاني المحرم ومعه سابق الدين نخرج بدر الدين للقائه فقبض على سابق الدين . ولما دخل الملك الصالح القلمة قبض على شمس الدين وأخيه حسن وأودع الثلاثة السجن . وفي ذلك اليوم قتل ابن الحشاش أبو الفضل لفتنة جرت بحلب ذكروا أنه قتل قبل إمساك أولاد الداية بيوم لانهم تونوا ذلك * ولما تحقق السلطان وفاة نور الدين وكان ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل

بدفع عدو الله عن البلاد تجهز للخروج الى الشام اذ هو أصل بلاد الاسلام فتجهز بجمع كثير من المساكر وخاف في الديار المصرية من يستقل بحفظها وحرصاتها ونظم أمورها وسياستها وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه وهو يكتب أهل البلاد وأمرائها واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدابيرهم وخاف بعضهم من بعض وقبض على جماعة منهم وكان ذلك سبب خوف الباقيين من فعل ذلك وسبباً لتبئير قلوب الناس عن الصبي فافتقر الحال أن كاتب شمس الدين بن المقدم السلطان ووصل البلاد مطالباً بالملك الصالح ليكون هو الذي يتولى أمره ويربّ حاله فيقوم له ما عوج من أمره فوصل دمشق ولم يشق عليه عصا ودخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وتسلم قلعتهما . وكان أول دخوله الى دار أبيه واجتمع الناس اليه وفي جوابه وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالا طويلا وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به وصعد القلعة واستقر قدمه في ملكها فلم يلبث أن طلب حلب فنازل حمص فأخذ مدينتها في جمادي الاولى سنة سبعين ولم يشغل بقلعتهما وسار حتى أتى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ الشهر المذكور وهي الوقعة الاولى

﴿ ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين الى لقائه ﴾

ولما أحس سيف الدين صاحب الموصل بما يجري علم ان الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه وعلت كلمته وخاف أنه ان غفل عنه استحوذ على البلاد واستقر قدمه في الملك وتمدي الامر اليه فجهز عسكرا وافرا وجيشا عظيما وقدم عليه أخاه عز الدين مسعودا وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد . ولما بلغ السلطان ذلك رحل عن حلب

مستهل رجب من السنة المذكورة عائداً الى حماه وسار الى حمص فاشتغل
 بأخذ قلعتها فأخذها ثم وصل عز الدين الى حلب وانضم اليه من كان بها من
 العسكر وخرجوا بجمع عظيم . ولما عرف هو بسيرهم سار حتى وافاهم في
 قرون حماه وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ورأوا أن
 المصاف ربما نالوا به الفرض الاكبر . والمقصود الاوفر . والقضاء يجر الى
 أمورهم بها لا يشعرون . وقام المصاف بين العسكرين بقضاء الله فانكسروا
 بين يديه وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم وذلك في تاسع عشر رمضان
 سنة سبعين أيضاً . ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهي الدفعة
 الثانية وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وأخذ بارين وذلك في
 أواخر هذه السنة

﴿ ذكر مسير سيف الدين بنفسه ﴾

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على سنجار يحاصر أخاه
 عماد الدين بقصد أخذها منه ودخوله في طاعته وكان قد أظهر أخوه الانتماء
 الى السلطان واعتصم بذلك واشتد سيف الدين في حصار المكان وضربه
 بالمنجنيق حتى انهدم من سورته ثلم كثيرة وأشرف على الأخذ فبلغه وقوع
 هذه الوقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره فراسله الى الصلح فصالحه
 ثم سار من وقته الى نصيبين واهتم بجمع العساكر والانفاق فيها وسار حتى
 أتى القرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب القرات الشامي وراسل كشتكين
 والملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها اليهم ووصل كشتكين اليه
 وجرت مراجعات كثيرة وعزم فيها الى العود مرارا حتى استقر اجتماعه
 بالملك الصالح وسمحوا به وسار ووصل حلب وخرج الملك الصالح الي

لقائه بنفسه فالتقاه قريب القلعة واعتنقه وضمه اليه وبكى ثم أمره بالعود الي
القلعة فعاد اليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدة وعسكر
حلب يخرج الي خدمته في كل يوم وصعد القلعة جريدة واكل فيها خبزا
ونزل وسار راحلا الي تل السلطان ومعه الديار البكرية وجمع كثير والسلطان
قد أنفذ في طلب العساكر من مصر وهو يترقب وصولها وهؤلاء
يتأخرون في أمورهم وتدايرهم وهم لا يشعرون أن في التأخير تديرا حتى
وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماء فبلغهم انه قارب
عسكره فأخرجوا الزك وجوزوا من يكشف الاخبار فوجدوه قد وصل
جريدة الي جناب التركمان وتفرق عسكره يسقى فلو أراد الله نصرتهم
لقصدوه في تلك الساعة ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً فصبروا عليه
حتى سقى خيله هو وعسكره واجتمعوا وتعبوا تعبى القتال وأصبح القوم على
مصاف وذلك في بكرة الخميس العاشر من شوال سنة احدى وسبعين فالتقى
العسكران وتصادما وجري قتال عظيم وانكسرت ميسرة السلطان بابن
زين الدين مظفر الدين فانه كان في ميمنة سيف الدين وحمل السلطان عليه
بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الأمراء منهم نخر الدين
عبد المسيح فمن عليهم وأطلقهم وعاد سيف الدين الي حلب المحروسة فأخذ
منها خزانة وسار حتى عبر الفرات وعاد الي بلاده وأمسك هو رحمه الله عن
تبع العسكر ونزل في بقية ذلك اليوم في خيام القوم فانهم كانوا قد أبقوا
الثقل على ما كان عليه والمطابخ قد عملت ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن
وأعطي خيمة سيف الدين عز الدين نخر وشاه وسار الي منبج وتسلمها في
بقية الشهر المذكور . وسار حتى نزل على قلعة اعزاز يحاصرها وذلك في

رابع ذي القعدة سنة احدى وسبعين وعليها وثب الاسماعيليه عليه فنجاه الله من كيدهم وظفر بهم ولم يفل ذلك عزمه وأقام عليها حتي أخذها وذلك في رابع عشر ذي الحجة من السنة وسار حتي نزل على حلب في سادس عشر منه فأقام مدة ثم سار عنها فأخرجوا اليه ابنة لنور الدين صغيرة وسألت منه اعزاز فوهبها اياها * وفي بقية الشهر أيضاً وصل شمس الدولة أخوه من اليمن الي دمشق وأقام بها مدة ثم عاد الي الديار المصرية وتوفي باسكندرية مستهل صفر سنة ست وسبعين * ثم ان السلطان عاد الي الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها وكان مسيره اليها في ربيع الاول من شهور سنة اثنتين وسبعين واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق فأقام رحمه الله بها يقرر قواعدها ويسد خللها وأراح العسكر ثم تأهب للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الافرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادي الاولي سنة ثلاث وسبعين

﴿ ذكر كسرة الرملة ﴾

وكان مقدم الافرنج البرنس أرناط وكان قد بيع بحلب فانه كان أسيرا بها من زمن نور الدين وجري خلل في ذلك اليوم على المسلمين . ولقد حكي السلطان صورة الكسرة في ذلك اليوم وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبوا تعبية القتال ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تعبر الميمنة الي جهة اليسرة واليسرة الي جهة الميمنة ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة فينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الافرنج وقدر الله كسرتهم فانكسروا كسرة عظيمة ولم يكن لهم حصن قريب يأوون اليه فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق وتبددوا واسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى وكان

وهنا عظيمًا جبره الله بوقعة حطين المشهورة والله الحمد *
وأما الملك الصالح فإنه تجبط أمره وقبض على كمشكين صاحب دولته وطلب
منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله . ولما سمع الافرنج بقتله نزلوا على حارم
طمعًا فيها وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين وقابل عسكر الملك
الصالح الساكر الافرنجية * ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الافرنج
سلوها الي الملك الصالح في العشر الاواخر من شهر رمضان من
السنة المذكورة

ولما علم الافرنج ذلك رحلوا عن حارم طالين بلادهم ثم عاد الملك
الصالح الي حلب ولم يزل أصحابه على اختلاف ينيل بعضهم الي جانب السلطان
حتى بلغه عصيان عز الدين قليج بتل خالد فأخرج اليه العسكر وذلك في
عاشر المحرم سنة ست وسبعين ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدين غازي صاحب
الموصل وكانت وفاته في ثالث صفر من هذه السنة وولي مكانه أخوه عز الدين
مسعود في الخامس منه وكانت وفاة شمس الدولة بالاسكندرية

﴿ ذكر عود السلطان الي الشام ﴾

ولما عاد السلطان بعد الكسرة الي الديار المصرية واقام بهار يئالم الناس
شهرهم وعلم بتجبط الشام عزم على العود اليه وكان عوده للنزاة فوصله رسول
قاييج أرسلان ياتس من السلطان الموافقة ويستغيث اليه من الارمن فأستقل
نحو ابن لاون لنصرة قاييج أرسلان ونزل بقره حصار وأخذ عسكر حلب
في خدمته لانه قد اشترط في الصلح فاجتمعوا على النهر الازرق بين بهنسة
وحصن منصور وعبر منه الي النهر الاسود وطرف بلاد ابن لاون وأخذ
منهم حصنا واخر به وبدلوا له أسارى والتمسوا منه الصلح وعاد عنه ثم راسله

قايح أرسلان في صالح الشرقيين بأسرهم واستقر الصلح وحلف السلطان في
عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة
وديار بكر وكان ذلك على نهر سبخة سنجة وهو نهر يرمي إلى الفرات وسار
السلطان نحو دمشق

﴿ ذكر وفاة الملك الصالح ووصول عز الدين إلى حلب ﴾

وفي سنة سبع وسبعين مرض الملك الصالح بالقولنج وكان أول مرضه
في تاسع رجب وفي ثالث عشر منه غلق باب القلعة لشدة مرضه واستدعي
الأمراء واحدا واحدا وحلفوا لعز الدين صاحب الموصل وفي الخامس والعشرين
منه توفي رحمه الله وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس * ولما توفي سارعوا
إلى اعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك واعلامه بما جرى له من
الوصية إليه وتحليف الناس له فسارع ساراً إلى حلب مبادراً خوفاً من السلطان
وكان أول قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين ابن زين الدين وصاحب
سروج ووصل معهما من حلف جميع الأمراء له وكان وصولهم في ثالث شعبان
من السنة المذكورة . وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب وصعد القلعة
واستولي على خزائنها وذخائرها وتزوج أم الملك الصالح خامس شوال من
السنة المذكورة *

﴿ ذكر مقايضة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد ﴾

ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال وعلم أنه لا يمكنه حفظ
الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لاجل السلطان وألح عليه الأمراء
في طلب الزيادات ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه وضاق عطنه وكان صاحب

أمره مجاهد الدين قايماز وكان ضيق العطن لم يعتد بمقاساة أمراء الشام فرحل من قلعة حلب طالبا للرفة وخلف ولده ومظفر الدين بها وسار حتى أتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهم واستقر متايضة حلب بسنجار وحلف عز الدين لآخيه على ذلك في الحادي والعشرين من شوال وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار وفي ثالث عشر محرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين الى قلعة حلب.

﴿ ذكر عود السلطان من مصر ﴾

وأما السلطان فإنه لما وقع الصلح على قليج أرسلان صعد الى الديار المصرية واستخلف ابن أخيه عز الدين فخر وشاه واليا ولما بلغه وفاة الملك الصالح عزم على الود الى الشام خوفا على البلاد من الافرنج وبلغه أيضا وفاة فخر وشاه فاشتد عزمه . وكان وصوله الى دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ثم انشأ التأهب لغزاة بيروت فإنه عبر على الافرنج في عوده من مصر مكابرة من غير صلح فقصد بيروت ونزلها ولم ينل منها غرضاً واجتمع الافرنج فرحلوه عنها ودخل الى دمشق وبلغه أن رسل الموصل وصلوا الى الافرنج يحثونهم على قتال المسلمين فعلم أنهم نكثوا اليمين وأنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الاسلامية على عدو الله فاخذ في التأهب لذلك فلما بلغ ذلك عماد الدين سير الى الموصل يشمره بالخبر ويستحث العساكر وسار السلطان حتى نزل على حلب في ثامن عشر جمادى الاولى من هذه السنة وأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادي والعشرين يطلب الغزاة واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين وكان صاحب حران وكان قد استوحش من

جانب الموصل وخاف من مجاهد الدين فالتجأ الي السلطان وعبر انى قاطع
القرات وقوى عزمه على البلاد وسهل أمرها عنده ودخل الرها والرقه
ونصيبين وسروج ثم شحن على الخابور واقطعه *

﴿ ذكر نزوله على الموصل ﴾

وكان نزوله عليه في هذه الوقعة في يوم الخميس حادي عشر شهر رجب
وكنت اذ ذاك في الموصل فسيرت رسولا الى بغداد قبيلاً بأيام قلائل
فسرت مسرعاً في الدجلة وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث
مستنجداً بهم فلم يحصل منهم سوى الأنفاذ الى شيخ الشيوخ وكان في صحبته
رسول من جانبهم يأمرونه بالحديث معه ويتلطف الحال معه ويسير الى بهلوان
رسولاً من الموصل يستنجدونهم فلم يحصل من جانبه سوى شرط كان
الدخول تحته أخطار من حرب السلطان ثم أقام السلطان على الموصل أياماً وعلم
انه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحصرة على هذا الوجه ورأى أن طريق
أخذه أخذ قلاعه وما حوله من البلاد واضمافه بطول الزمان فرحل عنها ونزل
على سنجار في سادس عشر شعبان وأقام يحاصرها وكان فيها شرف الدين ابن
قطب الدين وجماعة واشتد عليه الامر حتى كان ثاني شهر رمضان فأخذها
عنوة وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين الي الموصل وأعطاهما
ابن أخيه تقي الدين ورحل عنها الى نصيبين

﴿ ذكر قصة شاه أرمن صاحب خلاط ﴾

وذلك ان أصحاب الموصل أنفذوا اليه واستنجدوا به وطرخوا أنفسهم
عليه فخرج من خلاط لنصرتهم ونزل بحرزم وسير الي عز الدين صاحب

الموصل أعلمه فخرج اليه وذلك في الخامس عشر من شوال فسار حتي اجتمع به صاحب ماردين ووصل جماعة من عسكر حلب كل ذلك للقاء السلطان وأرسل شاه أرمن بكتتر الي السلطان يخاطبه في الصالح بتوسط شيخ الشيوخ فلم ينتظم بينهم حال ورحل السلطان الي عسكر شاه أرمن فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان ولي راجعاً الي بلاده وعاد عز الدين الي بلاده وتفرقوا وسار السلطان يطالب بلد آمد فنزل عليها وقتلها وأخذها في ثمانية أيام وذلك في أول محرم سنة تسع وسبعين وأعطاه نور الدين بن قره أرسلان . ومن علي ابن نيسان بجميع ما كان فيها من الاموال وغيرها ثم سار يطلب الشام لقصد حلب . وفي هذه المدة خرج عماد الدين وخرب قلعة اعزاز وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكمش فانه كان قد صار مع السلطان في الثاني والعشرين من جمادي الاولى من السنة المذكورة وقاتل باشر وكان صاحبها ولد رم الباروقى قد صار مع السلطان فلم يقدر عليها وجرت غارات من الافرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر ودفعهم الله تعالى وتسلم الكرزين ثم عاد الي حلب

﴿ ذكر عود السلطان الي الشام ﴾

ولما عاد الي الشام بدأ بتل خالد فنزل عليها وقتلها وأخذها في الثاني والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين ثم سار طالباً حلب فنزل عليها في السادس والعشرين . وكان أول نزوله بالميدان الاخضر واستدعي العساكر من الجوانب واجتمع خلق عظيم وقتلها قتالا شديداً وتحقق عماد الدين انه ليس له قبل وكان قد ضرس من اقتراح الامراء وجههم فأشار الي حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان في اعادة بلاده وتسلم حلب اليه واستقرت القاعدة ولم

يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتي تمّ الامر واستحكمت القاعدة واستفاض ذلك واستعلم العسكر منه ذلك فأعلمهم وأذن في تدبير أنفسهم وأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك النوري وزين الدين فقمعدوا عنده الى الليل واستحلقوه على العسكر وعلى أهل البلد وذلك في السابع عشر من صفر وخرجت العساكر الى خدمته الى الميدان الأخضر ومقدمو حلب وخلع عليهم وطيب فلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضى أشغاله وينقل أقشته وخزائنه والسلطان مقيم بالميدان الأخضر الى الثالث والعشرين من صفر وفيه توفي تاج الملوك أخوه من جرح كان أصابه وشق عليه أمر موته وجلس للعزاء وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين الى خدمته وعزاه وتقررت بينهما قواعد وأنزله السلطان في الخيمة وقدم له تقديماً سنياً وخيلاً جميلة وخلع على جماعة من أصحابه . وسار عماد الدين من يومه الى قرار حصار سائرآ الى سنجاب وصد السلطان قلعة حلب مسروراً منصوراً . وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنية وكان قد تخلف لاخذ ما تخلف لعماد الدين من قماش وغيره وكان قد أنفذ الى حارم من يستلمها ودافعهم الموالى وأنفذ الاجناد الذين بها يستحلقونه فلف لهم وسار من وقته الى حارم فوصلها في التاسع والعشرين من صفر وتسلمها وبات بها ليلتين وقرر قواعدها وولي فيها ابراهيم بن شرده وعاد الى حلب ودخلها في ثالث ربيع الاول ثم أعطى العساكر دستوراً وسار كل منهم الى بلاده وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها

﴿ ذكر غزاة عين جالوت ﴾

ولم يبق في حلب الا الى الثاني والعشرين من ربيع الآخر وأنشأ عزماً الى الزاة فخرج في ذلك اليوم مبرزاً نحو دمشق واستمضى العساكر فخرجوا

يتدمونه ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادي الاولى فأقام بها متأهباً الى السابع والعشرين منه ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الحشب وتبعته العساكر مبرزة فأقام به تسعة أيام ثم رحل في ثامن جمادي الآخرة وسار حتى أتى الفؤاد وتبعي فيه للحرب وسار حتى نزل القصير فبات به وأصبح على المخاض وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد رحلوا عنها وتركوا ما كان من ثقل الأثمة والغلال والامتعة بها فنهباها العسكر وغنموا وحرقوا ما لم يمكن أخذه وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية فخيم بها وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية وجاؤى مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الافرنج فاتفق انهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للافرنج فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم زهاء مائة نفر وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعي بهرام الشاووش فوصل اليه في بقية يوم الكسرة وهو العاشر من جمادي الآخرة فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر * ولما كان السبت حادي عشر وصل الخبر اليه ان الافرنج قد اجتمعوا في صفورية فرحلوا الى القولة وهي قرية معروفة وكان غرضه المصاف فلما سمع بذلك تعي للقاء ورتب الاطلاب يمنة ويسرة وقلبا وسار للقاء العدو وسار الافرنج طالبين المسلمين ووقعت العين في العين وأخرج السلطان الجاليش خمسمائة رجل معروفة فواقموا الافرنج وجري قتال عظيم وقتل من العدو جماعة وهم ينضم بعضهم الى بعض يحمي راجلهم فارسهم ولم يخرجوا للمصاف ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين ونزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا الي المصاف وهم لا

يخرجون خوفاً من المسلمين فانهم في كثرة عظيمة ولما رأى انهم لم يخرجوا رأى الانتزاع عنهم لعلمهم يرحلون فيضرب معهم مصاف فرحل نحو الطور وذلك في السابع عشر من هذا الشهر فنزل تحت الجبل مترقباً رحيلهم ليأخذ منهم فرصة وأصبح الا فرنج في الثامن عشر راحلين راجعين على أعقابهم ناكسين فرحل رحمه الله نحوهم وجري من رمى الشباب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة فلم يخرجوا ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا القولة المقدم ذكرها راجعين الي بلادهم فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على السلطان وأشاروا بالود لفراغ زادهم وكان قد نال منهم بالقتل والاسر وخربت عفر بلا وقلعة بيسان وزرعين وهي من حصونهم المذكورة وخربت عليهم قري عديدة فعاد منصوراً مظفراً مسروراً حتى نزل النوار واعطى الناس دستورا من أثر المسير ثم سار هو حتى أتى دمشق فدخلها فرحا مسرورا في يوم الخميس الرابع والعشرين من هذا الشهر فانظر الى هذه المهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حاب ولا الظفر بها بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد فإله يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا

﴿ ذكر غزاة انشأها الي الكرك ﴾

ثم انه اقام بدمشق الي ثالث رجب سنة تسع وسبعين وخرج صرارا نحو الكرك وكان قد سير الي الملك العادل وهو بمصر يتقدم اليه بالاجتماع به على الكرك فبلغه خبر حركته من مصر فخرج للقائه وسار حتى أتى الكرك ووافاه الملك العادل عليها وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر وذلك في رابع شعبان من هذه السنة وكان قد بلغ الا فرنج خبر خروجه

فساروا برجلهم وفارسهم نحو الكرك للدفع عنه ولما انتهى ذلك اليه سير
الملك المظفر ثقي الدين الي مصر وذلك في خامس عشر شعبان . وفي السادس
عشر منه نزلت الافرنج على الكرك وتزحزح السلطان عنه بعد ان قاتلة قتالا
عظيما وعليه قتل شرف الدين برغش النورى شهيدا

﴿ ذكر اعطائه اخاه الملك العادل حاب ﴾

ثم رحل السلطان مستصعبا اخاه الملك العادل معه الي دمشق لياسه
عن الكرك بعد نزول الافرنج عليها فدخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان
واعطي اخاه الملك العادل حاب بعد مقامه بدمشق الي ثاني يوم من شهر رمضان
وكان بها ولده الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكج بدبر امره وابن العميد
في البلد . وكان الملك الظاهر من أحب الاولاد الي قلبه لما قد خصه الله به من
الشهامة والتطنة والعقل وحسن السمات والشغف بالملك وظهور ذلك كله
وكان أبر الناس بوالده وأطوعهم له واكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها فخرج
من حاب لما دخل الملك العادل هو ويازكج سائرين الي خدمة السلطان
فدفع دمشق الثامن عشر من شوال فاقام في خدمة أبيه لا يظهر له الا الطاعة
والانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفي عن نظر والده وفي ذلك الشهر وردنا
على السلطان رسلا من جانب الموصل وكنا قد توصلنا الي الخليفة الناصر
لدين الله في انفاذ شيخ الشيوخ بدر الدين رسولا وشفيما الي السلطان فسيره
معنا من بغداد وكان غزير المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة وفي سائر البلاد
وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد اليه اذا كان عنده في معظم الايام *



﴿ ذكر وصولنا الى خدمته رسلا ﴾

وكان الشيخ قد وصل الى الموصل وسار منها في صحبة القاضي محي الدين ابن كمال الدين وكان بينهم صحبة من الصبا وكنت مع القوم وسرنا حتى آتينا دمشق وخرج السلطان الى لقاء الشيخ ونحن في خدمته فلقية عن بعد وكان دخولنا الى دمشق يوم السبت حادي عشر ذي القعدة من هذه السنة ولقينا من السلطان كل جميل فيما يرجع الي الاكرام والاحترام وأقنا أياما نراجع في فصل حال فلم يتفق صلح في تلك الوقمة وخرجنا راجعين الى الموصل وخرج السلطان الي وداع الشيخ الي القصر واجتهد في ذلك اليوم أن ينقضى شغل فلم يتفق * وكان الوقوف من جانب محي الدين . فان السلطان اشترط أن يكون صاحبا اربل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء اليه أو الي الموصل فقال محي الدين لا بد من ذكرهما في النسخة فوقف الحال . وكان مسيرنا سابع ذي الحجة وفي تلك الدفعة عرض على السلطان موضع البها الدمشقي بمصر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أفعل خوفا من أن يحال بوقف الحال على ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر لم أعرفه الا بعد خدمتي له وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب فوصل رسول سنجر شاد صاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه في الانتماء اليه ورسول اربل وحلف لهما وسارا . ووصل اليه أخوه الملك العادل رابع ذي الحجة فاقام عنده وعيد وتوجه الي حلب المحروسة

﴿ ذكر غزاة أخري الى الكرك ﴾

وصل ابن قره أرسلان نور الدين الى حلب ثامن عشر صفر سنة

ثمانين فآكرمه الملك العادل اكراما عظيما وأصعده الى القلعة وباسطه ورحل معه طالبا دمشق في السادس والعشرين منه . وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله * ولما بلغه وصول قره أرسلان خرج الي لقائه وكان السلطان يكارم الناس مكارمة عظيمة فالتقاه على عين الجسر بالبقاع وذلك في تاسع ربيع الاول ثم عاد الي دمشق وخلف نور الدين واصلا مع الملك العادل فتأهب للغزاة وخرج مبرزا الي جسر الحشب في منتصف ربيع الاول وفي الرابع والعشرين منه وصل الملك العادل ومعه ابن قره أرسلان الي دمشق فاقاما بها أياما ثم رحلا يلتحقان بالسلطان من رأس الماء طالبا للكرك فاقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر الي تاسع عشر ربيع الآخر فوصل الي خدمته ومعه بيت الملك العادل وخزائنه فسيرهم الي الملك العادل وتقدم اليه والي بقية العساكر بالوصول اليه الي الكرك فتأبعت العساكر الي خدمته حتى أحذقوا بالكرك وذلك في رابع جمادى الاولى وركب المناجيق على المكان وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضا مع قره أرسلان * ولما بلغ الافرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم الي الذب عن الكرك وكان على المسلمين منه ضرر عظيم فانه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج الا مع العساكر الجملة الفقيرة فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة الي مصر . ولما بلغ السلطان خروج الافرنج تعباً للقاء وأمر العساكر أن خرجت ظاهر الكرك وسير الثقل نحو البلاد وبقي العسكر جريدة ثم سار السلطان يقصد العدو . وكان الافرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله وسارحتي نزل على قرية يقال لها حسبان قبالة الافرنج ورحل منها الي موضع يقال له ماء عين والافرنج مقيمون بالواله الي السادس والعشرين من جمادى الاولى ثم

رحلوا قاصدين الكرك فسار بهض المساكر وراءهم فقاتلهم الي آخر النهار . ولما رأي قدس الله روحه تصميم الافرنج على الكرك أمر المساكر ان يدخلوا الساحل لخلوة عن المساكر فهجموا نابلس ونهبوها وغنموا ما فيها ولم يبق فيها الا حصنها وأخذوا جانين والتحقوا بالسلطان برأس الماء وقد نهبوا وأسروا وأحرقوا وخرّبوا واتفق دخول السلطان دمشق يوم السبت سابع جمادي الاخرى ومعه الملك العادل ونور الدين ابن قره أرسلان فرحاً مسروراً واکرمه واحترمه وأحسن اليه . وفي هذا الشهر وصل رسول الخليفة ومعه الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين خلما جاءت لهم . وفي الرابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلعة الخليفة على ابن قره أرسلان وأعطاه دستورا وأعطاه المساكر وفي ذلك التاريخ وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخا الي السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا مع مجاهد الدين قايماز على اربل وأنهم نهبوا وأحرقوا وأنه نصر عليهم وكسرهم

﴿ ذكر خروج السلطان الي جهة الموصل في الوقعة الثانية ﴾

ولما سمع السلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد وتقدم الي المساكر فتبعته وسار حتى أتى حران على طريق البيرة والتقى مع مظفر الدين بالبيرة في الثاني عشر من محرم سنة احدى وثمانين وتقدم السلطان الي سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر الي رأس العين ووصل السلطان حران الثاني والعشرين من صفر . وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه وحديث كان بلغه عنه رسول فلم يقف عليه وأنكره فأخذ منه قلعة حران والزهاثم أقام في الاعتقال تأديباً الي

مستهل ربيع الاول ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد اليه قلعة حران وبلادها التي كانت بيده وأعادها الى قانونه في الأكرام والاحترام ولم يتخلف له سوي قلعة الرها ووعد بها ثم رحل السلطان ثاني ربيع الاول الى رأس العين ووصله في ذلك رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان ان لم يمد عن الموصل وماردين وأنهم على عزم ضرب المصاف معه ان أصر على ذلك فرحل السلطان يطلب دينسر فوصله ثامن ربيع الاول عماد الدين بن قره أرسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين فالتقاهم واحترمهم ثم رحل من دينسر حادي عشر نحو الموصل حتى نزل موضعاً يعرف بالاسماعيلان قريب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جديدة يحاصر الموصل فبلغ عماد الدين بن قره أرسلان موت أخيه نور الدين فطلب من السلطان دستوراً طمعا في ملك أخيه فأعطاه دستوراً

﴿ ذكر موت شاه أرمن صاحب خلاط ﴾

ولما كان ربيع الآخر سنة احدى وثمانين توفي شاه أرمن صاحب خلاط وولى بيده غلامه بكتمر وهو الذي وصل رسولاً الى خدمة السلطان بسنجار فعدل وأحسن الي أهل خلاط وكان متصوناً في طريقته فأطاعه الناس ومالوا اليه * ولما ملك خلاط امتدت نحوه الاطماع لموت شاه أرمن فسار نحوه بهلوان بن الدكر . فلما بلغه ذلك سير الى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط اليه واندراجه في جملة واعطائه ما يرضيه فطمع السلطان في خلاط وارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها وسير الى بكتمر الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها فوصلت

الرسول وبهلوان قد قارب البلاد جداً فتخوف بهلوان من السلطان فطلب بهلوان اصلاحه وزوجه ابنة له وولاه وأعاد البلاد اليه واعتذر الى رسول السلطان وعادوا من غير زبدة * وكان السلطان قد نزل على ميا فارقين فحاصرها وقاتلها قتالاً شديداً ونصب عليها مجانيق وكان بها رجل يقال له الأسد وما قصر في حفظها لكن الأقدار لا تغلب فملكها السلطان في التاسع والعشرين من جمادي * ولما أيس من أمر خلاط عاد الى الموصل فنزل بعيداً عنها وهي الوقعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار وكان الحر شديداً فأقام مدة . وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة واجتمع به فأعاده الى بلده ومرض رحمه الله بكفر زمار مرضاً شديداً خاف من غائلته فرحل طالباً حران وهو مريض وكان يتجدد ولا يركب محفة فوصل وهو شديد المرض وبلغ الى غاية الضعف وأيس منه ورجف بموته فوصل اليه أخوه من حلب ومعه أطباؤه

﴿ ذكر صلح المواصله معه ﴾

وكان سبب ذلك ان عز الدين أتاك صاحب الموصل سيرني الى الخليفة يستنجده فلم يحصل منه زبدة فلما وصلت من بغداد ورددت جواب الرسالة أيس من نجدة فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا سرعة انقياده ورقة قلبه في ذلك الوقت فندبوني لهذا الامر وبهاء الدين الريب وفوض اليّ أمر النسخة التي حلف بها وقالوا امضيا ما يصل اليه جهدكما وطاقتكما فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة فاحترمنا احتراماً عظيماً وجلس لنا وكان أول جلوسه من مرضه وحلف في يوم عرفة وأخذنا منه بين النهرين وكان

أخذها من سنجرشاه فأعطائها المواصلة وحلفته يمينا تامة وحلفت أخاه الملك
 العادل ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه وسرنا معه
 وهو بجران وقد تماثل ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص وكانت
 وفاته يوم عرفة وجلس الملك العادل للازاء * وفي تلك الايام كانت وقعة
 التركمان مع الاكراد وقتل بينهم خلق عظيم * وفي هذا الشهر وصل خبر
 وفاة بهلوان ابن الدكر وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة

﴿ ذكر عود السلطان الى الشام ﴾

ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب وكان
 وصوله اليها رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين وكان يوما مشهودا لشدة
 فرح الناس بعافيته ولقائه فاقام بها اربعة ايام ثم رحل نحو دمشق ولقيه أسد
 الدين شيركوه بن محمد شيركوه بتل السلطان ومعه أخته وقد صحبه خدمة
 عظيمة فنّ عليه بحمص وأقام أياما يعتبر تركة أبيه ثم سار يطلب جهة
 دمشق وكان دخوله اليها في ثاني ربيع الاول وكان يوما لم ير مثله فرحا
 وسرورا ووقمت في هذا الشهر وقعات كثيرة بين الترك والاكراد بأرض
 نصيبين وغيرها وقتل من الفئتين خلق عظيم وبلغ السلطان أن معين الدين
 قد عصا بالراوند فكتب الي عسكر حلب أن حاصروه * وفي ثاني جمادى
 الأولى وصل معين الدين من الراوند وقد سلمها الي علم الدين سليمان ثم مضى
 الي خدمة السلطان * وفي سابع عشر وصل الملك الافضل الي دمشق ولم يكن
 قد رأى قبل ذلك الشام



﴿ ذكر مسير الملك العادل الى مصر ووصول الملك الظاهر الى حلب ﴾

وذلك أن السلطان رأي ذهاب الملك العادل الى مصر فانه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر ليزيل تقاويضا بذلك وهو على حران مريض وقد حصل ذلك في نفس الملك العادل فانه كان يحب الديار المصرية فلما عاد السلطان الى دمشق ومن الله بعافيته سير يطاب الملك العادل الى دمشق فخرج من حلب جريدة في الرابع والشرين من ربيع الأول وسار حتى اتى دمشق فاقام بها في خدمة السلطان فجرت بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرير الى جمادى الآخرة واستقرت القاعدة على عود الملك العادل الى مصر وتسليم حلب وسير الصنيعة لاحضار أهله من حلب وكان الملك الظاهر أيده الله والملك العزيز بدمشق في خدمة والدهما فلما استقرت القاعدة على عود الملك العادل الى مصر استقرت على ان يكون أتابك الملك العزيز وسله والده اليه يربي أمره وسلم الملك العادل حلب الى الملك الظاهر * ولقد قال لي الملك العادل انه لما استقرت عليه هذه القاعدة واجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر وجالست بينهما قات للملك العزيز يا مولاي ان السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك الى مصر وأنا أعلم أن المفسدين كثير وغداً لا يخلون ممن يقول هني ما لا يجوز ويخوفونك مني فان كان لك أذن تسمع فقل لي حتى لا أجيء فقال لا أسمع وكيف يكون ذلك * ثم التفت وقلت للملك الظاهر أنا اعرف أن أخاك ربما يسمع في أقوال المفسدين وأنا فإلى الأنت متي ضاق صدرى من جانبه فقال مبارك وذكر كل خير * ثم ان الملك الظاهر سيره والده الى حلب ليعلمه أن حلب هي اصل الملك وجرثومته وقاعدته ولهذا دأبت في طلبها ذلك الدأب * ولما حصلت أعرض عما عداها من بلاد المشرق وقنع منهم بالطاعة

والمعونة على الجهاد فسلمها اليه علما منه بمحاذقته وحزمه وحفظه وثباته وعلو
 همته فسار اليها حتى العين المباركة وسير في خدمته الشحنة حسام الدين بشاره
 وواليا عيسى بن بلاشوا فنزل بعين المباركة وخرج الناس الي لقائه في بكرة
 تاسع جمادى الآخرة وصعد القلعة ضحوة نهار وفرح الناس به فرحا شديداً
 ومد على الناس من جناح عدله . وأفاض عليهم وابل فضله * وأما الملك العزيز
 والملك العادل فان السلطان قرر حالتها وكتب الي الملك المظفر يخبره بمسير
 الملك العزيز وهو صحبة عمه ويأمره بالوصول الى الشام وشق ذلك عليه
 حتى أظهر للناس وعزم على المسير الى ديار الغرب الي برقا ففتح ذلك عليه
 جماعة من اكابر الدولة وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال والله
 أعلم بما يكون منه بعد ذلك فرأي الحق بعين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة
 وسلم البلاد ورحل واصلا الي خدمة السلطان فسار السلطان الي لقائه وفرح
 بوصوله فرحا شديداً وذلك في الثالث والعشرين من شعبان وأعطاه حماء وسار
 اليها وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتم
 ذلك ودخل بها في السادس والعشرين من شهر رمضان ودخل الملك الافضل
 على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من السنة المذكورة المباركة

﴿ ذكر غزاة انشأها الى الكرك ﴾

ولما كان محرم سنة ثلاث وثمانين عزم على قصد الكرك فسير الى
 حلب من يستحضر العسكر وبرز من دمشق في منتصف محرم فسار حتى
 نزل بارض نيطرة منتظرا اجتماع العساكر المصرية والشامية وأمر العساكر
 المتواصلة اليه بشن الغارات على مافي طريقهم من البلاد الساحلية فعملوا ذلك
 وأقام بارض الكرك حتى وصل الحاج الشامي الى الشام وأمنوا غائلة العدو

ووصل قفل مصر الشتوي ووصل معه بيت الملك المظفر وما كان له
 بالديار المصرية وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالافرنج بارض
 الارمن من بلاد ابن لاون وذلك انه قد مات ملك الافرنج ووصى لابن
 أخيه بالملك وكان الملك المظفر بجماه وبلغ السلطان الخبر فأمرهم بالدخول الى
 بلاد العدو واخذوا ثأرتهم وسار الملك المظفر بعسكر حلب الي حارم فأقام
 بها ليعلم العدو ان هذا الجانب ليس بمهمل فعاد السلطان الي الشام ونزل
 بعشرا في السابع عشر من ربيع الاول ولقيه ولده الملك الافضل ومظفر الدين
 ابن زين الدين وجميع العساكر. وكان قد تقدم الى الملك المظفر بمصالحة
 الجانب الحلبي مع الافرنج ايتفرغ البال مع العدو في جانب واحد فصالحهم في
 العشر الاواخر من ربيع الاول وتوجه الى حماه يطلب خدمة السلطان للغزاة
 التي عزم عليها فسار ومن اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته وهم عسكر
 الموصل مقدمتهم مسعود ابن الزعفراني وعسكر ماردين فلقبهم السلطان في
 العشر الاوسط من ربيع الآخر فأقرهم واکرمهم وفي منتصف هذا الشهر
 عرض السلطان العسكر لامر قد عزم عليه على تل يعرف بتل تسيل تسيل
 وتقدم الى أصحاب الميمنة بحفظ موضعهم والى أصحاب الميسرة بذلك والى
 القلب بمثله

﴿ ذكر وقعة حطين المباركة على المؤمنين ﴾

وذلك أن السلطان رأي ان نعمه الله عليه باستقرار قدمه في الملك
 وتمكين الله اياه في البلاد وانقياد الناس لطاعته ولزومهم قانون خدمته ليس
 لها شكر سوي الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد الي اقامة قانون الجهاد
 فسير الى سائر العساكر واستحضرها واجتمعوا اليه بعشرا في التاريخ المذكور

- وعرضهم وربهم واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخدول في نهار الجمعة سابع - 17
- عشر ربيع الآخر وكان أبدأ يقصد بوقعاته الجمع سيما أوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب الي الاجابة فسار في ذلك الوقت على تسمية الحرب وكان بلغه أن العدو لما بلغهم انه قد جمع المساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بارض عكا وقصدوا نحو المصاف معهم فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصبيرة ورحل من هناك ونزل -
- غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب منتظرا أن الافرنج اذا بلغهم ذلك -
- قصدوه فلم يتحركوا من منزلهم وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الاربعاء الحادي - 21
- والعشرين فلما رأهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب بخالها قبالة وجه العدو ونازل طبرية وزحف عليها فهجمها وأخذها في ساعة -
- من نهار وامتدت الايدي اليها بالنهب والأسر والحرق والقتل واحتمت القلعة وحدها . ولما بلغ العدو ماجرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون اجابة الحمية فرحلوا من وقهم وساعتهم وقصدوا طبرية للدفع عنها فأخبرت الطلائع الاسلامية الامراء بحركة الافرنج فسيروا الي السلطان من عرفه ذلك فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ولحق العسكر هو ومن معه فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها وذلك في أواخر -
- الخميس الثاني والعشرين وحال الليل بين الفئتين فتبايتا على مصاف شاكى السلاح الي صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين فركب العسكران وتصادما -
- وعملت الجاليشية وتحركت الاطلاب والتجم القتال واشتد الامر وذلك بارض قرية تسمى اللوبيا وضاق الخناق بالقوم هذا وهم سارون كانوا يساقون الى الموت وهم ينظرون * وقد أيقنوا بالويل والثبور * وأحست أنفسهم أنهم

في غد زوار القبور * ولم يزل الحرب يلتحم * والفارس مع قرنه يصطدم
 * حتي لم يبق الا الظفر * ووقع الوبال على من كفر * فخال بينهما الليل
 وظلامه وجري في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة . والامور الجسيمة . ما لم
 يحك عن تقدم وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة وقد
 أقعده التعب عن النهوض * وشغله النصب عن الجبو فضلا عن الركوض .
 حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه فطلب كل من الفريقين مقامه وعلمت
 كل طائفة ان المكسورة بينهما مدحورة الجنس مع ممة النفس . وتحقق
 المسلمون ان من ورائهم الاردن ومن بين أيديهم بلاد القوم وان لا ينجيهم الا الله
 تعالى وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره * وأجره على وفق ما قدره * فحملت
 الاطلاب الاسلامية من الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد
 فالتى الله الرعب في قلوب الكافرين . وكان حقا علينا نصر المؤمنين * وكان
 القوم مص ذكي القوم وأطغاهم فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ولم
 يشغله ظن محاسنة حبه عن تعبته^(١) فهرب في أوائل الامر قبل اشتداده
 وأخذ طريقه نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجوا وحده . وأمن الاسلام
 كيده واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب واطلقوا
 عليهم السهام وعاملوهم بالصفاح وانهمزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين
 فلم ينج منها واحد واعتصمت الطائفة الاخرى بتل يقال له تل حطين وهي
 قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء
 فضايقتهم المسلمون على التل واشعلوا حوالهم النيران وقتلهم
 العطش وضاق بهم الامر حتى كانوا يستسلمون للاسر خوفاً من

(١) هكذا في الاصل

القتل فأسر مقدموهم وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم الملك جفري والبرنس أرناط وأخو الملك والبرنس هو صاحب الشوبك وابن الهنفرى وابن صاحب طبرية ومقدم الداوية وصاحب حبل ومقدم الاسبتار وأما الباقون من المقدمين فانهم قتلوا وأما الادوان فانهم قسموا الي قبيل وأسير ولم يسلم منهم الا من أسر وكان الواحد العظيم منهم يخذ الي الاسر خوفاً على نفسه ولقد حكى لي من اثق به انه لقي بمجوران شخصاً واحداً معه طناب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً أخذهم وحده - لخذلان وقع عليهم * فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم * أما القومص الذي هرب فانه وصل الي طرابلس وأصابته ذات الجنب فاهلكه الله بها . وأما مقدم الاسبتار والداوية فان السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم . وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر انه اذا ظفر به قتله وذلك انه كان عبر به بالشوبك قافلة من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالامان فغدر بهم وقتلهم فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على انه نذر ان ظفر به قتله لم ولما فتح الله بالنصر والظفر جلس السلطان في دهليز الخيمة فانها لم تكن نصبت والناس يتقربون اليه بالاسرى ومن وجدوه من المقدمين ونصبت الخيمة وجلس فرحاً مسروراً لما أنعم الله به عليه ثم استحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط وناول الملك جفري شربة من حلاب بثاج فشرب منها وكان على أشد حال من العطش ثم ناول بعضها البرنس أرناط فقال السلطان للترجمان قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته وكان على عادة جميل العرب

وكريم أخلاقهم ان الاسير اذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بذلك جرياً على مكارم الاخلاق ثم أمرهم بمسيرهم الي موضع عين لنزولهم فوضوا واكلوا شيئاً ثم عادوا فاستحضرهم ولم يبق عنده سوي بعض الخدم وأقعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس أرناط وأوقفه على ما قال وقال له ها أنا انتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل ثم سل النجمة وضربه بها فحل كتفه وتم عليه من حضر وعجل الله بروحه الي النار فأخذ ورمى على باب الخيمة فلما رآه الملك قد خرج به على تلك الصورة لم يشك أنه يثني به فاستحضره وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك * وأما هذا فانه تجاوز حدّه فجرى ماجري * وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور . واكل حبور . ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح في يوم الاحد وتسلم قدس الله روحه في بقية ذلك اليوم قلعة طبرية وأقام بها الي يوم الثلاثاء * ثم رحل طالباً عكا وكان نزوله عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها يوم الخميس مستهل جمادي الاولى فاخذ واستنقذ من كان فيها من الاسارى وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر واستولي على ما فيها من الاموال والذخائر والبضائع والتجائر فانها كانت مظنة التجار وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والاماكن المنيعة واخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصره وكان ذلك لخلوها عن الرجال بالفتك والأسر * ولما استقرت قواعد عكا واقتسم الغانمون اموالها وأسارها سار يطالب تبين فنزل عليها يوم الاحد ثاني عشر جمادي الاولى وهي قلعة منيعة فنصب عليها المناجيق وضيق عليها بالزحف الخناق وكان بها رجال ابطال شديدون في

ديهم فاحتاجوا الى معاناة شديدة ونصره الله عليهم وتسلمها ثامن عشر عنوة وأسر من بقي بها بعد القتل ثم رحل منها الي صيدا فنزل عليها ومن الغد تسلمها وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها * ثم سار حتى اتي بيروت فنازلها في الثاني والعشرين فركب عليها القتال والزحف وضيق عليهم الامر حتى أخذها في التاسع والعشرين وتسلم أصحابه حبيلاً وهو على بيروت * ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ولم ير الاشتغال بصور بعد ان نزل عليها ومارسها لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيئاً وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب وكان قد اجتمع في صور كل افرنجي بقي في الساحل فرآى قصد عسقلان لان أمرها كان أيسر ونازلها في السادس والعشرين من جمادى الآخرة وتسلم في طريقه مواضع كثيرة كالرملة وبيننا والدارون وأقام عليها المنجنيقات وقائلها قتالا شديداً وتسلمها سلخ هذا الشهر وأقام عليها الي أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبرين والنظرون بغير قتال وكان بين فتوح عسقلان وأخذ الافرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة فان العدو ملكها في سبعة وعشرين من جمادى الاخرى سنة ثمان وأربعين وخمسة

﴿ ذكر فتوح القدس الشريف حرسها الله تعالى ﴾

ولما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده واجتمعت عليه المساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء لبانتها من النهب والغارة فسار نحوه معتمداً على الله مفوضاً أمره اليه منتهزاً فرصة فتوح باب الخير الذي حدث عليه صلي الله عليه وسلم بقوله من فتح باب خير فلينتهزه فانه لا يدري متى يفتق دونه وكان نزوله عليها في الخامس عشر

من رجب سنة ثلاثة وثمانين المباركة فنزل بالجانب الغربي وكان مشحونا بالمقاتلة والخيالة والرجالة * ولقد تحازر اهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان * ثم انتقل رحمه الله لمصاحبة رآها الي الجانب الشمالي ونصب عليه المجانيق وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية * ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الامر الذي لا يندفع عنهم وظهرت لهم امارات نصره الحق على الباطل وكان قد اتقى في قلوبهم الرعب مما جرى على ابطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ علموا أنهم الى ما صاروا اليه صائرون * وبالسيف الذي قتل به اخوانهم مقتولون فاستكانوا وأخذوا الي طلب الامان واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين وكان تسدهم القدس قدس الله روحه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلة كانت ليلة المراج المنصوص عليها في القرآن المجيد . فانظر الي هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده الي أيدي المسلمين في مثل زمان الاسراء بنبيهم صلى الله عليه وسلم وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى وكان فتوحا عظيما شهدته من اهل العلم خلق عظيم ومن أرباب الحرف والطرق وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده القدس قصده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور وارتفعت الاصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير وخطب فيه وصايت فيه الجمعة يوم فتحه . وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة وكان شكلا عظيما ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر * وكانت قاعدة الصلح انهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير وعن

كل امرأة خمسة دنانير صورية وعن كل صغير ذكر أو اثني ديناراً واحداً فمن أحضر القطيعة سلم نفسه والا أخذ أسيراً وفرج الله عن كان أسيراً من المسلمين وكان خلقاً عظيماً زهاء ثلاثة آلاف أسير وأقام رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء وإيصال من دفع قطيعته منهم إلى مأمونه وهو صور. ولقد بلغني أنه رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك الملك شيء وكان مئتي الف دينار وعشرين الف دينار وكان رحيله يوم الجمعة الخامسة والعشرين من شعبان

﴿ ذكر قصده صور ﴾

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل قويت نفسه على قصد صور وعلم أنه إن أخر أمرها ربما اشتد فرحل سائراً إليها حتى عكا فنزل عليها ونظر في أحوالها ثم رحل متوجهاً إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان وسار حتى أشرف عليها ونزل قريباً منها ينتظر وصول آلات القتال وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سير إلى ولده الملك الظاهر يستحضره وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لاشتغاله هو بأمر الساحل فقدم عليه في الثامن عشر على تلك المنزلة وسر بوصوله سروراً عظيماً * ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق والمدبابات والستائر وغير ذلك نزل عليها في الثامن والعشرين وضائقها وقاتلها قتالاً عظيماً واستدعى أسطول مصر وكان يحاصرها من البحر والسكر من البر وكان قد خلف أخاه الملك العادل بالقدس يقرر قواعده فاستدعاه فوصل إليه في خامس شوال وسير من حاصر هوزين فسلمت في الثالث والعشرين من شوال

﴿ ذكر كسرة الاسطول ﴾

وذلك انه قدم على الاسطول انسان يقال له الفارس بدران وكان ناهضاً جليداً في البحر وكان رئيس البحرين يقال له عبد المحسن وكان قد أكد عليهم الوصية وأخذ حذرهم وتيقظهم لئلا تنهز منهم فرصة نخالفوه وغفلوا عن أنفسهم في الليل فخرج أسطول الكفار من صور وكبسوهم وأخذوا المقدمين مع خمسة قطع وقتلوا خلقاً عظيماً من الاسطول الاسلامي وذلك في السابع والعشرين من شوال فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق عطنه وكان قد هجم الشتاء وتراكت الامطار وامتنع الناس من القتال من شدة المطر فجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل فاشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزءاً من الراحة ويستعدوا لهذا الامر استعداداً جديداً فرأى ذلك رأياً ورحل عنها بعد أن رمي المنجنقات وسيرها وأحرق مالا يمكن نقله وكان رحيله ثاني ذي القعدة من هذه السنة ففرق العساكر وأعطاهما دستوراً وسار كل قوم الى بلادهم وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين

﴿ ذكر نزوله على كوكب ﴾

ولما دخلت عليه هذه السنة المباركة رأى الاشتغال بالحصون الباقية لهم مما يضعف قلوب من في صور وينهى أمرها به فاشتغل بذلك ونزل على كوكب في أوائل محرم وكان سبب بدائه بكوكب أنه قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل اليهم قوة فخرج الافرنج ليلاً وأخذوا غرتهم وكبسوهم بعفر بلا وقتلوا مقدمهم وكان من الامراء يعرف بسيف الدين أخى

الجالولي وأخذوا أسلحتهم فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن معه من
خواصه فانه كان قد أعطى العساكر دستوراً وعاد أخوه الى مصر وولده الى
حلب واتي في طريقه شدة من الثلج والبرد فحملته مع ذلك الحمية على النزول
عليها وأقام يقاتلها مدة . وفي تلك المنزلة وصلت الي خدمته فاني كنت قد
حججت سنة ثلاث وثمانين وكانت وقعة ابن المقدم وجرح يوم عرفة على
عرفة لحلف جري بينه وبين أمير الحاج طستكين على ضرب الكوس
والدبابة فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدم وكان من اكبر أمراء
الشام وكان كثير الغزاة فقدر الله أن جرح برفة يوم عرفة ثم حمل الي منى
مجروحاً ومات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الاكبر وصلى عليه في مسجد
الحيف في بقية ذلك اليوم ودفن بالاملا وهذا من أتم السعادات وبلغ ذلك
السلطان فشق عليه ثم اتفق لى العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته
والجمع بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام
فوصلت الى دمشق ثم خرجت الى القدس فبلغه خبر وصورلي فظن اني
وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده وبالغ في الاكرام
والاحترام . ولما ودعته ذاهباً الى القدس خرج لى بعض خواصه وأبلغني
تقدمه الي بأن أعود أتمثل في خدمته عند العود من القدس فظننت أنه
يوصيني بهم الي الموصل وانصرفت الي القدس يوم رحيله عن كوكب
ورحل لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ الا بجمع العساكر عليه وكان حصنا
قوياً وفيه رجال شداد من بقايا السيف وميرة عظيمة فرحل الي دمشق وكان
دخوله اليها في سادس ربيع الاول . وفي ذلك اليوم اتفق دخولي اليها عائداً
من القدس وأقام بها خمسة أيام فكان له عنها ستة عشر شهراً وفي اليوم

اخماس بلغه خبر الافرنج انهم بجبيلا واغتالوها فخرج مسرعاً ساعة بلوغ الخبر وكان قد سير الى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب وسار يطلب جبيلا فلما عرف الافرنج بخروجه كفوا عن ذلك . وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين الي حلب قاصدين الخدمة للفرزاة فصار نحو حصن الاكراد في طلب الساحل الفوقاني

﴿ ذكر دخوله الساحل الأعلى وأخذه اللاذقية وجبله وغيرها ﴾

ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الاكراد ثم سير الى الملك الظاهر والملك المظفر ان يجتمعا وينزلا بتبرين قبالة انطاكية ليحفظ ذلك اباب وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت لخدمة السلطان في هذه المنزلة ووصلت اليه بها على عزم المسير الى الموصل متجهزاً لذلك فلما حضرت عنده فرح بي واكرمني وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها يجمع أحكامه وآدابه فقدمته بين يديه فأعجبه وكان يلزم مطالته وما زلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافني عن ذلك ويستديني للحضور في خدمته في كل وقت ويبلغني على السنة الحاضرين ثناءه على وذكره اياي بالجليل فأقام في منزلته ربيعاً الآخر جميعه وصعد في أثناءه الي حصن الاكراد وحاصرها يوم مجيئه بها فما رأى الوقت يحمل حصاره واجتمعت العساكر من الجوانب وأغار على بلد طرابلس في الشهر دفتين ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر ويقويه العساكر بالغنائم ثم نادى في الناس في أواخر الشهر انا داخلون الساحل وهو قليل الأزواد والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر ثم سير الي مع الفقيه عيسى وكشف الي انه ليس في عزمه أن يمكثني من العود

الى بلادي وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيت وجهه الجهاد فأحبيته
لذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادي الاولي سنة أربع وثمانين وهو يوم
دخوله الساحل وجميع ما حكيت به قبل انما هو روايتي عمن أثق به ممن شاهدته
* ومن هذا التاريخ ما سطرت الا ماشاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً
يقارب العيان والله الموفق * ولما كان يوم الجمعة رابع جمادي الاولي رحل
السلطان على تعبية لقاء العدو ورتب الاطلاب وسارت الميمنة أولاً ومقدمها
عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الآخر ومقدمها مظفر الدين
وسار الثقل في وسط المسكر حتى أتى المنزل فبتنا تلك الليلة في بلد العدو
ثم رحل ونزل على العريمة فلم يقاتلها ولم يتعرض لها ووصل في السادس
الى أنطرسوس فوقف قبالتها ينظر اليها وكان في عزمه الاجتياز فانه كان له
عمل بجبله فاستهان بأمرها فعزم على قتالها فسير من رد الميمنة وأمرها
بالنزول على جانب البحر وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر
ونزل هو في موضعه وصارت العساكر محدقة بها من البحر الى البحر وهي
مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين حصينان وركب هو وقارب
البلد وأمر الناس بالزحف والقتال فلبسوا الامة الحرب والقتال والزحف
وضايقتهم فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وأخذوها بالسيف
وغنم المسكر جميع من بها وما بها وخرج الناس والاسري وأموالهم بأيديهم
وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالنهب والكسب ووفى بقوله نتغدى
بانطرسوس ان شاء الله وعاد الى خيمته فرحاً مسروراً . وحضرنا عنده للهناء
بما جري ومد الطعام وحضر الناس واكلوا على عادتهم ورتب على البرجين
الباقين الحصار فسلم أحدهما مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخرجه وأخذ

من كان فيه وأمر السلطان باخراب سور البلد وقسمه على الامراء وشرعوا في اخراجه وأخذوا يحاصرون الآخر . وكان حصناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والبطارقة والمقاتلة فيه وخذقه يدور فيه الماء وفيه فروج كثيرة يخرج الناس منها عن بعد وليس له قدر يخرج عليه مسلم فرأى السلطان تأخير أمره والاشتغال بما هو أهم منه فاشتد في اخراب السور حتى أتى عليه وخرب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج اليها من أقطار بلادهم وأمر بوضع النار في البلد فأحرق جميعه حتى كان تتأجج النار في ارزه وبيوته والاصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير فأقام عليها يخربها الي الرابع عشر وسار يريد جبلة وكان عرض له ولده الملك الظاهر في أثناء طريق جبلة فانه طلبه وأمره أن يحضر معه جميع العساكر التي كانت بتبرين

﴿ ذكر فتوحه جبلة واللاذقية ﴾

ووصل الى جبلة في الثامن عشر وما استتم نزول العساكر حتى أتى البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع وبقيت القلعة ممتنعة فاشتغل بقتالها فقاتلت قتالا يقيم عذراً لمن كان فيها وسلمت بالامان في التاسع عشر وأقام عليها الي الثالث والعشرين وسارعها يطلب اللاذقية وكان نزوله عليها في الرابع والعشرين وهي بلد مايح خفيف على القلب غير مستور . وله ميناء مشهورة وله قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد فنزل محذفاً بالبلد وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما الامن ناحية البلد واشتد القتال وعظم الزحف وارتفعت الاصوات وقوي الضجيج الي آخر اليوم المذكور . وأخذ البلد دون القلعتين وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فانه كان بلد التجار ففرق بين الناس الليل وهجومه واصبح

يوم الجمعة مقاتلا مجتهدا في أخذ النقوب وأخذت النقوب من شمالي القلاع
وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ما حكى لي من ذرعه ستين ذراعا وعرضه
أربعة اذرع واشتد الزحف عليهم حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور
وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة باليد فلما رأى عدو الله ما حل
بهم من الصغار والبولار استغاثوا بطلب الامان عشية الجمعة الخامس والعشرين
من الشهر وطلبوا قاضي جبلة يدخل اليهم ليقرر لهم الامان فأجيبوا الى ذلك
. وكان رحمه الله متى طلب منه الامان لا يبخل به رفقا فعماد الناس عنهم الي
خيامهم وقد أخذ منهم التعب فباتوا الي صبيحة السبت ودخل قاضي جبلة
اليهم واستقر الحال معهم على انهم يطلقون بنفوسهم وذرايرهم وأموالهم خلا
الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب وأطلق لهم دواب يركبونها الي
مأمنهم وزقي عليها العلم الاسلامي المنصور في بقية ذلك اليوم وأقمنا عليها الي
السابع والعشرين

﴿ ذكر فتوح صهيون ﴾

ورحل عن اللاذقية طالبا صهيون واستدارت العساكر بها من سائر
نواحيها في التاسع والعشرين ونصب عليها ستة مناجيق وهي قلعة حصينة منيعة
في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة وليس لها خندق محفور
الا من جانب واحد مقدار طوله ستون ذراعا أو أكثر وهو نقر في حجر ولها
ثلاثة أسوار سور دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة وكان على
قلعتها علم طويل منصوب فحين أقبل العسكر الاسلامي شاهدها قد وقع
فأستبشر المسلمون بذلك وعلموا أنه النصر والفتح واشتد القتال عليها من
سائر الجوانب فضرها بمنجنيق الملك الظاهر صاحب حلب وكان نصب

منجنيقا قريبا من سورها فقطع الوادي وكان صائب الحجر فلم يزل
يضرها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقى
اليه منها ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادي الآخرة عزم السلطان وتقدم وأمر
المنجنيقات ان تتوالي بالضرب وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير
والتهليل وما كان الا ساعة حتى رقي المسلمون على الاسوار التي للربض واشند
الزحف وعظم الامر وهجم المسلمون الربض * ولقد كنت اشاهد الناس
وهم يأخذون القدور وقد اسنوى فيها الطعام فيا كلونها وهم يقاتلون وانضم من
كان في الربض الى القلعة ويحملون ما أمكنهم ان يحملوا من أموالهم ونهب الباقي
واستدارت المقاتلة حول اسوار القلعة ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الامان
ووصل خبرهم الى السلطان فبذل الامان وأنم عليهم على ان يسلموا بأنفسهم
وأموالهم ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير ومن المرأة خمسة وعن
الصغير ديناران وسلمت القلعة وأقام السلطان عليها حتى سلم عدة قلاع كالعبد
وفيجه وبلاطنيس وغيرها من القلاع والحصون تسلمها النواب

﴿ ذكر فتوح بكاس ﴾

ثم رحل وسرنا حتى آتينا سادس جمادي الاخرى بكاس وهي قلعة
حصينة على جانب العاصي ولها نهر يخرج من تحتها وكان المنزل على شاطئ
العاصي وصعد السلطان جريدة الى القلعة وهي على جبل يطل على العاصي
فأحرق بها من كل جانب وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف المضائق
الى تاسع الشهر ويسر الله فتحها عنوة وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم
وغنم جميع ما كان فيها وكان لها قلعة تسمى الشفر قريبة منها يعبر اليها منها
بجسر وهي في غاية المنعة ليس اليها طريق فسلطت عليها المنجنيقات من

الجوانب ورأوا انهم لا ناصر لهم فطلبوا الامان في الثالث عشر وسألوا ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بانطاكية فأذن في ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني عليها يوم الجمعة سادس عشر ثم عاد السلطان الى الثقل وسير ولده الملك الظاهر الي قلعة سرمانية فقاتلها قتالاً شديداً وضايقتها مضايقة عظيمة وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر فاتفتحت فتوحات الساحل من جبلة الي سرمانية في أيام الجمع وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر لنا الله الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ولم يتفق مثلها في تاريخ *

﴿ ذكر فتوح برزية ﴾

ثم سير السلطان جريدة الي قلعة برزية وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين يحيط بها أودية من سائر جوانبها وذرع علوها كان خمسمائة ذراعاً ونيفاً وسبعين ذراعاً ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها واستدعى الثقل وكان نزول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها في الرابع والعشرين من الشهر وفي بكرة الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنقات وآلات الحصار الي الجبل فأحدثت بالقلعة من سائر نواحيها وركب القتال من كل جانب وضرب اسوارها بالمنجنقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً وفي السابع والعشرين قسم المساكر ثلاثة أقسام ورتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلاً وكان صاحب النوبة الاولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالاً

شديداً حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك خطوات عدة وصاح في الناس فحملوا عليها حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن الا بعض ساعة حتى رقي الناس على الاسوار وهجموا القلعة وأخذت القلعة عنوة فاستغاثوا الأمان وقد تمكنت الايدي منهم فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ونهب جميع ما فيها وأسر جميع من كان فيها وكان قد أوى اليها خلق عظيم وكانت من قلاعهم المذكورة وكان يوماً عظيماً وعاد الناس الى خيامهم غانمين وعاد السلطان الى الثقل فرحاً مسروراً وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلاً كبيراً منهم وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً فمن عليهم ورق لهم وأنفذهم الي صاحب انطاكية استمالة له فانهم كانوا يتعلقون به ومن أهله

﴿ ذكر فتوح دربساك ﴾

ثم رحل حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن عشر رجب وهي قلعة منيعة قريبة من انطاكية فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيات وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه وهم قيام في عرض الجدار مكشفون فاشتد بهم الامر حتى طلبوا الامان واشترطوا مراجعة انطاكية وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير ورقى عليها العلم الاسلامي في الثاني والعشرين من رجب وأعطاهما علم الدين سليمان بن جندر وسار عنها في الثالث والعشرين منه

﴿ ذكر فتوح بغراس ﴾

وهي قلعة منيعة أقرب الي انطاكية من دريساك وكانت كثيرة العدة
والرجال فنزل العسكر في مرج لها واحدى العسكر بها جريدة مع انا
احتجنا الى يزك في تلك المنزلة يحفظ جانب انطاكية لئلا يخرج منها من
يهاجم العسكر ف ضرب يزك الاسلام على باب انطاكية بحيث لا يشد عنه من
يخرج منها وانا من كان في اليزك في بعض الايام لرؤية البلد وزيارة حبيب
النجار المدفون فيها ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان
على استئذان انطاكية ورفى العلم الاسلامي عليها في ثاني شعبان. وفي بقية ذلك
اليوم عاد رحمه الله الي المخيم الاكبر وراسله أهل انطاكية في طلب الصلح
فصالحهم لشدة ضجر العسكر وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب
الدستور وعقد الصلح بيننا وبين انطاكية من بلاد الافرنج لا غير على أن يطلقوا
جميع أسارى المسلمين الذين عندهم وكان الى سبعة أشهر فان جاءهم من
ينصرهم والا سلموا البلد الي السلطان . ورحل يطلب دمشق فسأله ولده
الملك الظاهر أن يجتاز به فاجابه وسار حتى أتى حلب حادي عشر شعبان وأقام
بقلعتها ثلاثة أيام وولده يقوم بالضيافة حق القيام ولم يبق من العسكر الامن ناله
من نعمته منال واكثر ظنى أنه أشفق عليه والده وسار من حلب يريد دمشق
فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين واصعده الي قلعة حماه واصطنع له
طعاما حسنا وأحضر له سماع الصوفية وبات فيها ليلة واحدة وأعطاه جبلة
واللاذقية وسار على طريق بملبك حتى أتاها وأقام بمرجها يوما ودخل الي
حامها وسار منها حتى دخل رمضان وما كان يري تخلية وقته عن الجهاد مها
امكنه وكان قد بقى له القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها

كصفد وكوكب فرأى ان يشغل الوقت بفتح المكاين في الصوم

﴿ ذكر فتح صفد ﴾

ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ولم يلتفت الى مفارقة
 الاهل والاولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الانسان أين كان فيجتمع
 فيه بأهله . اللهم انه احتل ذلك ابتغاء مرضاتك فآته أجرا عظيما . فسار حتي
 أتى صفد وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جواربها فاحدق
 العسكر بها ونصب عليها المناجيق في أثناء شهر رمضان المبارك وكانت
 الامطار شديدة والوحول عظيمة ولم يمنعه ذلك عن جده * ولقد كنت عنده
 في خدمته ليلة وقد عين مواضع خمس مناجيق فقال ما نام حتى تنصب الخمسة
 وسلم كل منجنيق الى قوم ورسله تتواتر اليهم يعرفونهم كيف
 يصنعون حتي أظله الصبح وقد فرغت المنجنيقات ولم يبق الا تركيب خنازيرها
 فيها فرويت له الحديث المشهور في الصباح وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلي
 الله عليه وسلم « عينان لا تمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله وعين بكت
 ولما عينا بالسنه تسنه به الله
 من خشية الله » * وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب
 صاحبها وخلصود بها من الأسر وكان قد أسرفي وقفة حطين المباركة ثم لم
 يزل القتال على صفد متواصلا باليون مع الصوم حتي سلمت بالامان في
 رابع عشر شوال
 تلي المعركة قد صلا قتيلا اليه تليبه قتيلا حيا خاضعا

﴿ ذكر فتح كوكب ﴾

ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ولم يلتفت الى مفارقة
 الاهل والاولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الانسان أين كان فيجتمع
 فيه بأهله . اللهم انه احتل ذلك ابتغاء مرضاتك فآته أجرا عظيما . فسار حتي
 أتى صفد وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جواربها فاحدق
 العسكر بها ونصب عليها المناجيق في أثناء شهر رمضان المبارك وكانت
 الامطار شديدة والوحول عظيمة ولم يمنعه ذلك عن جده * ولقد كنت عنده
 في خدمته ليلة وقد عين مواضع خمس مناجيق فقال ما نام حتى تنصب الخمسة
 وسلم كل منجنيق الى قوم ورسله تتواتر اليهم يعرفونهم كيف
 يصنعون حتي أظله الصبح وقد فرغت المنجنيقات ولم يبق الا تركيب خنازيرها
 فيها فرويت له الحديث المشهور في الصباح وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلي
 الله عليه وسلم « عينان لا تمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله وعين بكت
 ولما عينا بالسنه تسنه به الله
 من خشية الله » * وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب
 صاحبها وخلصود بها من الأسر وكان قد أسرفي وقفة حطين المباركة ثم لم
 يزل القتال على صفد متواصلا باليون مع الصوم حتي سلمت بالامان في
 رابع عشر شوال
 تلي المعركة قد صلا قتيلا اليه تليبه قتيلا حيا خاضعا

حجر وطين يستتر وراءه حتى لا يقدر أحد يقف على باب خيمة الآ ان كان
 ملبساً وكانت الامطار متواترة والوحول عظيمة وعانى شداًد وأهوالاً من
 شدة الرياح وتراكم الامطار وكون العدو مسلطاً عليهم بعلو مكانه وقتل وجرح
 جماعة ولم يزل راكباً مركب الجدد حتى تمكن النقب من سورها * ولما
 أحس العدو المخدول انه مأخوذ طلب الامان فاجابهم الى ذلك وأمنهم وتسلمها
 في منتصف ذي القعدة ونزل على الفور الى الثقل وكان قد انزله من شدة
 الوحل والريح في سطح الجبل فاقام بقية الشهر يراجعه أخوه الملك العادل
 في أشغال شخصية حتى هلّ هلال ذي الحجة وأعطى الجماعة دستوراً وسار
 مع أخيه يريد القدس لزيارته ووداع أخيه فانه كان عائداً الى مضر فوصلنا
 اليه يوم الجمعة ثامن ذي الحجة وصلينا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة وصلينا
 صلاة العيد الاعظم بها أيضاً يوم الاحد وسار حادي عشر طالباً عسقلان
 لينظر في حالها فاقام بها أياماً يلم شعنها ويصلح أحوالها فودع أخاه وأعطاه
 الكرك وأخذ منه عسقلان وعاد يطلب عكا على طريق الساحل ويمر على
 البلاد يفتقد أحوالها ويودعها الرجال والمدد حتى أتى عكا فاقام بها معظم محرم
 سنة خمسة وثمانين ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة السور
 والاطناب فيه ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق مستهل صفر
 سنة خمسة وثمانين

﴿ ذكر توجهه الى شقيف أرنون وهي السفرة المتصلة بواقعة عكا ﴾

وأقام بدمشق حتى دخل في ربيع الاول ثلاثة أيام ووصله في أثناء ربيع
 الاول رسل الخليفة الناصر لدين الله يأمره بالخطبة لولده وليّ العهد فخطب
 له وجدد عزمه على قصد شقيف أرنون وهو موضع حصين قريب من

بانياس وكان تبريزه في الثالث فصار حتى نزل مرج برغوث وأقام به ينتظر العساكر الى حادي عشرة ورحل حتى أتى بانياس ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون في السابع عشر فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب فاقنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة فرأى ان اصلاح حاله معه قد تعين طريقاً الى سلامته فنزل بنفسه وما أحسننا به الا وهو قائم على باب خيمة السلطان فاذن له فدخل فاحترمه واکرمه وكان من كبار الافرنجية وعقلاؤها وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من اتواريخ وبلغني انه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وكان عنده ثاب فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر له انه مملوكه وانه تحت طاعته وانه يسلم المكان اليه من غير تعب واشترط أن يعطي موضعاً يسكنه بدمشق فانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج واقطاعا بدمشق يقوم به وباهله وان يمكن من الاقامة بموضعه وهو يتردد الى الخدمة ثلاثة اشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص اهله وجماعته من صور فاجيب الي ذلك كله واقام يتردد الى خدمة السلطان في كل وقت وينظره في دينه وناظره في بطلانه وكان حسن المحاوره ومتأدبا في كلامه وفي اثناء ربيع الاول وصل الخبر بتسليم الشوبك وكان قد أقام السلطان عليه جمعا عظيما يحاصرونه مدة سنة حتى فرغ زادهم وسلموه بالامان

﴿ ذكر اجتماع الافرنج تقصد عكا ﴾

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان انه ان أمر الملك

بتسليمها اطلقه فامرهم بتسليمها وسلموها فطالبه الملك باطلاقة فاطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد من انطرسوس واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفاً أبداً ويكون غلامه ومملوكه وطليقه أبداً فنكث لعنه الله فجمع جموعاً وأتى صور يطلب الدخول اليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت وكان المركيس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد في دينه وصرامة عظيمة فقال اني نائب للملوك الذين وراء البحر وما أذنوا لي في تسليمها اليك وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على ان يتفقوا جميعاً على المسلمين وتجمع العساكر بصور وغيرها من الافرنجية على المسلمين وعسكروا على باب صور

﴿ ذكر الواقعة التي استشهد فيها أبيك الأخرش ﴾

وذلك انه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة بلغ السلطان من اليزك ان الافرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وبقيت الارض التي نحن عليها فركب السلطان وصاح الجلاووش فركب العسكر يريدون نحو اليزك فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة وذلك ان الافرنج عبر منهم جماعة الجسر فهض لهم اليزك الاسلامي وكانوا في قوة وعدة فقاتلوهم قتالاً شديداً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجرحوا اضعاف ما قتلوا ورموا في النهر جماعة ففرقوا ونصر الله الاسلام وأهله ولم يقتل من المسلمين الامموك للسلطان يعرف بأبيك الأخرش فانه استشهد في ذلك اليوم وكان شجاعاً باسلاً مجرباً في الحرب فارساً تقنطربه فرسه فلجأ الي صخرة فقاتل بالنشاب حتي فني ثم بالسيف حتي قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته وعاد السلطان الي خيم

كانت قد ضربت له قريب المكان جريدة

﴿ ذكر وقعة ثانية استشهد فيها جمع من رجاله المسلمين ﴾

وأقام في تلك الخيم الي التاسع عشر وركب يشرف على القوم على عادته فتبع المسكر خلق عظيم من الرجالة والنزاة والسوقة وحرص في ردهم فلم يفعلوا ولقد أمر من ضربهم فلم يفعلوا وخاف عليهم فان المكان كان حرجاليس للراجل فيه ملجأ ثم هجم الرجالة الي الجسر وناوشوا العدو وعبر منهم جماعة اليهم وجري بينهم قتال شديد واجتمع بهم من الافرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان فانه كان بعيدا عنهم ولم يكن معه عسكر فانه لم يخرج بتعبية قتال وانما ركب مستشرفا عليهم على العادة من كل يوم ولما بان له الوقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والافرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بها السلطان وظفروا بالرجالة ظفرة عظيمة وجرى بينهم وبين السرية قتال شديد وأسر جماعة من الرجالة وقتلوا جماعة وكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفرا وقتل أيضاً من الافرنج عدة عظيمة وغرق أيضاً منهم عدة وكان ممن قتل منهم مقدم الألمانة وكان عندهم عظيماً محترماً واستشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصاروا وكان شاباً حسناً شجاعاً واحتسبه والده في سبيل الله ولم تقطر من عينه عليه دمعة على ما ذكر جماعة لازموه وهذه الوقعة لم يتفق للافرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدها ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه العدة في هذه المدة



﴿ ذكر مسير جريدة الي عكا وسبب ذلك ﴾

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في تلك الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقدر معهم انه يهجم على الافرنج ويعبر الجسر ويقتلهم ويستأصل شأفتهم وكان الافرنج قد رحلوا من صور ونزلوا قريب الجسر وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ فلما صم العزم على ذلك أصبح يوم الخميس سابع عشر وركب وسار وتبعه الناس والمقاتلة والمساكر ولما وصل أواخر الناس الى أوائلهم وجدوا اليزك عائداً وخيامهم قد قلعت فسلخوا عن سبب ذلك فذكروا ان الافرنج رحلوا راجعين الى صور ملتجئين الى سورها معتصمين بقربها وأنهم لما بلغهم ذلك عادوا ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير الى عكا ليلحظ ما بنى من سورها ويحث على الباقي فضى الى عكا ورتب أحوالها وأمر بتمة عمارة سورها واتقانه وإحكامه وأمرهم بالاحتياط والاحتراز وعاد الى العسكر المنصور الى مرج عيون منتظراً مهلة صاحب الشقيف لعنه الله

﴿ ذكر وقعة أخرى ﴾

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه ان جماعة من رجالة العدو يسطون ويصلون الى جبل تبنين يحتطبون وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم فرأى أن يقرر قاعدة وكينا يرتبه لهم ويأخذهم فيه وبلغه انه يخرج وراءهم أيضاً خيلاً تحفظهم فعمل كينا يصلح للقاء الجميع ثم أنفذ الى عسكر تبنين وتقدم اليهم أن يخرجوا في نفر يسير غائرين على تلك الرجالة وأن خيل العدو اذا تبعتهم ينهزمون الى جهة عينها

لهم وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة وأرسل الي عسكر
عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى اذا تحركوا في نصره أصحابهم
قصدوا خيمهم وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكى السلاح متجردين
ليس معهم خيمة الى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين ورتب العسكر ثمانية
أطلاب واستخرج من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل
وأمرهم أن يترأوا للعدو حتى يظهروا اليهم ويناشوهم وينهزموا بين أيديهم
حتى يصلوا الي الكمين ففعلوا ذلك وظهر لهم من الافرنج معظم عسكرهم
يقدمهم الملك وكان قد بلغهم الخبر وتعبوا تعبىة القتال وجرى بينهم وبين هذه
السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وأنفوا عن الانهزام بين
أيديهم وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان ولقاتهم العدو الكثير بذلك الجمع
اليسير واتصل الحرب بينهم الى أواخر نهار الاثنين ولم يرجع منهم أحد الي
العسكر ليخبرهم بما جرى واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الامر وقد هجم
الليل فبعث اليهم بعوثاً كثيرة حين علم ضيق الوقت عن المصاف وفوات
الامر ولما بصر الافرنج بأوائل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكسين
على أعقابهم بعد ان جرت مقتلة عظيمة من الجانبين وكانت القتلى من الافرنج
على ما ذكر من حضر فاني لم اكن حاضرها زهاء عشرة أنفس ومن المسلمين
سته أنفار اثنان من اليزك وأربعة من العرب منهم الامير رامل وكان شابا
تاما حسن الشباب مقدم عشيرته . وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه
فقداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً وأسر هو وثلاثة من أهله . ولما
بصر الافرنج بالمدد للعسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ وجرح خلق كثير من
الطائفتين وخيل كثيرة . ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوك السلطان أثنى

بالجراح حتي وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دمًا وبات ليلته أجمع على تلك الحالة الى صبيحة يوم الثلاثاء فقده أصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان فقده فأنفذ من يكشف خبره فوجدوه بين القتلي على مثال هذه الحالة فخلوه ونقلوه الى المخيم على تلك الحال وعافاه الله وعاد السلطان الى المخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر منصوراً فرحاً مسروراً

﴿ ذكر أخذ أصحاب الشقيف وسبب ذلك ﴾

ثم استفاض بين الناس ان صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لا انه صادق في ذلك وانما قصديه تدفع الزمان وظهر لذلك مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة واتقان الابواب وغير ذلك فرأى السلطان أن يصعد الى سطح الجبل ليقرب من المكان ويرسل سرا من يمنع من دخول النجدة والميرة اليه وأظهر أن سبب ذلك شدة حرّ الزمان والقرار من وخم المرج. وكان انتقاله الى سطح الجبل ليلة الثاني عشر من الشهر وقد مضى من الليل ربه فما أصبح صاحب الشقيف الا والحية مضروبة وبقى بعض العساكر بالمرج على حاله فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه وعلم انه بقي من المدة بقية جمادي الآخرة حدثه نفسه أنه ينزل الى خدمة السلطان ويستعطفه ويستزيده في المدة وتخيل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطافته ان ذلك يتم فنزل الى الخدمة وعرض المكان وقال المدة لم يبق منها الا اليسير وأي فرق بين التسليم اليوم أو غداً وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصور وأنهم على الخروج منها في هذه الايام وأقام في الخدمة ذلك اليوم الى الليل وصعد القلعة ولم يظهر له السلطان شيئاً وأجراه على عادته وتقضي مدته ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها وطلب الخلوة بالسلطان وسأل منه أن

يمرله تمام السنة تسعة أشهر فاحس السلطان منه الذر فاطله وما أيسره
وقال نتفكر في ذلك ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم وما ينفصل الحال عليه
أمر فك وضرب له خيمة قريبة من خيمته وأقام عليه حرساً لا يشعر بهم وهو
على غاية من الأكرام والاحترام له والمراجعة والمراسلة بينهم في ذلك الفن
مستمرة حتى انقضت الايام وطولبت تسليم المكان فكشف له أنك أضمرت
الذر ووجدت في المكان عمائر * وحملت اليه ذخائر فانكر ذلك واستقرت
القاعدة على ان ينفذ من عنده ثقته وينفذ السلطان ثقة يتسلم المكان وينظر
هل تجدد فيه شيء من البناء أم لا فوضوا اليه فلم يلتفت أصحابه المقيمون فيه اليهم
ووجدوه قد جدد باباً للصور لم يكن فاقم الحرس الشديد عايه واظهر ذلك
ومنع من الدخول الي الخدمة وقيل له قد انقضت المدة ولا بد من التسليم
وهو يغالط عن ذلك ويدافع عن الجواب عنه * ولما كان الثامن عشر من جمادى
الآخرة وفيه اعترف بانتهاء المدة قال أنا أمضى واسلم المكان وسار معه جمع
كثير من الامراء والاجناد حتى أتى الشقيف وأمرهم بالتسليم فأبوا فخرج اليه
قسيس وحدثه بلسانه ثم عاد واشتد امتناعهم بعد عود القسيس اليهم فظن
انه أكد الوصية على القسيس في الامتناع وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد
فلم يلتفتوا واعيد الي المخيم المنصور وسير من ليائه الي بانياس واحيط عليه
بقلعتها فاحدق العسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين وأقام صاحب الشقيف
ببانياس الي سادس رجب واشتد حنق السلطان على صاحب الشقيف بسبب
تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ولم يعملوا فيها شيئاً فاحضر الي المخيم
وهدد ليلة وصوله بأمور عظيمة فلم يفعل وأصبح السلطان ثامن رجب ورتي
الي سنام الجبل نخيمه وهو موضع مشرف على الشقيف من المكان الذي كان

فيه أولى وأبعد من الوخم وكان قد تغير مزاجه * ثم بلغنا بعد ذلك ان
الافرنج بصور مع الملك قد ساروا نحو النواقر يريدون جهة عكا وان بعضهم
نزل بالاسكندرونة وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة وقتل منهم
المسلمون نفرا يسيرا وأقاموا هناك

﴿ ذكر وقعة عكا ﴾

وذلك انه لما بلغ السلطان حركة الافرنج الي تلك الجهة عظم عليه
ولم ير المسارعة خوفا من ان يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد
المكان فاقام مستكشفاً للحال الي ثاني عشر رجب فوصل قاصد آخر ان
الافرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصة ووصل أوائلهم الي الزيت
فمظم ذلك عندد وكتب الي سائر أرباب الاطراف يتقدمون بالمساكر
الاسلامية بالمسير الي المخيم المحروس وعاد فجدد الكتب والحلث وتقدم الي الثقل
ان سار بالليل وأصبح هو صبيحة الثالث عشر ساراً الي عكا على طريق طبرية
اذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر الا هو وسير جماعة على طريق تبنين
يستطلعون العدو ويواصلون باخباره وبرزنا حتي اتينا الحولة منتصف النهار
فزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى اتى موضعاً يقال له المنية
صباح الرابع عشر وفيه بلغنا نزول الافرنج على عكا يوم الاثنين الثالث عشر
وصير صاحب الشقيف الي دمشق بعد الاهانة الشديدة على سوء صنيعه
وسار هو جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على
طريق تبنين بمرج صفورية فانه كان واعدهم اليه وتقدم الي الثقل ان يلحقه
الي مرج صفورية ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة وبعث بعض العسكر
ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعتاب

بعث حتى حصل فيها خلق كثير وعدد وافر ورتب العسكر ميمنة وميسرة
وقلباً وسار من الحروبة وكان قد نزل عليها خامس عشر الشهر فسار منها
حتى أتى تل كيسان في أوائل مرج عكا وأمر الناس أن ينزلوا به على تلك
التعبية وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر الميمنة مقارب تل
العياضية فاحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالعدو والمخذول وأخذ عليهم الطرف
من الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت ورتب اليزك الدائم
والجاليش في كل يوم مع العدو وحصر العدو في خيامه من كل جانب
بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحداً ولا ويجرح أو يقتل وكان معسكر العدو
على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلين قريباً من باب البلد وكان
عدد راجلهم ألفي فارس وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً وما رأيت من أنقصهم عن
ذلك ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ومددهم من البحر لا ينقطع
وجري بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والمسلمون يهافتون على
قتالهم والسلطان يمنهم من ذلك الى وقته والبعوث من العساكر الاسلامية
تواصل والملوك والامراء من الاقطار تتتابع فأول من وصل الامير الكبير
مظفر الدين بن زين الدين * ثم قدم بعده الملك المظفر صاحب حماه وفي أثناء
هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الاخلاطي وأسف المسلمون عليه اسفاً
شديداً فإنه كان شجاعاً ديناً * ثم ان الافرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم
استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج وذلك في يوم الخميس سلخ
رجب * ولما رأى السلطان ذلك عظم لديه وضاق صدره وثارت همته
العلية وفتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة اليها بالميرة والنجدة وغير ذلك
فأحضر أمراءه وأصحاب الرأي من دولته وشاورهم في مضايقة القوم وانفصل

الحال على انه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث ينفصل أمرهم بالكافية ويفتح الباب والطريق الي عكا فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان وسارمع العسكر وقد رتبته للقتال ميمنة وميسرة وقلبا وضايقهم مضايقة شديدة وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة اغتناما لدعاء الخطباء على المنابر وجرت حملات عظيمة وقلبات كثيرة واتصل الحرب الى أن حال بين الفئتين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكي السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الطائفة الاخرى

﴿ ذكر فتح الطريق الي عكا ﴾

ولما كانت صبيحة السبت أصبح الناس على القتال وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين الى البحر من شمالي عكا ولم يكن هناك للعدو خيم لكن العسكر كان قد امتدّ جريده الى البحر فحملوا عليهم فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعا كثيرا وانكف السالمون منهم الى خيامهم وهجم المسلمون خلفهم الى أوائل خيامهم وانفتح الطريق الي عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذي جدده وصار الطريق مهيبا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدو مانعا من يخرج من عسكرهم أو يدخل ودخل السلطان في ذلك اليوم الى عكا ورقى على السور ونظر الى عسكر العدو تحت السور وفرح المسلمون بنصر الله وخرج العسكر الذي كان بها في خدمة السلطان واستدار العسكر الاسلامي حول العسكر الافرنجي وأحدقوا بهم من كل جانب * ولما استقر به ذلك تراجع الناس عن القتال وذلك بعد الظهر لسقى لدواب وأخذ الراحة وكان نزولهم على أنهم اذا أخذوا حظا من الراحة عادوا

الى القتال لمناجزة القوم وضاق الوقت وأخذ الضجر والتب من الناس فلم يرجعوا الى القتال في ذلك اليوم وبات الناس على أنهم يصبحونهم بكرة الأحد الى القتال رجاء المناجزة بالكلية واختفى العدو في خيامهم بحيث لم يظهر منهم أحد . ولما كانت بكرة الاحد ثالث شعبان تعبي الناس للقتال وأخذوا بالمدو وعزموا على مهاجمة القوم وعلى أن يترجل الامراء ومعظم العسكر ويقاتلوا العدو في خيامه فلما تهيأوا لذلك رأى بعض الأمراء تأخير ذلك الى بكرة الاثنين رابع شعبان وأن يدخل الراجل كله الى داخل عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدو من ورائه وتركب العساكر الاسلامية من خارج من سائر الجوانب ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان يوالي هذه الامور بنفسه ويكافحها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الشكلى * ولقد أخبرني بعض أطبائه انه بقى من يوم الجمعة الى يوم الاحد لم يتناول من الغذاء الا شيئا يسيراً لفرط اهتمامه وفعلوا ما كان عزم عليه واشتدت منعة العدو وحى نفسه في خيامه ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس * وتمطر سماء حربها الرؤس من كل رئيس ومترائس حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان

﴿ ذكر تأخر الناس الى تل العياضية ﴾

ولما كان الثامن عزم العدو على الخروج بمجموعهم فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين في أنفسهم ولا خارجين من راجلهم حيث كانت الرجالة خروهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضا حتى قاربوا خيام اليزك . ولما رأى المسلمون ذلك واقدم العدو عليهم شدوا

وتنازعت الشجيمان * وتنازلت الكهامة الى الاقران * وصاح السلطان بالعساكر
الاسلامية يا للاستلام فركب الناس بأجمعهم ووافق فارسهم راجلهم وشابهم
شيخهم وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخدول فعادنا كصاً على عقبيه
والسيف يعمل فيهم والسالم منهم جريح . والعاطب طريح مشتدون هزيمة
يعبر جريحهم بقتيلهم ولا تلوى الجماعة منهم على قتييلهم حتى لحق الخيام من
سلم منهم وانكفوا عن القتال أياماً وكان رأيهم ان يفظوا نفوسهم * ويحرسوا
رؤسهم * واستقر فتح طريق عكا وانسلدون يترددون اليها وكنت ممن
دخل وزق على السور ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور ودام
القتال بين الفئتين متصلاً الليل والنهار حتى كان الحادي عشر من شعبان
ورأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلمهم يخرجون الي مصارعهم فنقل
الثقل الى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلين مشرف على عكا وخيام
العدو * وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين ظمان وكان من الشجعان ودفن في
سفح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان وقد
مضى من الليل هزيع رحمه الله

﴿ ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو ﴾

وكان سبب ذلك انه بلغنا ان جمعا من العدو يخرجون للاحتشاش من
طرف النهر مما ينبت عليه فاكن السلطان لهم جماعة من العرب وقصد
العرب خلفتهم على خيلهم وأمنه عليهم نخرجوا ولم يشمروا بهم فهجموا عليهم
وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة وأحضرنا رؤساء عديدة بين يديه
نخلع عليهم وأحسن اليهم وكان ذلك في السادس عشر * وفي عشية ذلك
اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيم قتل فيه جمع عظيم من

الطائفتين فطال الامر بين الفئتين وما بنخلوا يوماً من قتل وجرح وسبي ونهب وأنس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانا يتحدثان ويتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ثم يرجعون الي القتال بعد ساعة * وكان الرجال يوماً من الطائفتين قد سثموا من القتال فقالوا الي كم نقاتل الكبار وليس للصغار حظاً نريد ان يتصارع صبيان منا ومنكم فأخرج صبيان من البلد الي صبيين من الافرنج واشتد الحرب بينهم فوثب أحد الصبيين المسلمين الي أحد الكافرين فاخطفه وضرب به الارض وقبضه أسيراً فاشتراه بعض الافرنج بدينارين وقالوا هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه وهذه نادرة غريبة ووصل للفرنج مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر وما زال يسبح وهم حوله يردونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون

﴿ ذكر المصاف الاعظم على عكا ﴾

وذلك انه لما كان يوم الاربعاء الحادي والعشرون تحركت عساكر الافرنج حركة لم تكن لهم بمثلا عادة فارسهم ورجالهم وكبيرهم وصغيرهم فاصطفوا خارج خيهم قلباً وميمنة وميسرة وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمولاً مستوراً بثوب أطلس مغطى يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف وهم يسرون بين يدي الملك وامتدت الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها الي آخرها وكذلك ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا الي آخرها وملكوا رؤس التلال وكان طرف ميمنتهم الي النهر وطرف ميسرتهم الي البحر . وأما العسكر الاسلامي المنصور فان السلطان أمر الجاويش ان نادى في الناس يا لاسلام وعساكر الموحدين فركب الناس وقد باعوا أنفسهم

بالجنة ووقفوا بين أيدي خيامهم وامتدت الميمنة الى البحر والميسرة الى النهر
كذلك أيضاً وكان رحمه الله قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا
تعبية الحرب حتى اذا وقعت صيحة لا يحتاجون الي تجديد ترتيب وكان هو
في القلب وفي مدينة القاب ولده الملك الافضل ثم عسكر المواصلة يقدمهم
ظهر الدين ابن البلنكري ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين ابن نور
الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ثم الطواشي
قايماز النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك
المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر * وأما أوائل الميسرة
فكان مماليي القلب سيف الدين على المشطوب وعلى بن أحمد من كبار ملوك
الاکراد ومقدميهم والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهد الدين
برتقش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين
بجحفله وعسكره وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكج
ورسلان بغا وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ومقدم القلب الفقيه
عيسى وجمعه * هذا والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه يحثهم على القتال
* ويدعوهم الي النزال * ويرغبهم في نصر دين الله ولم يزل القوم يتقدمون
* والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى فيه مقدار أربع ساعات وعند
ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين فأخرج لهم الملك المظفر
الجاليش وجرى بينهم قلات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر وكان في
طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً اطماعاً لهم لعلهم يبعدون عن
أصحابهم فينال منهم غرضاً فلما رأي السلطان ذلك ظن به ضعفاً وأمدّه
باطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت

على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب
ومن خرج منه من الاطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو مينة
القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم ولقد رأيت الرجالة
تسير سير الخيالة وهم يسبقون حيناً وجاءت الحملة على الديار البكرية كما
شاء الله تعالى وكان بهم غرة عن الحرب فتحركوا بين يدي العدو وانكسروا
كسرة عظيمة وسري الامر حتى انكسر معظم المينة واتبع العدو المنهزمين
الى العياضية فانهم استداروا حول التل وصعد طائفة من العدو الى خيمة
السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك * وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل
المكبس وابن رواحة رحمها الله * وأما الميسرة فانها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها
واما السلطان فاخذ يطوف على الاطلاب فينهضهم ويعددهم الوعود الجميلة
ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم يا لاسلام ولم يبق معه الا خمسة أنفس وهو
يطوف على الاطلاب ويخرق الصفوف ويأوي الى تحت التل الذي كان
عليه الخيام * وأما المنهزمون من العسكر فانهم بلغت هزيمتهم الى الفخوانة
قاطع جسر طبرية وأم منهم قوم محروسة دمشق فاما المتبعون لهم فانهم
اتبعوهم الى العياضية فلما رأوهم قد صعدوا الى الجبل رجوا عنهم وجاؤا
عائدين الى عسكرهم فلقبهم جماعة من الغلمان والخريندية والساسة
منهزمين على بغال الحمل فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق
فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة فان السوق كان عظيماً ولهم
سلاح * واما الذين صعدوا الى الخيام السلطانية فانهم لم يلتمسوا فيها
شياً أصلاً سوي أنهم قتلوا من ذكرنا وهم ثلاثة نفر رأوا ميسرة
الاسلام ثابتة فعملوا ان الكسرة لا تتم فعادوا منحدرين من التل يطالبون

عسكرهم * واما السلطان فان كان واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا الي الحملة على العدو فلما رأوا الافرنج نازلين من التل ارادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر الي أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم فصاح في الناس فحملوا عليهم فطرحوا منهم جماعة فاشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم والطردهم وراءهم فلما رأوهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل وانهم انما نجا منهم هذا النفر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال وتداعت وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الايمان وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح الى ان اتصل المنهزمون السالمون الي عسكرهم فهجم عليهم في الخيام فخرج منهم اطلاب كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الامر مستريحة فردوا المسلمين وكان التعب قد اخذ من الناس والعرق قد أجمعهم فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم الي خيامهم فرحين مسرورين وعاد السلطان في ذلك اليوم الي خيمته فرحاً مسروراً وجلسوا في خيمته يتداركون من فقد من الغلمان وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة وحمسين نفراً ومن المعروفين استشهد ظهر الدين أخو الفقيه عيسى ولتد رأيتيه وهو جالس يضحك والناس يزونه وهو ينكر عليهم ويقول هذا يوم الهناء لا يوم الذاء وكان هو قد وقع عن فرسه واركبه فرأيتيه وقتل عليه جماعة من أقاربه وقتل في ذلك اليوم الامير مجلي . هذا الذي قتل من المسلمين وأما من العدو المخدول فحزر قتلهم بسبعة آلاف نفر ورأيتهم وقد

حملوهم الى شاطئ النهر ليلقوا فيه فعزرتهم بدون سبعة آلاف * ولما تم على المسلمين من الهزيمة ماتم ورأى الغلمان خلو الخيام عن يمترض عليهم فان العسكر انقسم الى قسمين منهزمين ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد وراءنا فظنوا ان الكسرة تتم وان العدو ينهب جميع ما في الخيام فوضعوا أيديهم في الخيام ونهبوا جميع ما كان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا . ولما عاد السلطان الى الخيم ورأى ما قدمت على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع الى الكتب والرسل في رد المنهزمين وتتبع من شد من العسكر والرسل تتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبه فيتق وأخذوهم بالكره الي عسكر المسلمين فعادوا وأمر بجمع الاقمشة من اكف الغلمان الي خيمته حتى جالات الخيل والمخالي بين يديه في خيمته وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم الى كل من عرف شيئاً وحلف عليه يسلم اليه وهو يلقي هذه الاحوال بقلب صلب . وصدر رجب . ووجه منبسط . ورأى مستقيم غير مختبط . واحتساب لله تعالى وقوة عزم في نصره دين الله * وأما العدو المخذول فانه عاد الي خيمه وقد قتل شجعانهم وطرحت مقدموهم وفقدت ملوكهم فأمر السلطان ان يخرج من عكا عجل يسحبون عليه القتلي منهم الى طرف النهر ليلقوا فيه * ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل انه أخذ خيطا وكان كلما أخذ قتيلا عقد عقدة فبلغ عدد قتلي الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسور وبقى قتلي الميمنة وقتل القلب لم يعدهم فانه ولي أمرهم غيره وبقى من العدو بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا في مخيمهم لم يكثر ثوا بحافل المسلمين وعساكرهم وتشتت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة فانه ما رجع منها الا رجل معروف يخاف على نفسه والباقون هربوا في حال

سبيلهم وأخذ السلطان في جمع الاموال المنهوبة وأعادتها الي أصحابها وأقام
 المزايدة في المساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد وهو يتولى تفرقتها بنفسه
 بين يديه واجتمع من الاقمشة عدد كثير في خيمته حتى ان الجالس في أحد
 الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الآخر وأقام من ينلدى علي من ضام منه
 شيء فخصير الخلق وممار من عرف شيأ وأعطي علامته حلف وأخذ من الجبل
 وللخلاة الي الهيمان والجوهر ولقي من ذلك مشقة عظيمة ولا يرى ذلك الا
 نعمة من الله تعالى يشكر عليها . ويسلق بيد القبول اليها . ولقد حضرت
 يوم تفرقة الاقمشة على أربابها فرأيت سوقا للمدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم
 منها وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان وعند انقضاء هذه
 الواقعة وسكون ثأرتها أمر السلطان بالثقل حتى تراجع الي موضع يقال له
 الحروبنة خشية على المسكر من روائح القتلى وآثار اللوخم من الواقعة وهو
 موضع قريب من مكان الواقعة الا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلا فيه
 بقليل وضربت له خيمة عند الثقل وأمر اليزك ان يكون مقيما في المكان
 الذي كان نازلا فيه وذلك في التاسع والعشرين وابتدأ حضر الامراء وأرباب المشورة
 في سلخ الشعر ثم أمرهم بالإصغاء الي كلامه وكنيت من جملة الحاضرين ثم
 قال بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله . اظنوا ان هذا عدو الله وعدونا
 قد نزل في بلدنا وقد وطئ أرض الاسلام . وقد لاحت لوائح النصر عليه ان
 شاء الله تعالى وقد بقي في هذا الجمع السير ولا بد من الاهتمام بقلعه والله
 قد أوجب علينا ذلك وأتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة
 نتظرها سوى الملك العادل وهو واصل وهذا العدو ان بقي وطلب أمره الي
 أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم فليجزنا كل

منكم ما عنده في ذلك * وكان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية
وامتخضت الآراء وجري تجاذب في أطراف الكلام وانفصت آراؤهم على
ان المصلحة تأخير السكر الى الخروبة وان يبق السكر أياما حتى يستجم من
حمل السلاح وترجع النفوس اليهم فقد أخذ التعب منهم واستولي على
نفوسهم الضجر وتكليفهم أمرا على خلاف ما تحمله القوي لا تؤمن غائلته
. والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل والحيل قد ضجرت
من عرك اللجم وسئمت نفوسها ذلك . وعند أخذ حظ من الراحة ترجع
نفوسها اليها ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل وسعيد من شد
من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة وكان بالسلطان التياث
مزاجي قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وما عاناه من التعب بحمل السلاح
والفكر في تلك الايام فوق ما قالوه ورأوه مصلحة . وكان انتقال العسكر الى
الثقل ثالث رمضان وانتقال السلطان تلك الليلة وأقام يصلح مزاجه ويجمع
العساكر وينتظر أخاه الى عاشر رمضان

﴿ ذكر وصول خبر الالمان ﴾

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة وصل من
مجانب حلب كتب من ولده الملك الظاهر عز نصره يخبر فيها انه قد صح ان
ملك الالمان قد خرج الى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا ألف وقيل
مائتان وستون ألفا يريد البلاد الاسلامية فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه
ورأي استسيار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة فاستدعاني
لذلك وأمرني بالمسير الي صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل
وصاحب اربل واستدعاهم الى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم وأمرني بالمسير

الى بغداد لاعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة وكان الخليفة
اذ ذاك الناصر لدين الله ابا العباس احمد بن المستضيء بامر الله وكان مسيرى
في ذلك المعنى في حادى عشر رمضان ويسر الله تعالى الوصول الى الجماعة
وابلاغ الرسالة اليهم فاجابوا بنفوسهم وسار عماد الدين زنكى صاحب سنجار
بعسكره وجمعه في تلك السنة وسار ابن أخيه صاحب الجزيرة سنجر شاه
بنفسه يجر عسكره وسير صاحب الموصل ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم
عسكره. وحضرت الديوان السعيد ببغداد وأنهت الحال كما رسم وواعد بكل
حميل وعدت الى خدمته رحمة الله عليه وكان وصولي اليه في يوم الخميس خامس
ربيع الاول من شهور سنة ست وثمانين وكنت قد سبقت العساكر واخبرته
باجابتهم بالسمع والطاعة وباهتمامهم بالمسير فسرّ بذلك وفرح فرحاً شديداً

﴿ ذكر وقعة الرمل التي على جانب نهر عكا ﴾

ولما كان صفر من تلك السنة خرج السلطان يتصيد مطهئن النفس
ببعد المنزلة عن العدو فأوغل في الصيد وبلغ ذلك العدو فاخذوا نمرة المسكر
واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر الاسلامي فأحس بهم الملك
العادل فصاح بالناس وركبت العساكر من كل جانب وحمل على القوم وجرت
مقتلة عظيمة قتل وجرح بينهما منهم خلق عظيم ولم يقتل من
معروفى المسلمين الا مملوك للسلطان يقال له أرغش وكان رجلاً صالحاً
استشهد في ذلك اليوم وبلغ الخبر الى السلطان فماد منزعجاً فوجد الحرب قد
انفصل وعاد كل فريق الى حزبه وعاد العدو خائباً خائراً ولله الحمد والمنة .
وما مضى من الوقعات شاهدت منها ما يشاهد مثل وعرفت الباقي معرفة
خاصة في هذه الامور * ومن نوادر هذه الواقعة ان مملوكاً كان للسلطان

يدعي قره سنقر وكاشجاا قد قتل من أعداء الله خلقاً عظيماً وفئتكم فيهم
 فاخذوا في قلوبهم من نكايته فيهم وتجمعوا له وكنوا له وخرج اليه بعضهم
 وتراأوا له فحمل عليهم حتى صار بينهم فوثبوا عليه من سائر جوانبه فأمسك
 واحد منهم بشعره وضرب الآخر رقبتة بسيفه فانه كان قتل له أقرباء
 فوقعت الضربة في يد المسك بشعره فقطعت يده وخلي سعياله فاشتد هاربا
 حتى عاد الي أصحابه واعدهاء الله يشتدون عدوا خلقه لم يلحقه منهم أحد وعاد
 سالماً ورد الله الذين كفروا يغيظهم لم ينالوا خيراً

﴿ ذكر وفاة الفقيه عيسى ﴾

وهي مما بلغني ولم اكن حاضرها وذلك انه مرض مرضاً يتعاهده وهو
 ضعيف النفس وعرض له اسهال اضغفه فلم تقطع صلابته ولم ينب ذهنه
 عنه الى أن مات وكان رحمه الله كريماً شجاعاً حسن المقصد كبير الزمام بقضاء
 حوائج المسلمين توفي رحمه الله طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذي القعدة من شهر
 سنة خمسة وثمانين

﴿ ذكر تسليم الشقيف سنة ستة وثمانين ﴾

ولما كان يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول علم الافرنج المستحفظون
 بالشقيف انهم لا عاصم لهم من أمر الله وانهم ان أخذوا عنوة ضربت رقابهم
 فطلبوا الامان وجرت مراجعات كثيرة في قاعة الاوان وكانوا قد علموا
 من حال صاحبهم انه قد عذب أشد العذاب فاستقرت القاعدة على ان الشقيف
 يسلم ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الافرنج ويترك ما فيه من أنواع
 الاموال والذخائر وعاد صاحب صيدا والافرنج الذين كانوا بالشقيف الى صور.

ولما رأى السلطان من اهتمام الافرنج من أقطار بلادهم بالمكان وتصويب عزائمهم نحوه اغتم الشتاء وانقطاع البحر وجعل في عكا من الميرة والذخائر والعدد والرجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعالى وتقدم الي النواب بمصر ان عمروا لها اسطولاً عظيماً يحمل خلقاً كثيراً وسار حتي دخل عكا مكابرة للعدو ومرانمة له واعطى العساكر دستوراً طول الشتاء يستجمعون ويستريحون وأقام هو مع نفر يسير قبالة العدو وقد حال بين المسكرين شدة انوحول وتعذر بذلك وصول بعضهم الي بعض

﴿ ظريفة ﴾

كان لما بلغ خبر العدو وقصده عكا جمع الامراء وأصحاب الرأي بمرج عيون وشاورهم فيما يصنع وكان رأيه ان قال المصلحة مناجزة القوم ومنهم من النزول الي البلد والافان نزلوا جعلوا الرجالة سوراهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول اليهم وخيف على البلد منهم وكانت إشارة الجماعة انهم اذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعتهم في يوم واحد وكان الامر كما قال السلطان والله لقد سمعت هذا القول وشاهدت الفعل كما قال السلطان . وهو يوافق معنى قوله صلى الله عليه وسلم ان من أمتي لمحدثين ومكلمين وان عمر لمنهم

﴿ ذكر وصول رسول الخليفة ﴾

ولم يزل السلطان مجدداً في الانفاذ الي عكا بالميرة والعدد والاسلحة والرجال حتى انقضى الشتاء وانفتح البحر وحان زمان القتال كتب الي العسكر يستدعيها من الاطراف * ولما تواصل اوائل العساكر وقوي جيش الاسلام

رحل السلطان نحو العدو ونزل على تل كيسان وذلك في ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين ورتب العسكر قابلاً وميمنة وميسرة واخذت العساكر في التواصل والنجدة في التواتر فوصل رسول الخليفة وهو شاب شريف ووصل معه حملان من النفط وجماعة من النفاطين والزرايين ووصل معه من الديوان العزيز النبوي مجده الله تعالى رقعة تتضمن الاذن للسلطان ان يقترض عشرين الف دينار من التجار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز فقبل جميع ما وصل مع الرسول واستغنى عن الرقعة والتثميل بها * وفي ذلك اليوم بلغ السلطان ان الافرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه فركب اليهم لشغلهم بالقتال عن البلد وقاتلهم قتالاً شديداً الى ان فصل بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق الى أصحابه ورأى السلطان قوة العساكر الاسلامية وبعد المسكان عن العدو يخاف ان لا يهجم البلد ويتم عليه أمر فرأى الانتقال الى تل العجول بالكلية فانتقل بالعسكر والثقيل في الخامس والعشرين وفي صبيحة هذا اليوم وصلت كتب ان قد طم العدو بمض الخندق وقوي عزمه على منازلة البلد ومضايقته فجدد الكتب الى العساكر بالحث على الوصول وعي العسكر تعبى القتال وزحف الى العدو ليشغله عن ذلك * ولما كان سحر ليلة الجمعة السابع والعشرين وصل ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي صاحب حلب جريدة الى خدمته معاملة البر وترك عسكره في المنزلة وخدم والده وبل شوقه منه وعاد الى عسكره في الثامن والعشرين وسار حتى وصل في ذلك اليوم بجحفله وقد أظهروا الزينة ولبسوا الأمة الحرب وكثرت الاعلام والبيارق وضربت الكؤوسات ونعتت البوقات وعرض بين يدي والده وكان قد ركب الى لقائه في المرح وسار بهم حتى وقف بهم على العدو

وشاهدوا من جند الله ما ازعجهم وأقلقهم * وفي أواخر ذلك اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريدة أيضاً مسارعة للخدمة ثم عاد الي عسكره في لامة الحرب فرضهم السلطان حتى وقف بهم على العدو * وكان ما تقدم عسكر الا يعرضهم ويسيرهم الي العدو وينزل بهم في خيمته يمد لهم الطعام وينعم عليهم بما يطيب به قلوبهم اذا كانوا اُجانب ثم تضرب خيامهم حيث يأمر وينزلون بها مكرمين

﴿ لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر عز نصره ﴾

وذلك ان العدو كان قد اصطنع ثلاثة ابراج من خشب وحديد والبسها الجلود المسقاة بالخل على ما ذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران وكانت هذه الابراج كانها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على سور البلد وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ويتسع سطحها لان ينصب عليه منجنيق وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين واودعها من الخوف ما لا يمكن شرحه وأيس الناس من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه وكان فرغ من عملها ولم يبق الاجرها الى قريب السور وكان السلطان قد اعلم فكره في احراقها واهلاكها وجمع الصناع من الزرايين والنفطين وحثمهم على الاجتهاد في احراقها وودعهم عليه بالاموال الطائلة والعطايا الجزيلة وضائق حيلهم عن ذلك وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي ذكر بين يديه ان له صناعة في احراقها وانه ان مكن من الدخول الي عكا وحصلت له الادوية التي يعرفها احرقها فحصل له جميع ما طلبه ودخل الي عكا وطبخ الأدوية مع النفط في قدور نحاس حتى صار الجميع كانه جمرة نار * ولما كان يوم وصول الملك الظاهر ضرب واحداً بقدر فلم يكن الا ان وقعت

فيه فاشتعل من ساعته ووقته وصار كالجبل العظيم من النار طالمة ذؤابته نجوم
 السماء واستغاث المسلمون بالتهليل وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب
 وبينما الناس ينظرون ويتمجبون اذ رمي البرج الثاني بالقدر الثانية فما كان الا
 ان وصلت اليه واشتعلت كالتي قبلها فاشتد ضجيج الفئتين وانعدت الاصوات
 الي السماء وما كان الا ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب وغشى الناس من
 الفرح والسرور ما حرك ذوى الاحلام والاهي منهم حركة الشباب الرغناور كپ
 السلطان وركبت العساكر ميمنة وميسرة وقلبا وكان أواخر النهار وسار حتى
 أتى عسكر القوم وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله صلى الله عليه وسلم
 من فتح له باب من الخير فليتنهزه فلم يظهر العدو من خيامهم وحال بين
 الطائفتين الليل وعاد كل فريق الي حزبه ورأى الناس ذلك بركة قدوم الملك
 الظاهر واستبشر والده بغرته وعلم ان ذلك بين صلاح سريرته واستمر ركوب
 السلطان اليهم في كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لا يخرجون من خيامهم
 لعلمهم ببشار النصر والظفر بهم والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل

﴿ ذكر وصول عماد الدين زنكي صاحب سنجار وغيره ﴾

ولما كان الثاني والعشرون من ربيع الآخر وصل عماد الدين زنكي بن
 مودود صاحب سنجار يجر عسكره ووصل بتجمل حسن وعسكر تام ولقيه
 السلطان بالاحترام والتعظيم ورتب له العسكر في لقائه وكان أول من لقيه من
 العسكر المنصور قضاته وكتابه ثم لقيه أولاده بعد ذلك ثم لقيه السلطان ثم
 سار به حتى أوقفه على العدو وعاد معه الي خيمته وأنزله عنده وكان صنع له
 طعاما لائقا بذلك اليوم فحضر هو وجميع أصحابه وقدم له من التحف واللطائف
 ما لا يقدر غيره عليه وكان قد اكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة الي جانبه

وبسط له ثوب أطلس عند دخوله وضرب له خيمة على طرف الميسرة على جانب الهر . ولما كان سابع جمادى الأولى من هذه السنة وصل سنجرشاه ابن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة ووصل في عسكر حسن فلقية السلطان واحترمه واکرمه وأنزله في خيمته وأمر أن ضربت خيمته الى جانب عماد الدين . وفي تاسع الشهر وصل علاء الدين بن مسعود صاحب الموصل مقدماً على عسكره ففرح السلطان بقدمه فرحاً شديداً وتلقاه عن بعد هو وأهله واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة وكرمه مكارمة عظيمة وقدم له تحفاً حسنة وأمر بضرب خيمته بين ولديه الملك الأفضل والملك الظاهر . وما من أهله الا من بسط له من ضيافته وجهاً مضيئاً * ولما كانت ظهيرة نهار ذلك اليوم ظهرت في البحر قلعو كثيرة وكان رحمه الله في نظره وصول الاسطول من مصر فانه كان قد أمر بتعميره ووضوله فعلم انه هو فركب السلطان وركب الناس في خدمته وتعبى تمبية القتال وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الاسطول * ولما علم العدو وصول الاسطول استعدوا له وعمروا أسطولا لقتاله ومنعه من دخول صكا وخرج أسطول العدو واشتد السلطان في قتاله من خارج وسار الناس على جانب البحر تقوية للاسطول وایناسا لرجاله والتقى الاسطولان في البحر والعسكران في البر واضطربت نيران الحرب واستعرت وباع كل فريق روحه براحتة الاخروية * ورجح حياته الأبدية على حياته الدنيوية * وجرى بين الاسطولين قتال شديداً نشع عن نصرة الاسطول الاسلامي وأخذ من العدو الشواني وقتل من به ونهب جميع ما فيه وظفر من العدو بمركب أيضاً كان واصلا من قسطنطينية ودخل الاسطول المنصور الى صكا

وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر وطابت قلوب أهل
البلد وانشرحت صدورهم فان الضائقة كانت قد أخذت منهم واتصل القتال
بين العسكريين من خارج البلد الي أن فصل بينهما الليل وعاد كل فريق الي
خيامه وقد قتل من عدو الله وجرح خلق كثير عظيم فانهم قاتلوا في ثلاثة
مواضع فان أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلوهم عن الاسطول أيضاً
والاسطول لان يتقاتلان والعسكري يقاتلهم من البر وكان النصر للمسلمين في
الاماكن كلها ثم كان وصول زين الدين صاحب اربل في العشر الأواخر من
جمادي الاولي وهو زين الدين يوسف بن علي بن بكتكين قدم بعسكر
حسن وتجميل جميل فاحترمه السلطان واكرمه وأنزله في خيمته واكرم
ضيافته وأمر بضرب خيمته الي جانب خيمة أخيه مظفر الدين

﴿ ذكر خبر ملك الالمان ﴾

ثم تواترت الاخبار بوصول ملك الالمان الي بلاد قليج أرسلان وانه
نهض للقاءه جمع عظيم من التركمان وقصدوا منعه من عبور النهر وأنه أعجزهم
لكثرة خلقه وعدم مقدم لهم يجمع كلمتهم وكان قليج أرسلان أظهر شقاؤه
وهو في الباطن قد أضمر وفاقه ثم لما عبر الي البلاد أظهر ما كان أضمر
وواقفه وأعطاه رهائن منه على أن ينفذ معه من يوصله الي بلاد ابن لاون
وأنفذ معه أدلاء . وعراهم في الطريق جوع عظيم حتى ألقوا بعض
أقمشتهم * ولقد بلغنا والله أعلم انهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ
وآلات سلاح عجزوا عن حملها وجعلوها سدرًا واحداً وأضرموا فيها النار
لتلطف ولا ينتفع بها أحد وانها بقيت بعد ذلك تلاً من حديد وساروا على هذا
انطال حتى أتوا الي بلد يقال لها طرسوس فأقاموا على نهر ليعبروه . وأما ملكهم

فمن له أن يسبح فيه وكان ماؤه شديد البرد وكان ذلك عقيب ما ناله من
 التعب والنصب والمشقة والخوف وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم
 اشتد به إلى أن قتله * ولما رأى ما حلّ به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته
 ولما مات أجمعوا رأيهم إلى أن سلقوه في خل وجموا عظامه في كيس على أن
 يحمّله إلى القدس الشريف حرسه الله ويدفنوه في القدس وترتب ابنه مكانه
 على خلف من أصحابه فإن ولده الأكبر كان قد خلفه في بلاده وكان جماعة من
 أصحابه يميلون إليه واستقر قدم ولده الحاضر في تقدمه العسكر * ولما أحس
 ابن لاون بما جرى عليهم من الخلل وما حلّ بهم من الجوع والموت والضعف
 بسبب موت ملكهم ما رأى أن يلقي بنفسه بينهم فإنه لا يعلم كيف يكون
 الأمر وهم إفرنج وهو أرمني فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعه المنيمة

﴿ صورة كتاب الكايفكوس الارمني ﴾

ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكايفكوس وهو مقدم الارمن
 وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الثقات نسخة هذه ترجمتها * كتاب
 الداعي المخلص الكايفكوس ما أطلع به علم مولانا ومالكنا السلطان الناصر
 جامع كلمة الايمان . رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين * سلطان
 الاسلام والمسلمين ادام الله اقباله * وضاعف جلاله . وصان مهجته وكل
 نهاية آماله . بعظمته وجلاله . من امر ملك الالمان وما جرى له عند ظهوره
 وذلك انه أول ما خرج من دياره ودخل بلاد الهنكر غصبا غصب ملك
 الهنكر بالاذعان والدخول تحت طاعته وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ثم انه
 دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها واقام بها واخرج ملك الروم إلى
 أن أطاعه وأخذ رهائته ولده وأخاه واربعين نفراً من خالصه واخذ منه خمسين

قنطاراً ذهباً وخمسين قنطاراً فضة وثياب أطلس بمبلغ عظيم واغتصب
المراكب وعاد بها الى هذا الجانب وصحبه الرهائن الي ان دخل حدود بلاد
الملك قليج ارسلان ورد الرهائن وبقي سائراً ثلاثة أيام وتركان الاوج يلقونه
بالاغنام والبقر والخيل والبضائع فداخلهم الطمع وجمعوا جموعاً من جميع البلاد
ووقع القتل بين التركان وبينه وضائقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر ولما
قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج ارسلان العساكر وقصده وضرب
معه مصافعاً عظيماً فظفر به ملك الالمان وكسره كسرة عظيمة وسار حتى اشرف
على قونية فخرج اليه جموع عظيمة من المسلمين فردهم مكسورين وهجم
على قونية بالسيف وقتل منهم عالماً عظيماً من المسلمين والفرس وأقام بها
خمسة أيام فطلب قليج ارسلان منه الامان فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة
أكيدة وأخذ الملك منه رهائن عشرين من اكابر دولته وأشار على الملك أن
يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل وقبل منه وقبل وصوله الي هذه
الديار اختياراً أو كرها اقتضى الحال انفاذ المملوك حاتم وصحبه ماسأل ومعه
من الخواص جماعة للقاء الملك وجواب كتابه وكانت الوصية أن يمرأ به على
بلاد قليج ارسلان ان أمكن فلما اجتمعوا بالملك الكبير واعادوا عليه الجواب
عرفوه الاحوال بالانحراف ثم كثرت عليه العساكر والجموع ونزل على
شط بعض الانهار واكل خبزاً ونام وانته فتاقت نفسه الي الاستحمام في الماء
البارد ففعل ذلك وخرج وكان من امر الله أن تحرك عليه مرض عظيم
من الماء البارد فكث أياماً قلائل ومات * وأما ابن لاون فإنه كان سائراً
يلقى الملك فلما جري هذا المجري هرب الرسل من العسكر وتقدموا اليه
واخبروه في الحال فدخل في بعض حصونه واحتفى هناك . وأما ابن الملك

فكان أبوه منذ توجه الي قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه واستقرت القاعدة وبلغه هرب رسل ابن لاون فانفذوا استعطفهم وأحضرهم وقال ان أبي كان شيخاً كبيراً وما قصد هذه الديار الا لأجل حج بيت المقدس وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق فمن اطاعني والا قصدت دياره واستعطف ابن لاون واقتضي الحال الاجتماع ضرورة * وبالجملة فهو في عدد كثير * ولقد عرض عسكريه فكان اثنين واربعين مجفجفاً وأما الرجاله فما يحصى عددهم وهم اجناس متفاوتة على قصد عظيم وجد في أمرهم وسياسة هائلة حتى ان من جنى منهم جناية فليس له جزاء الا أن يذبح مثل الشاة * ولقد بلغهم عن بعض اكابرهم انه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضي الحال والحكم العام ذبحه وشفع الي الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت الي ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى ان من بلغهم عنه بلوغ لذة هجره وعزروه كل ذلك كان حزناً على البيت المقدس . ولقد صبح عن جمع منهم انهم هجروا الثياب مدة طويلة وحرموا ما حلّ ولم يلبسوا الا الحديد حتى انكر عليهم الاكابر ذلك وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم . طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد ذلك يطالع به ان شاء الله تعالى * هذا كتاب الكايفكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة واسمه بركري كور بن باسيل

﴿ ذكر مسير العساكر الي أطراف البلاد في طريق ملك الالمان ﴾

ولما تحقق السلطان وصول ملك الروم الي بلاد ابن لاون وقربه الي البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع فاتفق الرأي على ان العسكر بعضه يسير الي البلاد المتاخمة لطريق عسكر

العدو الواصل وان يقيم على منازلة العدو بباقي العسكر المنصور وكان أول من سار صاحب منبج وهو ناصر الدين بن تقي الدين ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرها ثم مجد الدين صاحب بعلبك ثم صاحب شيزر سابق الدين ثم الباروقية من جملة عسكر حلب ثم عسكر حماه . وسار ولده الملك الافضل مع مرض عرض له ثم بدر الدين شحنة دمشق مع مرض عرض له أيضاً وسار بعد ذلك ولده الملك الظاهر الى حلب لابانة الطريق وكشفاً لأخباره وحفظاً لما يليه من البلاد وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدير أمر العدو المجتاز * ولما سارت هذد العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها فأمر رحمه الله الملك العادل ان ينتقل الى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة وكان عماد الدين زنكي في طرف اليسرة * ووقع في العسكر مرض عظيم فرض مظفر الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظاهر وشفي ومرض خلق كثير من الاكابر وغيرهم الا أن المرض كان سليماً بحمد الله وكان المرض عند العدو اكثر وأعظم وكان مقروناً بموتان عظيم وأقام السلطان مصابراً على ذلك مرابطاً للعدو

﴿ ذكر تمام خبر ملك الالمان ﴾

وذلك ان ولده الذي قام مقامه مرض مرضاً عظيماً أقام بسببه بموضع من بلاد ابن لاون وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعون داوياً وجهاز عسكره نحو انطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ثم ان الفرقة الاولى اجتازت تحت قلعة بفراس يقدمها كند عظيم عندهم وان عسكر بفراس مع قلته أخذ منهم مئتي رجل قهراً ونهبوا وكبت جزؤ منهم بالضعف العظيم والمرض

الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات * ولما اتصل هذا الخبر بالنواب في البلاد الشامية أنفذوا اليهم عسكريا يكشف أخبارهم فوق العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوقة فأغاروا عليهم غارة عظيمة وقتلوا وأسروا وكان مقدار ما أخذوه وقتلوه على ما ذكره المخبرون في الكتب زهاء خمسمائة نفس * ولقد حضرت رسالة رسول ثان من كبغا الفرس بين يدي السلطان وهو يذكر خبرهم ويقول هم عدد كثير لكنهم ضعاف قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمر وخيل ضعيفة قال ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لا اعتبرهم فمير منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رحا الا النادر فسألتهم عن ذلك فقالوا أقمنا بمرج وخم أياما فقل زادنا وأحطابنا وأوفدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم واحتجنا الى الخيل فذبحناها واكلناها وأوقدنا الرماح والعدد لاعتواز الحطب . واما الكند الذي وصل الي انطاكية في مقدمة العسكر فانه مات وذكر ان ابن لاون لما أحس منهم بذلك الضعف طمع فيهم حتي انه عزم على أخذ مال الملك لارضه وضعفه وقلة جمعه الذي تخلف معه وأن البرنس صاحب انطاكية لما أحس منهم بذلك ارسل الى ملك الالمان التقطه الي انطاكية طمعا في أن يموت عنده ويأخذ ماله ولم تزل اخبارهم تتواتر بالضعف والمرض الى أن وقعت وقعة العادل على طرف البحر

﴿ ذكر الوقعة المادية ﴾

ولما كان يوم الاربعاء العشرون من جمادى الآخرة علم عدو الله ان العساكر قد تفرقت وان الميمنة قد خفت لان معظم من سافر كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو فاجمعوا رأيهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بثمة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة وتلاعبت بهم آمالهم فخرجوا ظهيرة

النهار وامتدوا ميمنة وميسرة وقلبا وانبثوا في الارض وكانوا عددا عظيما واستخفوا طرف الميمنة وكان فيها نخيم الملك العادل فلما بصر الناس بهم قد خرجوا في تعبئة القتال صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها وركب السلطان ونادي مناديه يا للاسلام وركبت الجيوش وطلبت الاطلاب (ولقد) رأته رحمه الله قد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه والناس لم يستم ركبهم وهو كالفاقة ولدها . الثاكلة واحدها . ثم ضرب الكؤوس واجابته كؤوس الامراء من اماكنها وركب الناس * واما الافرنج فانهم سارعوا في القصد الي الميمنة حتي وصلوا الي خيمة الملك العادل ودخلوا في طاقه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا الي خيمة الخاص وأخذوا من شراب خاناتها شيئا * واما الملك العادل فانه لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته واستركب من يليه من الميمنة كاطواشي قايماز النجمي ومن يجري مجراه من أسود الاسلام ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم ويستغلوا في النهب وكان كما ظن فانهم عاثت أيديهم في الخيام والاقمشة والقواكه والمطاعم فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه وحمل حملته من كان يليه من الميمنة واتصل الأمر بجميع الميمنة حتي وصل الصائح الي عسكر الموصل وهجوا على العدو هجمة الاسود على فريستها وامكنهم الله منهم ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين . وعلى اعقابهم ناكضين . وسيف الله فيهم يلتقط الارواح من الاشباح . ويفصل بين الاجساد والرؤوس . ويفرق بين الابدان والنفوس . ولما بصر السلطان باصطلاء الحرب قد ارتفع مما يلي خيام أخيه ثارت في قلبه نار الاشفاق وحركت الحمية اخوته * وانهدمت

لرغبة في نصره دين الله والخوف على أوليائه عزيزته * وصاح صائحهم في
الناس يا للاسلام وابطال الموحدين هذا عدو الله قد أمكن الله منه وقد
داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه فكان من المبادرين الى اجابة دعوته
جماعة من مماليكه وخاصته وحلقته ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء
الدين ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي وتتابعت العساكر وتجاوبت
الابطال ووقف هو رحمه الله في القلب خشية ان يستضعف العدو القلب
بحكم ما انفذ منه من العساكر فينال غرضاً فتواصلت العساكر واتصل
الضرب وقامت سوق الحرب فلم يكن الا ساعة حتى رأيت القوم صرعى
كانهم أمجاز نخل خاوية وامتدوا مطروحين من خيام الملك العادل الى خيامهم
أولهم في الخيم الاسلامية وآخرهم في خيم العدو صرعى على التلول والوهاد
وشربت السيوف من دماهم حتى رويت * وأكأت أسد الوغي بأسنان
الظفر منهم حتى شبت * وأظهر الله كلمته * وحقق لعبده نصرته * وكان مقدار
ما امتد فيه القتلي فيما بين الخيامين فرسخا وربما زاد على ذلك ولم ينج من
القوم الا النادر * ولقد خضت في تلك الدماء بداتي واجتهدت في أن أعدهم
فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقتهم وشاهدت فيهم امرأتين متقولتين
وحكي لي من شاهد أربعة نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان وأسر من الرجال
في ذلك اليوم نفر يسير فان السلطان كان أمر الناس أن لا يستبقوا أحدا
هذا كله في الميمنة وبعض القلب وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم الا وقد
نجز الامر وقضى القضاء على العدو ما بين الظهر والعصر فان العدو
ظهر في قائم الظهيرة وانفصلت الحرب بعد صلاة العصر وانكسر القوم حتى
دخلت طائفة من المسلمين وراءهم الي خيمهم على ما قيل ولم يفقد من

المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين * ولما أحس جند الله بعكاجي من الوقعة فانهم كانوا يشاهدون الوقعة من أعالي السور خرجوا الى مخيم العدو وجرت بينهم مقبلة عظيمة وكانت النصرة للمسلمين بحيث هجموا خيام العدو ونهبوا منها جمعاً من النسوان والاقمشة حتي القدور فيها الطعام ووصل كتاب من المدينة يخبر بذلك وكان يوماً على الكافرين عسيراً. واختلف الناس في عدد القتلى منهم فذكر قوم انهم ثمانية آلاف. ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف اولها في خيم العادل وآخرها في خيم العدو. ولقد لقيت انساناً جندياً عاقلاً جندياً يسعى بين صفوف القتلى ويعدهم فقلت له كم عددت فقال لي هاهنا أربعة آلاف ونيف وستون قتيلاً وكان قد عد صنين وهو في الصف الثالث لكن ما مضى من الصفوف كان اكثر عدداً من الباقي وانجلي يوم الاربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الاسلام. ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرون من جمادي المذكورة ورد في عصره نجاب من حلب له خمسة أيام يتضمن كتابه ان جماعة عظيمة من العدو الشمالي خرجوا نهب أطراف البلاد الاسلامية ونهض العسكر الاسلامي من حلب اليهم وأخذ عليهم الطريق ولم ينج منهم الا من شاء الله وكان وقع هذا الخير عقيب هذه الوقعة المباركة وقعا عظيماً وضربت البشائر ولم ير صبيحة لتلك العروس أحسن من هذه الصبيحة * وجاءنا بقية ذلك اليوم من الزك قايماز الحرائي وذكر ان العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل اليهم لسمع منه حديثاً في سؤال الصلح لضعف حل بهم ولم يزل عدو الله من حينه مكسور الجناح من الجانبين حتى وصلهم كنديقال له كندهري *



﴿ ذكر وصول الكندهرى ﴾

وهذا المذكور من ملوكهم وأعيانهم وصل في البحر في مراكب عدة ومعه من الاموال والذخائر والميرة والاسلحة والرجال عدد عظيم فقوى بوصولهم عزمهم واشتد أزرهم وحدتهم نفوسهم بطلب العسكر الاسلامي المنصور ليلاً وكثر ذلك الحديث على السنة المستأمنين والجواسيس فجمع السلطان الامراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعل فكان آخر الرأي انهم يوسعون الحلقة ويتأخرون عن العدو رجاء أن يخرج العدو ويبعد عن خيمه فيمكن الله منهم ووافقهم السلطان على ذلك وأوقفه الله في قلبه فرحل الى جبل الحروبة بالعساكر بأسرها وذلك في السابع والعشرين من جمادي الاخرى وترك بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النوبة. هذا والكتب متواصلة من عكا ومنا إليها على أجنحة الطيور وأيدي السياح والمراكب اللطاف تخرج ليلاً وتدخل سرقة من العدو. هذا وأخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة بقلة خيله وعدده وما قد عراهم من الموت والمرض وانهم قد اجتمعوا بانطاكية وانهم قد بقوا رجالة وأن أصحابنا عسكر حلب يتخطفون حشاشتهم وعلاقتهم ومن يخرج منهم

﴿ ذكر كتاب وصل من قسطنطينية يسر الله فتحها ﴾

وكان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة وكان وصل منه رسول الى الباب السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسة في جواب رسول كان أنفذه السلطان اليه بعد تقرير القواعد واقامة

قانون الخطبة في جامع قسطنطينية فضى الرسول وأقام الخطبة ولقي احتراماً عظيماً واكراماً زائداً وكان قد انفذ معه في المراكب الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الاسلام شاهده جمع كثير من التجار ورق الخطيب المنبر واجتمع اليه المسلمون المقيمون بها والتجار واقام الدعوة الاسلامية العباسية ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك فاقام مدة .واقدم شهادته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ أحسن ما يفرض ان يكون من صور المشايخ وعليه زيهم الذي يختص بهم ومعه كتاب وتذكرة والكتاب محتوم بذهب ولما مات وصل الي ملك قسطنطينية خبر وفاته فانفذ هذا الرسول في تمة ذلك ووصل معه الكتاب في جواب ذلك * وصورة ما نسر من الكتاب الواصل معه ووصفه انه كان كتاباً مدرجاً عرضاً وهو دون عرض كتاب بغداد مترجماً ظاهره وباطنه بسطرين بينهما فرجة وضع فيها الحتم والحتم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع على ختمه صورة ملك وزن الذهب خمسة عشر دينارا مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته

« من ايساكيوس » الملك المؤمن بالمسيح الاله المتوج من الله المنصور العالي أبداً افقوس المدبر من الله القاهر الذي لا يغلب ضابط الروم بذاته انكلوس الي النسيب سلطان مصر صلاح الدين والمحبة والمودة . قد وصل خط نسبك الذي أنفذت الي ملكي وقرأناه وعلمنا منه ان رسولنا توفي وحزننا عليه حيث انه توفي في بلد غريب وما قدر ان يتم كل مارسم له ملكي وأمره ان يتحدث به مع نسبك ويقول في حضرتك ولا بد لنسبتك ان تهتم بانفاذ رسول الي ملكي مع رسولي المتوفى والتماش الذي خلفه ويوجد بعد موته

لنعطيه أولاده وأقاربه وما اظن انه يسمع من نسبتك أخباراً ودية وانه قد سافر في بلادي الالمات ولاعجب فان الاعداء يرجفون باشياء مكذوبة على قدر أغراضهم ولو تشهى أن تسمع الحق فانهم قد تأذوا وتعبوا كثيراً أكثر مما أودى فلا حو بلادك وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرجال ومات منهم وقتلوا وبالشدّة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادى وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون الي بلادك فان وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كبيرة لا ينفعون جنسهم ولا يضررون نسبتك . وبعد ذلك كيف نسيت الذى بينى وبينك وكيف ما عرفت للملكى شيئاً من المقاصد والمهمات . ما ربح ملكي من محبتك الاعداءة الافرنج وجنسهم * فوقف رحمه الله على هذه الترجمة واكرم الرسول وأحسن مثواه . وكان شيخاً حسن الخلق نبيها عارفاً بالعربية والرومية والافرنجية * ثم ان الافرنج شدوا في حصار البلد وضايقوه لما قد حدث لهم من القوّة بوصول الكندهرى فانه وصل على ما ذكر والله أعلم في عشرة آلاف مقاتل ووصلتهم نجدة أخرى في البحر قويت بها قلوبهم ونازلوا البلد بالقتال

﴿ ذكر حريق المنجنيقات ﴾

وذلك أن العدو لما أحس في نفسه بقوته بسبب توالى النجديات عليهم اشتد طمعهم في البلد وركبوا عليه المنجنيقات من كل جانب وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل رميها ليلاً ولا نهاراً وذلك في أثناء رجب . ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو وتعلق طمعهم بهم حركتهم النخوة الاسلامية وكان مقدموه حينئذ اما والى البلد وحارسه فالامير الكبير بهاء الدين قراقوش * واما مقدم العسكر فالامير الكبير الاسفهلارحسام الدين

أبو الهيجاء وكان رجلاً ذا كرم وشجاعة وتقدم في عشيرته * ومضاه في عزيمته
 فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون إلى العدو فارسهم وراجلهم على غرة وغفلة
 منهم ففعلوا ذلك وفتحت الأبواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب ولم
 يشعر العدو إلا والسيف فيهم حاكم عادل * وسهم تدر الله وقضائه فيهم نافذ
 نازل * وهجم الإسلام على الكفر في منازلهم * وأخذ بناصية مناضله ورأس
 مقاتله * ولما ولج المسلمون لحيام العدو ذهلوا عن المنجنقات وحياطها
 وحراستها * وحفظها وسياستها * فوصات شهب الزرايين المقدوفة * وجاءت
 عوائد الله في نصرته دينه المألوفة * فلم تكن ساعة حتى اضطربت فيها النيران
 * وتحرق منها بيدها ماشيده الأعداء في المدة الطويلة في أقرب آن * وقتل
 من العدو سبعون فارساً وأسر خلق عظيم وكان من جملة الأسرى رجل
 مذكور منهم ظفربه واحد من آحاد الناس ولم يعلم بمكانته * ولما انفصل الحرب
 سأل الأفرنج عنه هل هو حي أم لا فعرف الذي هو عنده عند سؤالهم أنه
 رجل كبير فيهم وخاف أن يغلب عليه ويرد عليهم بنوع مصانعة أو على وجه
 من الوجوه فسارع وقتله وبذل الأفرنج فيه أموالاً كثيرة ولم يزالوا يشتدون في
 طلبه ويحرصون عليه حتى رثت لهم جثته فضربوا بنفوسهم الأرض وحثوا
 على رؤوسهم التراب ووقعت عليهم بسبب ذلك خدمة عظيمة وكتبوا أمره ولم
 يظهر وأمن كان واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم وهجم عليهم العرب من
 كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون إلى ليلة نصف شعبان وكان
 الكندهرى قد أنفق على منجنق كبير عظيم الشكل على ما نقل الجواسيس
 والمستأمنون ألفاً وخمسمائة دينار وأعد له ليقدمه إلى البلد ومنع من حريقه في
 ذلك اليوم كونه بعيداً عن البلد لم يقدم بعد إليه * ولما كانت الليلة المباركة

المدكورة خرج الزرقاين والمقاتلة تحفظهم من كل جانب والله يكلاهم فساروا من تحت ستر الله حتى أتوا المنجنيق المذكور وأضرمو فيه النار فاحترق من ساعته ووقع الصياح من الطائفتين وذهل العدو فانه كان بعيداً من البلد وخافوا ان يكونوا قد أحيط بهم من الجوانب وكان نصراً من عند الله واحرق بلهيبه منجنيقاً لطيفاً الى جانبه

﴿ ذكر الحيلة وادخال عكة بطسة عمرها وأودعتها أربعاً ﴾

﴿ غرارة من القمح ووضع فيها الجبن والبصل ﴾

﴿ والغنم وغير ذلك من الميرة ﴾

وكان الافرنج خذلهم الله قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين وكانت قد اشتدت حاجة من فيها الى الطعام والميرة فركب في بطسة يروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزى الافرنج حتى حلقوا الحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث تري من بعد وعلقوا الصلبان وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم نراكم قاصدين البلد واعتقدوا انهم منهم فقالوا أولم تكونوا قد أخذتم البلد فقالوا لم نأخذ البلد بعد فقالوا نحن نرد القلوع الى العسكر وقد أتى بطسة أخرى في هوائنا فاندروهم حتى يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة افرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدة العسكر فنظروا فراؤها فقصدها ينذرونها فاشتدت البطسة الاسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت والله الحمد . وكان فرحا عظيما فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلاد وكان

ذلك في العشر الاواخر من رجب

﴿ ذكر قصة العوام عيسى ﴾

ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها ان عواما مسلما يقال له عيسى وصل الى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا على غرة من العدو وكان يفوص ويخرج من الجانب الآخر من مرآكب العدو وكان ذات ليلة شدة على وسطه ثلاثة اكياس فيها ألف دينار وكتب للمسكر وعام في البحر فجري عليه أمر أهلكه وأبطأ خبره عنا . وكانت عادته اذا دخل البلد أطار طيراً عرفنا بوصوله فأبطأ الطير فاستشعرنا هلاكه . ولما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في البلد اذا هو قد قذف شيئاً غريباً فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب وكان الذهب نفقة للمجاهدين فما رؤى من أدي الامانة في حال حياته وقد ردها في مماته الا هذا الرجل وكان ذلك في العشر الآخر من رجب أيضاً

﴿ ذكر حريق المنجنيقات ﴾

وذلك ان العدو كان نصب على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور وان حجارها تواترت حتى أثرت في السور أثراً بيناً وخيف من غائلاتها فأخذ سهام من سهام الجرح العظيم فأحرق نصلهما حتى بقيا كالشعلة من النار ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه واجتهد العدو في اطفائهما فلم يقدر على ذلك وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالاً عظيماً واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته واشتد نارهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتمل في اطفائهما وكان يوماً عظيماً اشتد فيه فرح المسلمين وساءت عاقبة الكافرين

﴿ ذكر تمام حديث ملك الالمان والحيلة التي عملها الماركيس ﴾

ولما استقرّ قدم ملك الالمان في انطاكية أخذها من صاحبها وحكم فيها وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره فأخذها منه غيلة وخديعة وأودعها خزائنه وسار عنها في الخامس والشرين من رجب متوجهاً نحو عكا في جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية حتى الى طرابلس وكان قد سار اليه من معسكر الافرنج يلتقيه الماركيس صاحب صور وكان من أعظمهم حيلة وأشدّهم بأساً وهو الاصل في تهيج الجموع من وراء البحر * وذلك انه صور القدس في ورقة وصور فيه صورة القمامة التي يحجون اليها ويعظمون شأنها وفيه قبة قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم وذلك القبر هو أصل حجهم وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم وصور على القبر فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه وقد وطئ قبر المسيح وبالفرس على القبر وأبدي هذه الصورة وراء البحر في الاسواق والجامع والقسوس يحملونها ورؤسهم مكشوفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور وللصور عمل في قلوبهم فانها أصل دينهم فهاج بذلك خلق لا يحصى عددهم الا الله وكان من جملتهم ملك الالمان وجنوده فلقبهم الماركيس لكونه أصلاً في استدعائهم الي هذه الواقعة فلما اتصل به قوى قلبه ونصره بالطرق وسلك به الساحل خوفاً من انه اذا أتى على بلاد حلب وحماة نار لهم المسلمون من كل جانب وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب. ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم فان الملك المظفر قصدهم بعساكره وجمع لهم جموعاً وهجم عليهم هجوماً عظيماً أخذ فيه من أطراف عساكره وكان قد لحقهم باوائل مسكره ولو لحقهم الملك الظاهر بعساكره لقضى

عليهم ولكن لكل أجل كتاب واختلف حزر الناس لهم . ولقد وقفت على كتب بعض المخبرين بالحرب فقد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد ان كانوا قد خرجوا على ما ذكر فانظر الى صنع الله مع أعدائه * ولقد وقفت على بعض الكتب فذكر فيه انهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا في أعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت واتزع لهما ولم يبق فيها الا العظام من شدة الجوع ولم يزلوا سائرين وأيدى المسلمين تخطفهم من حولهم نهبا وقتلا وأسرا حتى أتوا طرابلس ووصل خبر وصوله بكرة الثلاثاء ثامن شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة هذا والسلطان ثابت الجاش راسخ القدم لا يردده ذلك عن حراسة عكا والحماية لها ومراصدة العسكر النازل بها وشن الغارات عليها والهجوم عليهم في كل وقت مفوضا أمره الى الله معتمدا عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس مواصلا يسره من يفد اليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والادباء * ولقد كنت اذا بلغني هذا الخبر تأثرت حتى دخلت عليه واجد منه من قوة الله وشدة البأس ما يشرح صدري واتيقن معه نصرة الاسلام وأهله

﴿ ذكر وصول البطس من مصر ﴾

ولما كان العشر الاوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد والمقدم على الاسطول والحاجب لؤلؤ يذكر ان السلطان انه لم يبق بالبلد ميرة الا قدر يكفي الي ليلة النصف من شعبان لا غير فأمرها يوسف في نفسه ولم يبد لها لخاص ولالعام خشية الشيوع والبلوغ الى العدو فتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادم والمير وجميع ما يحتاج اليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك

طول الشتاء واقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تنوي النوية بها الريح حتي ساروا بالريح التي تحملها الي نحو عكا ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا الي عكا ليلة النصف من شعبان المذكور وقد فني الزاد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم وخرج عليها اسطول العدو يقاتلها والمساكر الاسلاميه تشهد ذلك من الساحل والناس في تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤوسهم يتهلون الى الله تعالى في القضاء بتسليمها الي البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الشكلي يشاهد القتال ويدعو ربه بنصره وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره وفي قلبه ما في قلبه والله يثبتته ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح يشتد والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا سالمين الي ميناء البلد وتلقاهم أهل عكا تاتي الامطار عن جذب وامتاروا ما فيها وكانت ليلة بليال

﴿ ذكر محاصرة برج الذباب ﴾

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان جهز العدو بطسا متعددة لمحاصرة برج الذباب وهو برج في وسط البحر مبنى على الصخر على باب ميناء يحرس به المينا ومتي عبره المراكب أمن غائلته العدو فأراد العدو أخذه ليقب الميناء بحكمه ويمنع الدخول اليه بشيء من البطس فتنقطع الميرة عن البلد فجعلوا على صواري البطس برجا وملاؤه حطبا على انهم يسرون البطس فاذا قاربت برج الذباب ولاصقته احرقوا البرج الذي على الصاري والصقوه ببرج الذباب ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه وجعلوا في البطسة وقودا كثيرا حتى يلقى في البرج اذا اشتعلت النار فيه وعبوا بطسة ثانية

وملئوها حطباً ووقوداً على أنهم يدفعون بها الي ان تدخل بين البطس
الاسلامية ثم يلبونها فتحرق البطس الاسلامية ويهلك ما فيها من الميرة
وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يحصل لهم نشاب ولا
شيء من آلات السلاح حتي اذا أحرقوا ما أرادوا احرقه دخلوا تحت ذلك
القبو فأمنوا وقدموا البطسة نحو البرج المذكور وكان طمعهم يشتد حيث
كان الهواء مصعدا لهم فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا أن يحرقوا بطس المسلمين بها
والبرج الذي أرادوا ان يحرقوا به من على برج الذباب فاوقدوا النار وضربوا
فيها النفط انعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالي وأراد واشتعلت البطسة
التي كان بها باسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان فيها من
المقاتلة الا من شاء الله واخترقت البطسة التي كانت ممددة لاجراق بطسنا
ووثبت أصحابنا عليها فاخذوها اليهم * وأما البطسة التي كانت فيها القبو فانهم
انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيما فانقلبت
وهلك جميع من كان بها لانهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها
وكان ذلك من أعظم آيات الله وأندر العجائب في نصره دين الله * وكان
يوما مشهودا

﴿ ذكر وصول الالمان الي عسكرهم المخدول ﴾

عدنا الي حديث ملك الالمان وذلك أنه اقام بطرابلس حتى استجم
عسكره وأرسل الي النازلين على عكا يخبرهم بقدمه اليهم وقد حموا من
ذلك لان المركيس صاحب صور هورب مشورته وصاحب دولته * وكان
الملك جفري وهو ملك الساحل بالعسكر هو الذي يرجع اليه في الامور
فهم انه مع قدوم الألماني لا يبقى له حكم * ولما كان العشر الآخر من شعبان

ازمع رأيه على المسير في البحر لعلمه أنه ان لم يركب البحر نكب وأخذت عليه الطريق والمضائق فآذوا المراكب وأنفذت اليه من كل جانب ونزل فيها هو وعسكره وخيلهم وعدتهم وساروا يريدون المسكر فلم تمض الا ساعة من النهار حتى قامت عليهم ريح عاصف وثار عليهم الموج من كل مكان واشرفوا على الهلاك وهلك منهم ثلاثة مراكب حمالة وعاد الباقيون يرصدون هواء طيباً فاقاموا أياما حتى طابت لهم الرياح وصاروا حتى أتوا صور فاقام الماركيس والالمانى بها وأنفذوا بقية المساكر الى المعسكر النازل عكا واقاما بصور الى ليلة السادس من رمضان وسار الالمانى وحده في البحر حتى وصل معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم في نفر يسير * هكذا أخبر الجواسيس والمستأنون عنهم * ولقد كان لقدمه وقع عظيم من الطائفتين واقام أياما واراد أن يظهر لمجيئه أثر فوبخ القوم على طول مقامهم وحسن في رأيه ان يضرب مصاف مع المسلمين فخوفوه من الاقدام على هذا الامر وعاقبته فقال لا بد من الخروج على اليزك ليدوق قتال القوم ويعرف مراسهم ويتبصر بامرهم فليس الخبر كالعيان فخرج على اليزك الاسلامي وآتبه معظم الافرنج راجلهم وفارسهم وخرجوا حتى قطعوا الوهاد التي بين تلهم وتل العياضية وعلى تل العياضية خيم اليزك وهي نوبة الحلقة السلطانية المنصورة في ذلك اليوم فوقفوا في وجوههم وقاتلوهم واذاقوهم طم الموت وعرف السطان ذلك فركب من خيمته بخيلة وسار حتى أتى تل كيسان فلما رأى العدو المساكر الاسلامية صوبت نحوه سهام قصدها وآتته من كل جانب كقطع من الليل المظلم عاد ناكما على عقبه وقتل منهم وجرح خلق كثير والسيف يعمل فيهم من أقتيتهم وهم هاربون حتى وصلوا الخيم غروب الشمس وهو لا يعتقد سلامة نفسه

من شدة خوفه وفصل الليل بين الطائفتين وقتل من المسلمين اثنان وجرح جماعة كثيرة وكانت الكسرة على أعداء الله * ولما عرف ملك الالمان ما جرى عليه وعلى أصحابه من اليك الذي هو شذمة من المسكر وهو جزؤ من كل رأي ان يرجع الى قتال البلد ويشغل بمضايقته فاتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ما هال الناظر اليه من شدة الخوف على البلد واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات وخيف منها عليه فأحدثوا آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل وفيها المقاتلة حتى ينطح بها الصور ولها رأس عظيم برقة شديدة من حديد وهي تسمى كبشا ينطح بها الصور بشدة عظيمة لانه يجرها خلق عظيم فهدمه بتكرار نطحها * وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال السحب لذلك الآن رأسها محدد على شكل السكة التي يحرث بها ورأس البرج مدور وهذا يهدم بثقله وتلك تهدم بمحدثها وثقلها وهي تسمى سنورا . ومن الستائر والسلام الكبار الهائلة . وأعدوا في البحر بطسة هائلة وضعوا فيها برجا بخرطوم اذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقا الى المكان الذي ينقلب عليه تمشي عليه المقاتلة وعزموا على تقريبه الى برج الذباب ليأخذوه به

ذكر حريق برج الكبش وغيره من الآلات ﴿

وذلك أن العدو لما رأى آلاته قد تمت واستكملت شرع في الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب وأهل البلد كلما رأوا ذلك اشتدت عزائمهم في نصره دين الله وقويت قلوبهم على المصابرة * ولما كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة وهي الذي قدمت فيه المساكر من الشام

في أحسن زي واجمل ترتيب واكمل عدة مع ولده صاحب حلب وسابق الدين صاحب شيزر ومجد الدين صاحب بعلبك وكان السلطان الثالث مزاجه الكريم بحمي صفراوية فركب في ذلك اليوم وكان عيداً من وجوه متعددة وفي ذلك اليوم زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى عددهم الا الله فأهملهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه وذوو الآراء المثقفة من مقدمي المسلمين حتي نشبت مخالب أطعمهم في البلد وسحبوا آلاتهم المذكورة حتي قاربوا أن يلصقوها بالسور وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة واطلقوا عليهم سهام الجروح وأحجار المنجنيق واقواس الرمي والنيران وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد وفتحوا الابواب وباعوا نفوسهم لخالقها وبارئها * ورضوا بالصفقة الموعود بها وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم في الخنادق وواقع الله الرعب في قلب العدو وأعطى ظهره الهزيمة وأخذوا مشتدين هاربين * على أعقابهم ناكسين * يطلبون خيامهم والاحتماء بأسوارهم لكثرة ما شاهدوا وذاقوا من الجرح والقتل وبقي في الخندق خلق عظيم وقع فيهم السيف وعجل الله بأرواحهم الى النار * ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط وتمكنوا من حريقه فأحرقوه حريقاً شديماً وظهرت له لهبة عظيمة نحو السماء وارتفعت الاصوات بالتكبير والتهليل * والشكر للقوى الجليل * وسرت نار الكبش بقوتها الي السنور فاحترق وعلق المسلمون في الكبش الكلاب الحديدية المصنوعة في السلاسل فسحبوه وهو يشتعل حتي حصوله عندهم في البلد وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة ألقى الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام * وبلغنا من الزك ان وزن ما كان عليه من الحديد يبلغ مائة قنطار بالشامي والقنطار مائة رطل والرطل الشامي بالبغدادي

أربعة أرتال وربع رطل * ولقد أنفذ رأسه الى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكاه على مثل السفود الذي يكون بحجر المدار قيل انه ينطح به فيهدم ما يلاقيه * وكان ذلك من أحسن أيام الاسلام ووقع على العدو خذلان عظيم ورفعوا ما سلم من آلاتهم وسكنت حركاتهم التي ضيعوا فيها نفقاتهم وتحيرت أبصار حيلهم واستبشر السلطان بكرة ولده واستبارك بها حيث وجد النصر مقرونا بتقدمه مرة بعد أخرى * وثانية بعد أوليه * ولما كان يوم الاربعاء الخامس عشر رمضان خرج أصحابنا من الثغر المحروس في شوان على بفتة من العدو وضربوا البطسة المدة لاخذ برج الذباب بقوارير نبط فاحترقت وارتفع لهبها في البحر ارتفاعا عظيما وحزن الالمان لذلك حزنا شديداً وغشيته كآبة عظيمة ووقع عليهم خذلان عميم * ولما كان يوم الخميس السادس عشر الشهر وصل كتاب طائر في طي كتاب وصل من حماه قد طار به الطائر من حلب يذكر فيه ان البرنس صاحب انطاكية خرج بعسكره نحو القري الاسلامية التي تليه لشن الغارات عليها فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر فكمنت له الكمينات فلم يشعر بهم الا والسيف قد وقع فيهم فقتل منهم خمسة وسبعون نفرا وأسر خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيجا حتى اندفعوا ووسار الي بلده * وفي أثناء العشر الاوسط أقت الرنج بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدو فغنها المسلمون * وكان العدو قد ظفر منا بزورق فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول الى البلد فأخذوه فوق الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابر آله ولم تزل الاخبار بعد ذلك تتواصل على السنة الجوايس والمستأمنين ان العدو قد عزم على الخروج الى العسكر الاسلامي خروج مصاف ومنافسة

والتا مزارع السلطان بحمي صفاوية فاقتضي الحال تأخر العسكر الى جبل
سفر عم * وكان انتقاله تاسع عشر رمضان فنزل السلطان على أعلى الجبل ونزل
الناس على رؤس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة من الوحل * توفي
ذلك اليوم مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل مرضاً
شديداً بحمين مختلفي الاوقات واستأذن في الرواح فلم يؤذن له فاستأذن في
الانتقال الي الناصرة فأذن له في ذلك اليوم وأقام بالناصرة أياماً عديدة يمرض
نفسه فاشتد به المرض الي ليلة الثلاثاء ثامن عشري رمضان وتوفي رحمه الله
وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغر بتهوانم
السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده واستنزله عن بلاده التي كانت في يده
وهي حران والرها وما يتبعهما من البلاد والاعمال وضم اليه بلد شهرزور أيضاً
واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلاً مكانه
جابر الخليل غيبته وأقام مظفر الدين في نظرة قدوم تقي الدين * ولما كان
ضجاء نهار ثالث شوال قدم وقد عاد صحبة معز الدين

﴿ ذكر قصة معز الدين ﴾

وهذا معز الدين هو سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن
زنكي وهو صاحب الجزيرة اذ ذاك وكان من قصته انه حضر للجهاد وقد
ذكرت تاريخ وصوله وأنه أخذ منه الضجر والسامة والقلق بحيث ترددت
رسله ورقاعه الى السلطان في طلب الدستور والسلطان يمتدري اليه بأن رسل
المدو متكررة في معنى الصلح ولا يجوز أن تنفض المساكر حتى تميز على
ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب وهو لا يألو جهداً في طلب الدستور
الي ان كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين وحضر سحر ذلك

اليوم في باب الحيمة السلطانية فاستأذن في الدخول فاعتذر اليه بالتيث
كان قد عمري مزاج السلطان فلم يقبل العذر وكرر الاستئذان فأذن له
في الدخول فلما مثل بالخدمة استأذن في الرواح شفاهاً فذكر له السلطان
العذر بذلك وقال هذا وقت تقدم المساكر وتجمعها لا وقت تفرقها فانكب
على يده وقبلها كالمودع له ونهض من ساعته وسار وأمر أصحابه أن أقوا
القدور فيها الطعام وقلعوا الخيم وتبعوه فلما بلغ السلطان صنيعه أمر بإنشاء
مكاتبته اليه يقول فيها « انك أنت قصدت الانتماء اليّ ابتداء وراجعتني في ذلك
مراراً وأظهرت الحيفة على نفسك وقلبك وبلدك من أهلك فقبلتك
وأويتك ونصرتك وبسطت يدك في أهوال الناس ودمائهم واعراضهم
فانهدت اليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تتبه واتفق وقوع هذه الواقعة
للإسلام فدعوناك فأنت بسكر قد عرفته وعرفه الناس وأقت هذه المدة
المديدة وقلقت هذا القلق وتحركت هذه الحركة وانصرفت عن خير طيب
نفس وغير فصل حال مع العدو . فانظر لنفسك وأبصر من تنتمى اليه
غيري واحفظ نفسك ممن يقصدك فمالي الى جانبك الثنات» وسلم الكتاب
الى نجات فلحقه قريباً من طبرية فقرأ الكتاب ولم يلتفت وسار على وجهه
وكان الملك المظفر تقي الدين قد استدعى الى الغزاة بسبب حركة مظفر
الدين على ما سبق شرحه فلقية في الطريق في موضع يسمى عقبة ميق فراه
مخماً ولم ير عليه أمارات حسنة وسأله عن حاله فأخبره بأمره وتعب على
السلطان كيف لم يخلع عليه ولم يأذن له ففهم الملك المظفر انفصاله من غير
دستور من السلطان وانه على خلاف اختياره فقال له المصلحة لك أن ترجع
الى الخدمة وتلازم الى ان يأذن لك وأنت صبي ولم تعلم غائلة هذا الامر

فقال ما يمكنني الرجوع فقال ترجع عن غير يد فليس في الرواح على هذا الوجه لك راحة أصلاً فأصر على الرواح فخشي عليه وقال ترجع من غير اختيارك وكان تقي الدين شديد البأس مقدماً على الأمور ليس في عينه من أحد شيء فلما علم أنه قابضه ان لم يرجع باختياره رجع معه حتى أتى العسكر وخرج الملك العادل ونحن في خدمته الى لقاء الملك المظفر فوجدناه معه فدخل به على السلطان وسألاه الصفرح عنه وطلب ان يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه فأذن له فأقام في جواره الى حين ذهابه

﴿ ذكر طلب عماد الدين الدستور ﴾

وذلك ان عماد الدين زكى عم المذكور أُلح في طلب الدستور وشكا هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له والسلطان يعتذر اليه بان الرسل متواترة بيننا وبين العدو في الصلح وربما انتظم فينبغي أن يكون انتظامه بحضوركم فالرأي مشترك واستأذن في ان يحمل اليه خيام الشتاء فلم يفعل وان يحمل اليه نفقة فلم يفعل وتكررت منه الرسل الى السلطان في المعنى والسلطان يكرر الاعتذار * ولقد كنت بينهم في شيء من ذلك وكان عند عماد الدين من العزم على الرواح ما يجاوز كل وصف وعند السلطان من إمساكه الى ان يفصل أمر بيننا وبينهم ما لا يحد وآل الأمر الى ان يكتب عماد الدين بخطه ويطلب فيه الاذن في الرواح وتلين فيها وتخشن فأخذها السلطان وكتب في ظهرها بيده الكريمة * من ضيع مثلي من يده * فليت شعري ما استفاد * فوقف عماد الدين عليها وانقطعت مراجعته بالكلية

﴿ ذكر خروج العدو الى رأس الماء ﴾

وتواترت الاخبار بضعف العدو ووقوع الغلاء في بلادهم وعسكرهم حتى ان الغرارة من القمح بلغت في الخطاكية ستة وتسعين دينارا صورية ولا يزيدم ذلك الاصبيرا واصراراً وعناداً * ولما ضاق بهم الامر وعظم الغلاء وخرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدة الجوع عزموا على الخروج اليها وكان طعنهم بسبب مرض السلطان فظنوا انه لا يستطيع النهوض * وكان خروجهم يوم الاثنين حادي عشر شوال بخيلهم ورجلهم حاملين ازوادا وخياما الي الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تل الحجل لما كانوا نزولا عليه وأخذوا عليق أربعة أيام فاخبر رحمه الله بخروجهم على هذا الوجه فأمر اليك ان يتراجع من بين أيديهم الي تل كيسان وكان اليك على الميضية وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور وباتوا تلك الليلة واليكن حولهم جميع الليل فلما طلع الصبح جاء من اليك من أخبره بانهم قد تحركوا للركوب وكان قد أمر الثقل في أول الليل ان يسيروا الي الناصرة والقيون فرحل الثقل وبقى الناس وكنت في جملة من أقام في خدمته وأمر العسكر ان يركب يمنة ويدرة وقلبا تسمية القتال وركب هو وصاح الجلاويش بالناس فركبوا وسار حتى وقف على تل من جبال الحروبة وابتدأت الميمنة بالمسير فسارت حتى بلغ آخرها الجبل وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها النهر بقرب البحر فكان في الميمنة ولده الملك الافضل صاحب دمشق وولده الملك الظاهر صاحب حلب وولده الملك الظافر صاحب بصرى وولده عز الدين صاحب الموصل علاء الدين خرم شاه ثم أخوه في طرفها ويلييه قريبا منه حسام الدين لاجين والطواشي قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري وحسام الدين

بشاره صاحب بايئاس وبدر الدين دلدردم وجمع كثير من الامراء وكان في الميسرة
عماد الدين زنكي صاحب سنجار وابن أخيه معز الدين صاحب الجزيرة وفي
طرفها الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه وكان عماد الدين زنكي غالباً مع
الثقل لمرض كان ألم به وبقي عسكره وكان في الميسرة سيف الدين على المشطوب
وجميع المهرانية والهكارية وخشترين وغيرهم من الامراء الاكراد وفي القلب
الحلقة السلطانية . وتقدم السلطان ان يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش
وان يدوروا حول العسكر واليزك معهم وأخفي بعض الاطلاب وراء التلال
عساهم ان يجدوا غرة من العدو* ولم يزل عدو الله يسيرو الناس من جميع
جوانبه وهو سائر على شاطئ النهر من الجانب الشرقي حتى رأس العين وداروا
حوله حتى عبروا الجانب الغربي ونزلوا والقتال بتلقف منهم الابطال* ويصرع
منهم الرجال . وكان نزولهم على تل هناك وضربوا خيامهم هناك ممتدة منه الى النهر
وجرح منهم في ذلك اليوم خلق عظيم وقتل منهم أيضا جماعة وكانوا اذا جرح
واحد منهم حملوه او قتل دفنوه وهم سائرون حتى لا يبين قتيل ولا جريح
وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر وتراجعت العساكر الى مواطن المصابرة
ومواقف الحراسة وتقدم السلطان الى الميسرة ان تستدير بهم بحيث يقع آخرها
على البحر والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقي والجاليش يقاتلهم بقربهم
ويرميهم بالذشاب بحيث لا يقطع الذشاب عنهم أصلا وبات الناس تلك الليلة
على هذا المثال وسار هو رحمه الله ونحن في خدمته الى رأس جبل الخروبة
فنزل في خيمة لطيفة والناس حوله في خيم لطاف بمرأى من العدو واجتاز
العدو يتواصل ساعة فساعة الى الصبح . ولما كان يوم الاربعاء وصل من أخبر
أنهم تحركوا للركوب فركب هو ورتب الاطلاب وسار حتى أتى أقرب جبال

الحروبة اليهم بحيث يشاهد أحوالهم. وكان رحمه الله ملتاث المزاج ضئيف القوى قوي القلب ثم بعث الى العساكر وأمرها بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب وأمر الاطلاب أن تحيط بهم بحيث لا تكون قريبة ولا بعيدة لتكون وراء المقاتلة الي ان تضاحى النهار وسار العدو الى شاطئ النهر من الجانب الغربى يطلب جهة جهة والقتال يشتد عليهم من كل جانب الامن جانب النهر والتحم القتال فصرع منهم خلق عظيم وهم يدفون قتلاهم ويحملون جرحاهم وقد جعلوا رجالهم سورا لهم تضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لا يترك أحد يصل اليهم الا بالنشاب فانه كان يظهر اليهم كالجراد وخيالهم يسرون في وسطهم بحيث لم يظهر منهم أحد في ذلك اليوم أصلا والكوسات تخفق والبوقات تنعرو والاصوات بالتهليل والتكبير تملو وهذا السلطان يمد الجاليش بالاطلاب والعساكر التي عنده حتى لم يبق معه الا نفر يسير ونحن نشاهد الاحوال وعلم العدو مرتفع على عجلة هو منروس فيها وهي تسحب بالبغال وهم يذبون عن العلم وهو عال جدا كالمنارة خرقتة بياض ملمع بأحمر على شكل الصلبان ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهر قبالة جسر دعوق وقد أجهم العطش وأخذ منهم التعب وأثنهم الحراج واشتد الأمر بهم من شدة الحر ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالا شديدا وأعطوا الجهاد حقه وهجموا عليهم هجوما عظيما واستداروا بهم كالحلقة وهم لا يظهرن من رجالهم ولا يحملون فكان الفعل معظمه للحلقة في ذلك اليوم فانهم اذا توهم طعم الموت وجرح منهم جماعة كإبار الطويل فانه قام في تلك الحرب العظيمة اعظم مقام وجرح جراحات متعددة وهو مستمر على القتال وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة وهو من فرسان الاسلام

وشجمانه وله مقامات متعددة وجرح خلق كثير ولم تزل الناس حولهم حتى
 نزلوا ظهر نهار ذلك اليوم عند جسر دعوق وقطعوا الجسر وأخربوه خوفا
 من عبور الناس اليهم ورجع السلطان الي تل الخروبة وأقام عليهم يزكا
 يحرسهم وأخبارهم تتواتر حتي الصباح وعزم في تلك الليلة على كعبس
 بقيتهم وكتب الي البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوهم من ذلك الجانب
 فلم يصل من أهل البلد كتاب فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر
 الكتاب * ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر وصل من أخبر أن العدو
 على حركة الرحيل فركب السلطان ورتب الاطلاب وكف الناس عن القتال
 خشية أن يغتالرا فان العدو كان قد قرب من خيمه وأداروا الاطلاب في
 الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الي خيمه * وكان ممن
 خرج من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس وتخلف ابن ملك
 الالمان في الخيم مع جمع كثير منهم * ولما دخل العدو الي خيمهم كان لهم فيها
 اطلاب مستريجة فخرجت الي اليزك الاسلامي وحملت عليه ونشب القتال
 بين اليزك وبينهم وجري قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم
 وقتل من المسلمين ثلاثة نفر وقتل من العدو شخص كبير فيهم مقدم عليهم
 وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الي حافره وكان عليه لباس لم ير مثله
 وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم
 يوجد وعاد السلطان الي مخيمه وأعاد الثقل الي مكانه وعاد كل قوم الي
 منزلهم وعاد عماد الدين وقد أقلت حماه وبقي التياث مزاج السلطان وقد
 كان سبب سلامة هذه الطائفة مع كونه لا يقدر على مباشرة الأمر بنفسه
 ولقد رأيتة وهو يبكي في حال الحرب كيف لم يقدر على مخالطته ورأيتة وهو

بأمر أولاده واحداً بعد واحد بمكافحة الامر ومخالطة الحرب* ولقد سمعت منه وقائل يقول ان الوخم قد عظم في مرجعكا بحيث ان الموت قد كثر في الطائفتين ينشد متمثلاً*

اقتلاني ومالكاً* واقتلا مالكا معي

يريد بذلك اني قد رضيت ان أتلف أنا اذا تلف أعداء الله وحدث

بذلك قوة عظيمة في نفوس العسكر الاسلامي

﴿ ذكر وقعة الكمين ﴾

وفي الثاني والعشرين من شوال رأى السلطان ان يضع للعدو كميناً وقوى عزمه على ذلك فاخرج جمعا من كجاة العسكر وشجعانه وأبطاله وفرسانه وانتخبهم من خلق كثير وأمرهم ان يسيروا في الليل وبكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدو عنده كانت منزلة الملك العادل حين وقعت الوقعة المنسوبة اليه وان يظهر منهم للعدو نفر يسير وان يقصدوه في خيمه ويحركوه حتى اذا خرج انهزموا بين يديه نحو المسلمين ففعلوا ذلك وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلاً فكمنوا فيه . ولما تجلى نهار الثالث والعشرين خرج منهم نفر يسير على جيات من الخيل وساروا حتى أتوا تخيم العدو ورموهم بالنشاب وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر فانتخى لهم مقدار مائتي فارس وخرجوا اليهم شاكي السلاح على خيل جيات بعدة تامة وأسلحة كاملة وقصدوهم وليس معهم أحد راجل وداخلهم الطمع فيهم لقله عدتهم فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم ويقتلون حتى أتوا الكمين فثارت عند وصولهم الأبطال وصاحوا صيحة الرجل الواحد وهجموا عليه هجمة الأسود على فرانسها فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً ثم ولوا منهزمين فتمكن أولياء الله منهم وأوقعوا

فيهم ضربا بالسيف حتي أفنوا منهم جمعا عظيما واستسلم الباقون للاسر فأسروهم وأخذوا خيلهم وعددهم وجاء البشير الي العسكر الاسلامي فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير وركب السلطان يتلقي المجاهدين وسار وكنت في خدمته حتي أتى تل كيسان فلقينا أوائل القوم فوقف هناك يتلقي العائدين من المجاهدين والناس يتبركون بهم ويشكرونهم على حسن صنيعهم وهو يعتبر الاسرى ويتصفح أحوالهم . وكان ممن أسر مقدم عسكر الافرنسيس فانه كان قد انفذ نجدة قبل وصوله وأسر خازن الملك أيضا وعاد السلطان بعد تكامل الجماعة الي مخيمه فرحا مسرورا وأحضر الاسرى عنده وأمر مناديا ينادي من أسرا سيرا فليحضره فأحضر الناس أسراهم وكنت حاضر اذلك المجلس . ولقد أكرم المقدمين منهم وخلع عليهم وعلى مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاص وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جرحية فان انبرد كان شديداً . وكان قد أخذ منهم وأحضر لهم طعاما اكلوه وأمر لهم بخيمة تضرب قريبا من خيمته وكان يكارهم في كل وقت ويحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات وأمر بتنفيذهم وحملهم الي دمشق فحملوا مكرمين وأذن لهم في أن يرسلوا صاحبهم وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون اليه من الثياب وغيرها فعملوا ذلك وساروا الي دمشق

﴿ ذكر عود العسكر عن الجهاد ﴾

ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدو أن يضرب مصاف وطلب البلد وحصاره من شدة الامطار وتواترها أذن السلطان للمساكر في الدود الي بلادهم ليأخذوا نصيبا من الراحة وتجم خيولهم الي وقت العمل . وكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار لما كان عنده من القلق في طلب

الدستور . وكان مسيره خامس عشري شوال وسار عقيبته في ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة هذا بعد أن أفيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينم به على غيرهما . وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل في مستهل ذي القعدة مشرفاً مكرماً معه التحف والطرائف وتأخر الملك المظفر الي أن دخلت سنة سبع وثمانين وتأخر أيضاً الملك الظاهر وسار تاسع المحرم سنة سبع وثمانين وسار الملك المظفر في ثالث صفر ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الامراء والحلقة الخاصة . وفي أثناء ذي القعدة سنة ست وثمانين وفد عليه زلفتنار فتلقاه واكرم مشواه ووضع له طعاماً يوم قدومه وباسطه مباسطة عظيمة . وكانت حاجته أن يوقع له باعادة أملاك كانت في يده ثم انتزعت من أعمال نصيبين والخابور فوقع باعادتها الي يده واجراء الامر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهرة وخلع عليه وشرفه وسار فرحاً مسروراً شاكراً الأياديه

﴿ ذكر ارتحال السلطان لادخال البدل الي البلد ﴾

ولما هاج البحر وأمنت غائلة مراكب العدو ورفع ما كان له من الشواني في البحر الي البر اشتغل السلطان في ادخال البدل الي عكا وحمل البر والذخائر والنفقات والعدد اليها واخراج من كان بها من الامراء لعظم شكائهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً وكان مقدم البلد من البدل الداخل الامير سيف الدين على المشطوب دخل سادس عشر المحرم من شهور سنة سبع وثمانين وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان به من الامراء وأعيان الخلق وتقدم الي كل من دخل أن يصحب ميرة السنة وانتقل الملك

العادل بعسكره الي حيفا على شاطيء النهر وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب
فتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج اليه فاقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس
المير والذخائر لتلايتطرق اليها من العدو ومن يترضاها وكان مما دخل اليها سبع بطس
مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصات من مصر محملة وتقدم السلطان
بتعبيتها من مددة مديدة وكان دخولها ثاني ذى الحجة من السنة الحالية فانكسر
منها مركب على الصخر الذي هو قريب من الميناء فانقلب كل من في البلد من
المقالة لتلقي البطس . ولما علم العدو ذلك أخذوا غرتهم وزحفوا الي البلد
في جانب البرزخفة عظيمة وقاربوا الاسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم
السلم كما شاء الله تعالى وتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا
خائسين خاسرين * وأما البطس فان البحر هاجها جاء عظيما وضرب بعضها على
الصخر فهلكت وهلك جميع من كان فيها * قيل كان عددهم ستين نفرا وكان فيها
ميرة عظيمة لو سلمت كذبت البلد سنة كاملة وذلك بتقدير العزيز الليم ودخل
على المسلمين بذلك وهن عظيم واحرج السلطان بذلك حرجا عظيما فاستخلف
ذلك في سبيل الله تعالى وما عند الله خير وأبقي * وكان ذلك أول علامات
أخذ البلد والظفر به * ولما كانت ليلة السبت سابع ذى الحجة من السنة الحالية
قضى الله وقدر ان وقع من السور قطعة عظيمة ونقاها على الباشورة فهدمت
أيضا منها قطعة عظيمة وهي العلامة الثانية وقد أخذ العدو الطمع وهاج الزحف
هياجا عظيما وجاءوا الي البلد كقطع الليل المدلهم من كل جانب وثارت همم الناس
في البلد وقاتلوا العدو قتالا شديدا حتي ضرسوا وأيسوا من ان ينالوا خيرا
فوقفوا على سد موضع القطعة الواقعة وجعلوا من في البلد من البنائين والصناع
ووضعوهم في ذلك الموضع وحموهم بالنشاب والمناجيق فما مرت الا ليال يسيرة حتى

انتظمت وعاد بناؤها أحسن مما كان واقوى واتقن

﴿ ذكر الظفر بمراكب العدو ﴾

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا
للسلطان نحن نخوض البحر في براكيس وبطس الى العدو ويكون الكسب
بيننا وبين المسلمين فاذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا وهو المركب الصغير
فركبوا فيه وظفروا بمراكب للتجار من العدو وهي قاصدة الى عسكرهم
وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة فوقع عليها البركوس وقاتلوهم
حتى أخذوهم واكتسبوا منهم مالا عظيما وأسروهم وأحضروهم بين يدي
السلطان وذلك في ثالث عشر ذي الحجة من السنة المذكورة ولقد كنت حاضرا
ذلك المجلس وكان من جملة ما أحضروه مائدة فضة وعليها مكبة مخرمة من
فضة فاعطاهم السلطان الجميع ولم يأخذ منهم شيئا وفرح المسلمون بنصر الله
عليهم بأيديهم *

﴿ ذكر موت ابن ملك الالمان ﴾

وذلك ان العدو لما دخل الشتاء عليهم وتواترت الانداء واختلفت
الاهواء وخم المريج وخما عظيما وقع معه موتان عظيم وانضم الي ذلك الفلاء
الزائد وانسد عليهم البحر الذي كان يجيئهم منه الميرة من كل جانب وكان
يموت منهم كل يوم المائة والمئتان على ما قيل وقيل اكثر من ذلك * ومرض
ابن ملك الالمان مرضا عظيما وعرض له مع ذلك مرض الجوف فهلك به في
الذاني والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثمانين وحزن الافرنج عليه حزنا عظيما
واشملت له نيران هائلة بحيث لم يبق له خيمة الا واشعلت فيها الناران والثلاثة

بحيث بقي عسكرهم كله نار وفرح المسلمون بذلك بمثل ما حزن الكفار بفقده
وهلك منهم كبير يقال له الكند بالياط ومرض الكند هري وأشرف على الهلاك
* وفي الرابع والعشرين منه أخذ منهم بركوسان فيهما نيف وخمسون نرا
وفي الخامس والعشرين منه أخذ منهم أيضا بركوس وجميع ما فيه وكان من
جملة ما فيه ملوطة مكللة باللؤلؤ وهي من تفاصيل الملك وقيل كان في البركوس
ابن أخيه وأخذ أيضا

﴿ ذكر غارة أسد الدين ﴾

وهذا أسد الدين هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين
شيركوه الكبير وهو صاحب حمص * وكان من حديثه ان السلطان كان قد
رسم له أن يأخذ حذر من الافرنج بطرابلس ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين
والفلاحين في تلك الناحية وأنه قيل له ان افرنج طرابلس قد أخرجوا جشارهم
وخيلهم الي مرج هناك وابتقارهم ودوابهم وانه قد قرر مع عسكره قصدهم
نفرج على غرة منهم وهجم على جشارهم فأخذ منهم من الخيل أربعمئة راس
ومئة من البقر فهلك من الخيل أربعون وسلم الباقي وعاد الى البلد ولم يفقد
من أصحابه أحد ووصل الكتاب بذلك في رابع صفر من سنة سبع وثمانين

﴿ ذكر وقائع عدة في هذه السنة ﴾

وفي ثالث ربيع الاول كان الزك للحلقة السلطانية وخرج من العدو
اليهم خلق عظيم وجري بينهم وقعة شنيمة وقتل فيها من العدو جماعة وقتل
منهم رجل كبير على ما قيل ولم يفقد من المسلمين الا خادم للسلطان يسمى
فراقوش وكان شجاعا عظيما له وقعات عظيمة كثيرة استشهد في ذلك اليوم

* وفي تاسع الشهر بلغ السلطان أن العدو يخرج منه طائفة يتفصحون لبعدها عنهم فاقترض رأيهم أن أنفذ أخاه الملك العادل وفي خدمته خلق عظيم من العساكر الإسلامية وأمره أن يكمن للعدو وراء التل الذي كانت فيه الواقعة المعروفة به فسار هو وجمع كان من كبار أهله وأصحابه فكمن وراء تل العياضية وكان ممن كان معه من كبار أهله الملك المظفر تقي الدين وابنه ناصر الدين محمد والملك الأفضل ولده ومعه صغار أولاده الملك الأشرف محمد والملك المعظم طور انشاء والملك الصالح اسماعيل وكان من المعتمدين الفاضل والديوان وكنت في الصحبة في ذلك اليوم وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد وناوشوا العدو فلم يخرج في ذلك اليوم وكان قد وشى اليهم بحيلة الامراء الا ان ذلك اليوم لم ينفك الا بنوع نصر فانه وصل في اثنته خمسة وأربعون نفراً من الافرنج كانوا قد أخذوا في بيروت وسيروا الي السلطان ووصلوا في ذلك اليوم الى ذلك المكان * ولقد شاهدت منه رقعة قلب لم ير أعظم منها وذلك انه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن لم يبق في فيه ضرس ولم تبق له قوة الا مقدار تحرك لا غير فقال للترجمان قل له ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السن وكم من همنا الي بلادك فقال بلادي بني وبينها عدة أشهر * وأما مجيئي فانما كانت للحجج الي القمامة فرق له السلطان ومنّ عليه وأطلقه وأعادته راكبا على فرس الي عسكر العدو * ولقد طاب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير فلم يفعل فسألته عن سبب المنع وكنت حاجبهم بما طلبود فقال لثلايعتادوا من الصغر على سفك الدماء ويهون عليهم ذلك وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر * ولما أيس من خروج العدو عاد الي الخيم في عشية ذلك اليوم

﴿ ذكر وصول العساكر الاسلامية والملك افرنسيس ﴾

ومن ذلك الوقت انفتح الباب وطاب الزمان وجاء أو ان عود العساكر الي الجهاد من الطائفتين فكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر من أمراء الملك الظاهر وكان شيخاً كبيراً مذكوراً له وقائع ذا رأى حسن والسلطان يحترمه ويكرمه وله قدم صحبة * ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين نخرشاه وهو صاحب بلبك وتابعت بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل صوب * وأما عسكر العدو فانهم كانوا يتواعدون اليك ومن يقاربهم بقدم الملك الفرنسيس وكان عظيماً عندهم مقدماً محترماً من كبار ملوكهم تنقاد اليه العساكر بأسرها بحيث اذا حضر حكم على الجميع ولم يزالوا يتواعدون بقدمه حتي قدم في ست بطس تحمله وميرته وما يحتاج اليه من الخيل وخواص أصحابه وكان قدومه يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الاول من هذه السنة .

﴿ نادرة وبشارة ﴾

وكان قد صحبه من بلاده باز عظيم هائل الخلق أبيض اللون نادر الجنس ما رأيت بازياً أحسن منه وكان يميزه ويحبه حباً عظيماً فشذ الباز من يده وطار وهو يستجيبه ولا يجيبه حتي سقط على سور عكا فاصطاده أصحابنا وانفذوه الي السلطان وقد كان لقدومه روعة عظيمة واستبشار عظيم بالظفر به فتفاءل المسلمون بذلك وبذل الافرنج في الف دينار فلم يجابوا وقدم بعد ذلك كندفرند وكان مقدماً عظيماً عندهم مذكوراً فذكروا انه حاصر حماه وحارم في عام الرملة * ولما كان الثاني عشر من ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية ان

كان جماعة من المستأمنين قد أعطوا براكيس ليكبسوا عليها في البحر من العدو فاخذوها ونزلوا في جزيرة قبرص في عيدهم وقد اجتمع جمع كثير من أهل الجزيرة في بيعة قريبة من البحر وأنهم صلوا معهم صلاة العيد وأنهم لما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من البيعة من الرجال والنساء واخذوهم عن آخرهم حتى القس وحملوهم والقوهم في مراكزهم وساروا بهم حتى أتوا اللاذقية وكان من جملة ما كان فيها سبعة وعشرون امرأة واموال عظيمة فتقسموها فوصل الي كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة وقدم بعد ذلك بدر الدين شحنة دمشق في سابع عشر ربيع الآخر وهجم أصحابنا على غنم العدو فاخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأساً فركب في طلبها الرجل والفارس فلم يظفروا منها بشيء *

﴿ ذكر ملك الانكتار ﴾

وهذا ملك الانكتار شديد الباس بينهم عظيم الشجاعة قوي الهمة له وقعات عظيمة وله جسارة على الحرب وهو دون الفرنسيين عندهم في الملك والمنزلة لكنه اكثر مالأ منه وأشهر في الحرب والشجاعة * وكان من خبره أنه وصل الي جزيرة قبرص ولم ير ان يتجاوزها الا وان تكون له وفي حكمه فنازلها وقاتها فخرج اليه صاحبها وجمع له خلقاً عظيماً وقاتلهم قتالاً شديداً فأنفذ الانكتار الي عكا يستنجد اليه الملك جفري أخاه ومعه مائة وستون فارساً ليعينوه على مقصودد وبقيت الافرنج على عكا ينتظرون ما يكون من الطائفتين * وفي سلخ ربيع الآخر وصات كتب من بيروت انه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب وطرادة فيها خلق عظيم رجال ونساء وميرة وأخشاب وآلات وغير ذلك

وفيهما أربعون فارساً وكان ذلك فتحاً عظيماً استبشر به المسلمون * وفي رابع جمادي الاولى زحف العدو الى البلد ونصبوا عليه مناجيق سبعة ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم فاعلم السلطان العساكر بالزم على الرحيل الي مضايقة العدو ومقاربتة وأصبح على أهبة المسير الى العدو ورتب العساكر ثم أنفذ من كشف حال العدو وحال خنادقهم هل فيها كمين أم لا فنادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين فسار بنفسه في نفر يسير من مماليكه الي خنادقهم وصعد جبلا كان يعرف بتل المضول قريباً من العدو مشرفاً على خيمهم وشاهد المنجنيقات وما يعمل منها وما هو بطلان ثم عاد الي مخيمه وأنا في خدمته وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر قد أخذ من أمه سرقة *

﴿ ذكر قصة الرضيع ﴾

وذلك انه كان للمسلمين لصوص يدخلون الي خيام العدو فيسرقون منهم الرجال وكان من قصتهم انهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر وساروا به حتي أتوا الي خيمة السلطان وعرضوه عليه وكان كل ما يأخذونه يرضونه عليه ويمطيهم ما أخذوه * ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها الي ملوكهم فقالوا انه رحيم القلب وقد أذنا لك في الخروج فاخرجي واطلبيه منه فانه يردك عليك فخرجت تستغيث الي اليزك فاخبرتهم بواقعها فأطلقوها وانفذوها الي السلطان فلقيته وهو راكب وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم فبكت بكاء شديداً ومرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها ودمت عينه وأمر باحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق فارتده وأمر

بدفع ثمنه الي المشتري وأخذه منه ولم يزل واقفاً حتي أحضر الظليل وسلم اليها فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمته الي صدرها والناس ينظرون اليها ويبكون وأنا واقف في جملتهم فارضته ساعة ثم أمر بها فحلت علي فرس والحقت بعسكرهم مع طفلها فانظر الي هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر * اللهم انك خلقتة رحيماً فارحمه رحمة واسعة من عندك ياذا الجلال والاکرام . وانظر الي شهادة الاعداء له بالرافة والكرم شعر .

ومليحة شهدت لها ضراتها والحسن ليس لحقه من منكر .
وفي ذلك اليوم وصل ظهر الدين بن البلنكري وكان مقدماً عظيماً من أمراء الموصل وصل مفارقاً لهم يطلب خدمة السلطان ولما عاد السلطان الي مخيمه لم يلبث الا ساعة حتي وصله الخبر بتجديد الزحف فعاد وركب من ساعته نحو البلد وقد انفصل الحرب بدخول الليل من الطائفتين *

﴿ ذكر انتقال السلطان الي تل العياضية ﴾

ولما كانت صبيحة الثلاثاء تاسع جمادي الاولي بلغ السلطان ان الافرنج قد ضايقوا البلد وركبوا المناجيق فامر الجاويش أن صاح بالناس وركب لركوبه العسكر واجلهم وفارسهم حتي أتى الخروبة وقوي اليزك بتسيير جماعة من العسكر اليه فلم يخرج العدو واشتد زحفهم علي البلد فضايقهم رحمه الله مضايقة عظيمة وهجم عليهم في خنادقهم ولم يزل كذلك حتي عادوا عن الزحف ظهر نهار وعاد العدو الي خيمه وقد أيس من أمر البلد وعاد السلطان الي خيمة لطيفة ضربت له هناك يستظل فيها من الشمس فنزل بها لصلاة الظهر والاستراحة ساعة وقوي اليزك وامر الناس بالعود الي الخيم لأخذ جزء من الراحة وكنت في خدمته فبينما هو كذلك اذ وصل من اليزك من

أخبر ان القوم قد عادوا الي الزحف لما أجسوا بانصرافه عنهم. أشد ما كانوا
 أولافا من نبه الناس وأمر بالعود فتراجعت العساكر الى جهة العدو أطلابا
 أطلابا وأمر بالمبيت على أخذ لأمة الحرب وأقام هو هناك على عزم المبيت
 وفارقت خدمته آخر نهار الثلاثاء وعدت الي الحيم وبات هو وجميع العسكر
 على تعبئة القتال طول الليل واصر طائفة منهم على مضايقة العدو ثم سار العسكر
 أواخر ليلة الاربعاء عاشر الشهر الي تل العياضية قبالة العدو وضربت له
 عايه خيمة لطينة ونازل العدو في ذلك اليوم اجمع بالقتال الشديد والضرب
 المبرح المتواتر الذي لا يفتر شغلا لهم عن الزحف وهو يدور بين الاطلاب
 ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه * ولما رأى العدو تلك المنازلة الهائلة خافوا من
 الهجوم عليهم في خيمهم فرجعوا عن الزحف واشتغلوا بحفظ الخنادق وحراسة
 الحيم * ولما رأى فتورهم عن الزحف عاد الي العياضية ورتب على خنادقهم من
 يخبره بحالهم ساعة فساعة اذا رجعوا الي الزحف كل ذلك دفعا للعدو عن
 مضايقة البلد والزحف عليه *

﴿ ذكر الشروع في مضايقة البلد ﴾

ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون
 فيه موتى دوابهم بأسرها وآل الامر الي ان كانوا يلتمون فيه موتاهم وكانوا
 اذا جرح منهم أحد جراحة مؤلمة مشخنة القوه فيه بهذا جميعه تواصلت كتب
 أصحابنا من البلد * وأما أهل البلد فانهم انقسموا اقساما قسم ينزلون في الخندق
 يقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها . وقسم ينقلون
 ما يقطع ذلك القسم ويلقونه في البحر * وقسم يذبون عنهم ويدافعون
 حتي يتمكنوا من ذلك وقسم في المنجنيقات وحراسة الاسوار وأخذ منهم

التعب والنصب وتواترت شكايتهن من ذلك * وهذا ابتلاء لم يبل بمثله أحد ولا يصبر عليه جلد . وكانوا يصبرون والله مع الصابرين . هذا والسلطان لا يقطع الزحف على خنادقهم بنفسه . وخواصه واولاده ليلا ونهارا حتى أثرت فيه الاثر البين وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد هو في قتالهم وكبس خنادقهم والهجوم عليهم حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدث معه فلما أخبر السلطان بذلك قال ان كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد فاما نحن فليس لنا اليكم حاجة ولا شغل ودام ذلك متصلا الليل مع النهار حتى وصل الانكثار *

﴿ ذكر وصول الانكثار ﴾

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدم ملك الانكثار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها وكان لقدومه روعة عظيمة ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد وأظهر الافرنج سرورا عظيما حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيرانا عظيمة في خيامهم * ولقد كانت النيران مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم أنهم متوقعون فيما يريدون ان يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه فانه ذورأى في الحرب مجرب وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة * هذا والسلطان يتلقت ذلك كله بالصبر والاحتساب . والاتكال على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه *

﴿ ذكر غرق البطسة الاسلامية وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد ﴾

ولما كان السادس عشر وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والاسلحة والمير والرجال والابطال المقاتلة وكان

السلطان قد أمر بتعبيتها وتسييرها من بيروت ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدو وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً فاغرقها الأتكتار في عدة شوان قيل كان فيها أربعون قلماً فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها وجري القضاء بان وقف الهواء فقاتلونها قتالاً عظيماً وقتل من العدو عليها خلق عظيم وأحرقوا للعدو شانياً كبيراً فيه خلق عظيم فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرباً في الحرب فلما رأى أمارات الغلبة عليهم وانهم لا بد وان يقتلوا قال والله لا نقتل الا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئاً فوقوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها ولم يزلوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب أبواباً فامتلات ماء ففرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك ولم يظفر العدو منها بشيء وكان اسم المقدم المذكور يعقوب من رجال حلب وتلقف العدو بعض من كان فيها فأخذوه الى الشواني من البحر وخلصوه من الفرق وأنفذوه الى البلد ليخبرهم بالواقعة وحزن الناس لذلك حزناً شديداً والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله والصبر على بلائه والله لا يضيع أجر المحسنين

﴿ ذكر حريق الدبابة ﴾

• وذلك ان العدو كان قد اصطنع دبابة عظيمة هائلة أربع طبقات الطبقة الاولى من الحشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تسلو على السور وكان يركب فيها المقاتلة وخاف أهل البلد منها خوفاً عظيماً وحدثهم نفوسهم بطلب الامان من العدو وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد

بزأي العين وأخذ أهل البلد في تولية ضربها بالنفط ليلاً ونهاراً حتى قدر الله تعالى حرقها واشتعال النار فيها وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء فاشتدت الاصوات بالتهليل والتكبير وراوا الناس فيها لما ظهرت لها تلك النيران ولقوا جبراً من ذلك الوهن ومحو لذلك الأثر ونعمة بمدنقمة وايناساً بعد يأس وكان ذلك في يوم غرق البطسة فوقع من المسلمين موقعاً عظيماً وكان مسلياً لحزنهم

﴿ ذكر وقعات عدة ﴾

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر الشهر زحف العدو على البلد زحفاً عظيماً وضايقوه مضايقة شنيعة . وكان قد استتر بيننا وبينهم أنهم متي زحف العدو عليهم دقوا كؤوسهم فضربوا بكؤوسهم فأجابت كؤوس السلطان وركبت العساكر وضايقتهم السلطان من خارج وزحف، عليهم حتى هجم المسلمون عليهم في خيامهم فجاوزوا خنادقهم وأخذوا القدور وما فيها وحضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شيء عند السلطان وأنا حاضر ولم يزل القتل يعمل حتى أيقن العدو انه قد هجم عليهم فأخذوا يتراجعون عن قتال البلد وشرعوا في قتال العساكر وانتشب الحرب بينهم ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة وغشى الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين وتراجمت الطائفتان الي خيامهم وقد أخذ منهم التعب والحر

ولما كان يوم الاثنين الثالث والعشرون دق كؤوس البلد فجأوبه كؤوس السلطان وثار القتال بين الطائفتين ولج العدو في مضايقة البلد ثقة منهم أنب الناس لا يهجمون على خيمهم وانهم يهابونها فكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضاً ونهبوا منها فتراجع العدو الي قتالهم ووقع

الصياح فيهم فلاحقوا من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم وجري بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين وجرح جماعة وقتل جماعة من العدو . وأعجب ما في هذه الوقعة انه كان وصل في هذا اليوم رجل كبير مذكور من أهل ما زندران يريد الغزاة فوسل والحرب قائمة فلقى السلطان فاستأذنه في الجهاد وحمل حملة شديدة واستشهد في تلك الساعة . ولما رأى العدو دخول المسلمين الي خنادقهم وتوغلهم الى داخل أسوارهم داخلهم الحمية وبعثتهم النخوة فركب فارسهم وصحبه راجلهم وخرجوا الي ظاهر أسوارهم وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فثبت المسلمون لهم ثبوتا عظيما لم يتحركوا من أماكنهم والتحم القتال من الجانبين واشتد الضرب من الطائفتين وصبر المسلمون صبر الكرام . ودخلوا في الحرب بالتحام . فلما رأى العدو ذلك الصبر المعجب والاقدام المزعج أنفذوا رسولا في غضون ذلك يستأذنون بالرسول في الوصول فأذن له فوصل الرسول أولا الي الملك العادل فاستصحبه ووصل به الي الخدمة السلطانية ومعه أيضا الملك الافضل فأدي الرسالة وكان حاصلها أن ملك الانكتار يطلب الاجتماع بالسلطان فلما سمع السلطان الرسالة أجاب عنها في الحال من غير تفكير ولا تروء بأن قال ان الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة واذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ولا بد من ترجمان نثق به في الوسط يفهم كل واحد منا ما يقول الآخر فليكن بيننا ذلك الترجمان فاذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك ان شاء الله تعالى ولما كان يوم السبت الثامن والعشرون خرج العدو راجلهم وفارسهم من جانب البحر شمالي البلد وعلم السلطان ذلك فركب وركب العسكر وانتشب القتال

بين الطائفتين وقتل من المسلمين بدوى وكردي وقتل من العدو جماعة وأسروا واحداً بسلاحه وفرسه ومثل بين يدي السلطان ولم يزل القتال يعمل حتى حال الليل بين الطائفتين * ولما كان الاحد التاسع والشرون خرج العدو برجالة كثيرة على شاطئ النهر الحلو فلقبهم طائفة من اليزك وجرى بينهم قتال عظيم ووصلت رجالة من المسلمين الى الحرب فأسروا مسلماً وقتلوه وأحرقوه وأسر المسلمون منهم واحداً فقتلوه وأحرقوه ولقد رأيت النارين تشتعلان في زمان واحد * ولم تزل الاخبار تتواصل من أهل البلد بالاحتفال بأمر العدو والشكوي من ملازمة قتالهم ليلاً ونهاراً وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الاعمال المختلفة عليهم من جريرة قدوم الانكثار ثم مرض مرضاً شديداً أشفى فيه على الهلاك وخرج الفرنسيس ولم يزد هم ذلك الا اصراراً وعتواً وكان لأخت ملك الانكثار خادمان مسلمان في الباطن كانا في خدمتها في صقلية وكانت هي زوجة صاحب صقلية فلما مات ومصر أخوها بالبلد أخذها واصحابها معه الى العسكر وهرب الخادمان الى العسكر الاسلامي فقبلهما السلطان وأنعم عليهما انعاماً عظيماً .

﴿ ذكر هرب المركيس الى صور ﴾

ولما كان يوم الاثنين سلخ جمادى الاولى قوي استشعار المركيس أنه ان أقام قبضوا عليه وأعطوا صور للملك القديم الذي كان قد أسره السلطان لما عاناه من الأسر في نصرة دين المسيح . ولما صح ذلك عنده هرب الى صور فانفذوا خلفه قسوساً ليردوه فلم يفعل وسار في البحر حتى أتى صور وشق ذلك عليهم وعظام لديهم فانه كان ذا رأي وشجاعة وخبرة *



﴿ ذكر وصول بقية عساكر الاسلام ﴾

وفي سلخ جمادي الأولي قدم عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدين برتقش فلقية السلطان واحترمه وكان ديناً عاقلاً محباً للنزول فانزله السلطان في الميسرة بعد أن اكرمه وأنزله في خيمته وفرح بقدمه فرحاً شديداً في ذلك الوقت ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدوادار وجماعة كثيرة ثم قدم بعد ذلك علاء الدين صاحب الموصل وعسكرهم فلقية السلطان بالحروب ونزلوا هناك الي بكرة اليوم الثاني من جمادي الآخرة وأصبح سائراً حتى أتى بحضله قبالة العدو وعرض عسكره هناك وأنزله السلطان في خيمته وحمل له من التحف وقدم له من اللطائف ما يليق بكرمه وأنزله في الميمنة * وفي الثالث قدمت طائفة من عسكر مصر أيضاً * واشتد مرض الانكتار بحيث شغل الافرنج شدته عن الزحف وكان ذلك خيرة عظيمة من الله تعالى فان البلد كان قد ضعف من فيه ضعفاً عظيماً وضاق بهم الخناق وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامه الرجل * هذا والاصوص يدخلون الي خيامهم ويسرقون أقمشهم ويأخذون الرجال في غفلة بان يجيئوا الي الواحد وهو نائم فيضموا على حلقه السكين ويوقظوه ويقولوا له بالاشارة ان تكلمت ذبحناك ويحملوه ويخرجوا به الي العسكر وجرى ذلك مرارا وعساكر المسلمين تجتمع وتواتر من كل جانب حتى تكامل وصولها

﴿ ذكر وصول رسولهم الي السلطان ﴾

كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمس من جانب الانكتار أن

يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان عن ذلك وانقطع الرسول وعاد معاودا
 في المعنى وكان حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه الى السلطان واستقر أنه رأى
 أن يأذن له في الخروج ويكون الاجتماع في المرج والمساكر محيطة بهما ومعها
 ترجمان فلما أذن في ذلك تأخر الرسول أياما عنده بسبب مرضه واستفاض
 أن ملوكهم اجتمعوا عليه وانكروا عليه ذلك وقالوا هذه مخاطرة بدين
 النصرانية ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول لا تظن تأخري بسبب ما قيل فان
 زمام قيادي مفوض اليّ وأنا أحكم ولا يحكم على غير أني في هذه الايام اعترى
 مزاجي التيات منغني من الحركة فهذا كان العذر في التأخير لا غير وعادة
 الملوك اذا تقاربت منازلهم ان يتهادوا وعندى ما يصلح للسلطان وأنا أستخرج
 الاذن في ايصاله اليه فقال له الملك العادل قد أذن في ذلك بشرط قبول
 المجازاة على الهدية فرضي الرسول بذلك وقال الهدية شيء من الجوارح قد
 جلب من وراء البحر وقد ضعف فيحسن أن يحمل الينا طير ودجاج حتي
 نطعمها لتقوي ونحملها فداعبه الملك العادل وكان فقيها فيما يحدثهم به فقال
 الملك قد احتاج الى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل
 حديث الرسالة في الآخر على أن قال الرسول ما الذي أردتم منا ان كان لكم
 حديث فتحدثوا به حتى نسمع فقيل له عن ذلك نحن ما طلبناكم أنتم طلبتونا
 فان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع وانقطع حديث الرسالة الي سادس
 جمادى الاخرى فخرج رسول الانكتار الى السلطان ومعه انسان مصرى قد
 اسروه من مدة طويلة وهو مسلم قد اهداه الي السلطان فقبله وأحسن
 اليه وأعاده مشرفا مكرما الي صاحبه وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة
 النفس وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عنده من ذلك أيضا*

﴿ ذكر قوة زحفهم على البلد ومضايقته ﴾

ولم يزالوا يوالون على الاسوار بالماناجيق المتواصلة والضرب وتنقلوا
أحجارها حتى خلدوا سور البلد وأضعفوا بنيانه وأنهك التعب والسرر أهل
البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون
أصلا لا ليلا ولا نهاراً والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم
وهم نفر يسير قد تقسموا على الاسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن ولما
أحس العدو بذلك وظهر لهم تخلل السور وتقلقل بنيانه شرعوا في الزحف
من كل جانب وانقسموا أقساما وتناوبوا فرقا كلما تب قسم استراح وقام
غيره مقامه وشرعوا في ذلك شروعا عظيما براجلهم وفارسهم سابع الشهر *
هذامع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلا ونهاراً *
ولما علم السلطان ذلك باخبار من يشاهده واطهار العلامة التي بيننا وبينهم
وهي دق الكؤوس ركب وركب العسكر اليهم وجرى في ذلك اليوم قتال
عظيم من الجانبين وهو كالوالدة الشكلي يجون بنرسه من طلب الى طاب
ويحث الناس على الجهاد * ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم
مرتين والسلطان يطوف بين الاطلاب بنفسه وينادى يا للاسلام وعيناه
تذرفان بالدموع وكلما نظر الى عكا وما حلّ بها من البلاء وما يجري على
ساكنيها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال * ولم يطعم
في ذلك اليوم طعاما البتة وانما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطيب
وتأخرت عن حضور هذا الزحف لالمام مرض شوش مزاجي لما عراني
فكنت في الخيمة في تل العياضية وأنا أشاهد الجميع * ولما هجم الليل عاد
رحمه الله الي الخيم بعد الشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والكآبة

والحزن فنام لاعن عفو *

ولما كان سحر تلك الليلة أمر الكوثوس أن دقت وركب العساكر من كل جانب وأصبحوا على ما أمسوا عليه وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة عن البلد يقولون فيها أنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ونحن في الغد ثامن الشهر إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكى في قلوبهم فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب وهصر وجميع البلاد الإسلامية واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرها وكان قراقوش ملتزماً بحراستها منذ نزل العدو عليها وأصاب السلطان مالم يصبه شيء مثله وخيف على مزاجه النشويش وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً والله لا يضيع أجر المحسنين فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم فصاح في العساكر الصائح وركبت الأبطال فاجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدو فإن رجالته وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب ﴿ ولقد حكى ﴾ بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد أفرنجي صعد سور خندقهم واستدبر المسلمين والي جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق وقال أنه وقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه

زراق مسلم بقارورة فاحرقه ﴿ ولقد حكى ﴾ لي شيخ عاقل جندي انه كان من جملة من دخل قال وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى خرجت منا جماعة وتكاثروا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها وحماتها الى السلطان فعجب من ذلك عجباً عظيماً ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين بالقتل والجرح حتى فصل بينهم الليل *

﴿ ذكر ما آل اليه أمر البلد من الضعف ووقوع

المراسلة بين أهل البلد والافرنج ﴾

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليها من كل جانب وتناوب ضعف أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك واستشعروا العجز عن الدفع وتمكن العدو من الخنادق فملكوها وتمكنوا من سور الباشورة فنقبوه وأشعلوا فيه النار بمدحشو النقب ووقعت بدنة من الباشورة ودخل العدو الباشورة وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفراً وصاعداً وكان فيهم ستة من كبارهم فقال لهم واحد منهم لا تقتلوني حتى أرحل القرنج عنكم بالكلية فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الأخرى وفي الغد نادى الأفرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم فقالوا قد قتلناهم فحزن الأفرنج لذلك حزناً عظيماً وطلبوا الزحف بمد ذلك أياماً ثلاثة

وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بنفسه الى ملك الفرنسيين بالأمان قال له قد أخذنا منكم بلاداً عدة وكنا نهجم البلد ندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الأمان أعطيناهم وحمائناهم الى أمنهم وأكرمناهم ونحن نسلم البلد وتعطينا الأمان على أنفسنا فأجاب بان هؤلاء الملوك الذين أخذتوهم منا وأنتم أيضاً ممالكي وعبيدي فأرى فيكم رأيي وبلغنا ان المشطوب بمد

ذلك أنظله في التمول وقال أقاويل كثيرة في ذلك المقام منها انا لا نسلم
البلد حتى نقتل باجمعنا ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسون نفساً من
كباركم وانصرف عنه *

ولما دخل المشطوب البلد بهذا الخبر خاف جماعة ممن كانوا في البلاد
فأخذوا بركوسا وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الإسلامي منهم أرسل
وابن الجاوي وسنقر الوشاقى فأما أرسل وسنقر فانهما تغيريا في العسكر ولم
يعلم لهما مكان خشية من نقمة السلطان . وأما ابن الجاوي فظفر به ورمي
في الزردخانة

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان مشعراً أنه يواصل كبس القوم ومعه
المساحي وآلات طم الحنادق فما ساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا عن
ذلك وقالوا نخاطر بالاسلام كله ولا مصلحة في ذلك

وفي ذلك اليوم خرج من الانكتار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجاً
وذكروا أن مقدم الاستبار يخرج في الغد يتحدث في معنى الصلح غير ان
السلطان اكرمهم ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة إلى
عسكرهم

وفي ذلك اليوم تقدم إلى صارم الدين قايماز النجمي حتى يدخل هو
وأصحابه إلى أسوارهم وترحل جماعة من أمراء الأكراد كالجنح وأصحابه وهو
أخو المشطوب وزحنتوا حتى وصلوا أسوار الأفرنج ونصب قايماز بنفسه
علمه على سورهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار ووصل في ذلك اليوم
عز الدين جرديك النوري وسوق الزحف قائم فترجل هو وجماعته
وقاتل قتالاً شديداً واجتهد الناس اجتهاداً عظيماً

وفي العاشر أصبح القوم ساكتين عن الزحف والعساكر الاسلامية
محدقة بهم وقد باتوا لياتهم شاكي السلاح راكبي ظهور خيلهم منتظرين
عسى أن تمكنهم مساعدة اخوانهم المقيمين بعكا ويهجموا على طرف من
الافرنج فيكسروهم ويخرجوا يحمي بعضهم بعضا ويخرج العسكر يجاوبهم من
هذا الجانب فيسلم من يسلم وبؤخذ من يؤخذ فلم يقدروا على الخروج وكان
قد ثبت ذلك معهم فلم يتهيأ لهم في تلك الليلة خروج بسبب انه كان هرب
منهم بعض الزلمان فأخبر العدو بذلك فاحتاطوا بهم وحرسوهم حراسة
عظيمة

ولما كان يوم الجمعة العاشر خرج منهم رسل ثلاثة واجتمعوا بالملك
المادل وتحادثوا معه ساعة زمانية وعادوا ولم يفصل الحال وانقضي النهار على
مقام المسلمين بالمرج في مقابلة العدو وباتوا على مثل ذلك
ولما كان السبت الحادي عشر ابست الفرنج بأسرها لباس الحرب
وتحركوا حركة عظيمة بحيث إنهم اعتقدوا ربما كان مصاف واصطنوا وخرج
من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك
وطلبوا منهم المدل اتريداني وذكروا انه صاحب صيدا طابق السلطان فحضر
المدل وجرى مبادئ أحاديث في معنى اطلاق العسكر الذي بعكا واشتطوا في
ذلك اشتطاطا عظيما وتصرم نهار السبت ولم يفصل حال

﴿ ذكر كتب وصلت من البلد ﴾

ولما كان يوم الاحد ثاني عشر وصلت كتب يقولون فيها انا قد تباينا
على الموت ولا نزال نقاتل حتى نقتل ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء
فانظروا أتم كيف تعملون في شغل العدو عنا ودفنه عن قتالنا فهذه عزائمنا

واياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتلينوا لهم فانا نحن قد فات أمرنا وذكر العوام
الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل الصوت ظن الافرنج ان عسكرا
عظيما عبر الي عكا وسلم وصار فيها قال وجاء انسان افرنجي فوقف تحت السور
وصاح الي بعض من على السور وقال له بحق دينك الا ما أخبرتني كم عدد
العسكر الذي دخل اليكم البارحة يعني ليلة السبت وكان قد وقع بالليل صوت
وانزعج الطائفتان ولم يكن له حقيقة فقال له ألف فارس فقال لا لكنه دون
ذلك أنا رأيتهم لا بسين ثيابا خضرا

ثم تتابعت العساكر الاسلامية واندفع كيد العدو عن القوم في تلك
الايام بعد ان كان قد أشرف البلد على الاخذ * وفي يوم الخميس سادس عشر
وصل أسد الدين شيركوه واشتد ضعف البلد وكثرت ثمر سوره وجاهد
المقيمون فيه وبنوا عوض الثلم سورا من داخلها حتى اذا تم بناؤه اقتتلوا
عليه * واشتد ثبات الافرنج على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد
أمانا حتى يطلق جميع الا - ارى الذين في أيدي المسلمين وتعاد البلاد الساحلية
اليهم وبذل لهم تسليم البلد وما فيه دون من فيه فلم يفعلوا وبذل لهم أيضا مع
ذلك صليب الصلبوت فلم يفعلوا واشتد عتوهم واستفحل أمرهم وضائق الحيل
عنهم ومكروا والله خير الماكرين *

﴿ ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم ﴾

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوام من الثغر
وانطقت الكتب عنهم ان أهل البلد ضاق بهم الامر وكثرت الثمر وعجزوا
عن الحفظ والدفع وراوا عين الهلاك وتيقنوا انه متى أخذت البلدة عنوة ضربت
أعناقهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والاسلحة والمراكب وغير

ذلك فصالحوهم على انهم يسلمون اليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد
والمراكب ومثتى ألف دينار وألف وخمسمائة فارس أسير مجاهيل الاحوال ومائة
فارس معينين من جانبهم يختارون وصليب الصلبوت ويخرجون
بانفسهم سالمين وما معهم من الاقمشة المختصة بهم وذرايرهم ونسأهم وضمنوا
للمركيس عشرة آلاف دينار لانه كان واسطة ولاصحابه أربعة آلاف دينار
واستقرت القاعدة على ذلك

﴿ ذكر استيلاء المدو على عكا ﴾

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها أنكر ذلك انكارا عظيما
وعظم عليه هذا الامر وجمع أرباب المشورة وشاورهم فيما يصنع واضطرب
الامراء وتقسم فكره وتشوش وعزم على ان يكتب في الليلة مع العوام وينكر
عليهم المصالحة على هذا الوجه وهو في مثل هذا الحال فما أحس المسلمون
الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك
في ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الاخرى سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصاح
الافرنج صيحة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن المرحدين وانحصر
كلام العقلاء من الناس في تلاوة انا لله وانا اليه راجعون وغشي الناس بغتة
عظيمة وحيرة شديدة ووقع في العسكر الصياح والعيويل والبكاء والنحيب
وكان لكل قلب حظ في ذلك قدر ايمانه ولاكل انسان نصيب من هذا الخطب
على مقدار ديانته ونخوته وانقضت الحال على انه قد استقرت القاعدة بين أهل
البلد وبين الافرنج على ذلك الحال المتقدم وأن المركيس دخل البلد ومعه أعلام
الملك فنصب علما على القلعة وعلما على مأذنة الجامع في يوم الجمعة وعلما على
برج القتال عوضا عن علم الاسلام وحيز المسلمون الي بعض أطراف البلد وجري

على أهل الإسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه
 * ومثلت في خدمة السلطان وهو أشد حالة من الوالدة الشكلي * والموهبة
 الجراء فسليته بما تيسر من التسلية وأذكرته في الفكر فيما يستقبله من الأمر في معنى
 البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال في ذلك وأعمال الفكر في
 خلاص المسلمين المأسورين في البلد وذلك في ليلة السبت الثامن عشر
 وانفصل الحال على أن رأي التأخير عن تلك المنازلة مصالحة فانه لم يبق في المضايقة
 معنى فتقدم ينقل الأثقال ليلا إلى المنزلة التي كان عليها أولا بشفرعم وأقام هو
 جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد وأقام هو
 راضياً راجياً من الله تعالى انه ربما حملهم غرورهم بالخروج إليه والهجوم
 عليه فينال منهم غرضاً ويلقى نفسه عليهم ويعطي الله النصر لمن شاء فلم يفعل
 العدو شيئاً من ذلك واشتغلوا بالاستيلاء على البلد والتمكن منه فاقام إلى بكرة
 التاسع عشر من الشهر وانتقل إلى الثقل وفي ذلك اليوم خرج منهم ثلاثة
 نفر مع الحاجب قوس صاحب بهاء الدين قراقوش وكان رجلاً عاقلاً مستخبرين
 ما وقع عقد الصلح عليه من المال والأسري فاقاموا ليلة مكرمين وساروا
 إلى دمشق يبصرون الأساري في الحادي والعشرين وانفذ السلطان رسولا
 إلى الفرنج يسألهم كيف جرت الحال ويستعلم كم مدة تحصيل ما وقعت عليه
 المصالحة واستقرت عليه المهادنة *

﴿ ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك ﴾

ولما كان سبلخ الشهر خرج الأفرنج من جانب البحر شمالي البلد وانتشروا
 انتشاراً عظيماً راجلهم وفارسهم وضربوا أطلايا للقتال فأخبر اليزك بذلك
 السلطان فدق الكؤوس وركب وأنفذ إلى اليزك وقواه رجال كثيرة وتوقف

حتى ركبنا العساكر الاسلامية واجتمعوا لتوقع بين اليزك وبين العدا والموتمة
 اعظيمة وقتال شديد حتى اتصال العساكر باليزك وكان اليزك قد قوسى بهما الضيق اليه
 يفتلوا على العدو والحلة اعظيمة فالتكدر العدو ومن بين ايديهم سوانم رملت
 الخيالة وسلمت الرجاله وطمنوا ان ووزلة اليزك كميما فاشتدوا بجوار خيلهم ونزول
 اليزك في الرجاله فقتل منهم قتل زهاء الخمسين قبرا ولم يزل السيف يهدل فيهم
 حتى ادخلوا حداثتهم في ذلك اليوم في ذلك اليوم في ذلك اليوم في ذلك اليوم
 وفي ذلك اليوم وصل رسول الافرنج الدين مساروا الى دمشق فغلبت قتلوا
 حال اشرفهم ووصلت اليهم من الجمل يركب اسراهم اربا القرفة وتوصلت في غشيتها
 ايضا رسول السلطان في كحريرة اضر الاسارى المستلمين الذين كانوا بالبعك ولم
 يزل الرسل يتردد بين الظالمين حتى كان تاسع رجب سنة ثمان مائة
 خرج ابن باريك في اهلها من العساكر

وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ومعه اثنا
 من اصحاب الانكسار فالتكدر ان الملك افر نسياس سار الى صور وذكروا في
 تحرير اضر الامسارى وطلبوا ان يشاهدوا تحطيم الصلوكات وانه في المعسكر
 او حمل الى بعد اذ اجتر صايب الصلوكات وشاهدوا وعظوه وانه يورثوا وينزلوا
 الى الارض وطرعوا وجوههم على التراب واخصوا وخصوا عظيم الميزمته
 يوزكروا ان اللوك قد اجابوا السلطان ان يكون ما وقع عليه الضرارة تروم
 ثلاثة كل شهر تروم ثم ارسل السلطان رسولا الى الافرنجيس مسارا اليها الى حضور
 بهدايا سنوية وطيب كثير وثياب جميلة في ذلك اليوم في ذلك اليوم
 وفي ضيحة العاشر من رجب اتقل السلطان بحلقته وخواصته الى كل
 توالصق لشرف عم ونزلت العساكر في منازلها على حالهم قريبا من منزلته

الاولى ليس بينهما الا الوادى ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتجزها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الاسرى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ومائة الف دينار وستمائة أسير وانفذوا ثقاتهم وشاهدوا الجميع ما عدا الاسارى المئينين من جانبهم فانهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقصرون الزمان حتى انقضى الترم الاول فى ثامن عشر رجب ثم انفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان اما ان تفذوا الينا اصحابنا وتستلموا الذى عين لكم من هذا الترم ونعطيك رهائن على الباقي تصل اليكم في ترومكم الباقية واما ان تعطونا رهائن على ما نسلم اليكم الي ان يخرج الينا اصحابنا فقالوا لا نفعل شيئا من ذلك بل تسلمون الينا ما يقتضيه هذا الترم وتقنعون بايماننا حتى نسلم اليكم اصحابكم فابى السلطان ذلك لعلمه انهم ان تسلموا المال والصليب والاسرى واصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم ويكون وهن الاسلام عند ذلك وهنا عظيما لا يكاد يجبر *

﴿ ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بهكا رحمهم الله ﴾

ولما رأى الانكثار الملعون توقف السلطان ببذل المال والاسرى والصليب غدر بأسرى المسلمين وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال وانه ان دفع السلطان اليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم ونساءهم وان امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسرى فغدرهم الملعون وأظهر ما كان أبطن وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والاسرى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بهد وركب هو وجميع العسكر الافرنجية راجلهم وفارسهم والتراكيل في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب وساروا حتى أتوا الآبار التي تحت تل العياضية

وقدموا خيامهم اليها وساروا حتى توسطوا المريج بين تل كيسان وبين
العياضية ثم أحضروا من أسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك
اليوم وكانوا زهاء ثلاثة آلاف في الجبال وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد
فقتلوه صبرا ضربا وطعنا بالسيف واليزك الاسلامي يشاهدون ولا يعلمون
ماذا يصنعون لبعدهم عنهم وكان اليزك قد أنفذ الى السلطان وأعلموه
بركوب القوم ووقوفهم فأنفذ الى اليزك من قواه وبعده ان فرغوا منهم حمل
المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب قتل فيها وجرح من الجانبين وتدام
القتال الى أن فصل الليل بين الفريقين وأصبح المسلمون يكشفون الحال
فوجدوا الشهداء في مصارعهم وعرفوا من عرفوه منهم فغشى المسلمين من
ذلك حزن عظيم وكآبة شديدة ولم يبقوا الا رجلا معروفا مقداما أو قوي
يد لعمائرهم * وذكر لقتلهم أسباب منها انهم قتلوه في مقابلة من قتل منهم
وقيل ان الانكثار كان قد عزم على السير الى عسقلان للاستيلاء عليها فمأراى
أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه والله أعلم

﴿ ذكر مسير العدو الى عسقلان وانتقاله الى ﴾

﴿ طرف البحر من جانب الغرب ﴾

ولما كان التاسع والعشرون من رجب ركب الافرنج بأسرهم وقلعوا
خيامهم وحملوها على دوابهم وساروا حتى قطعوا النهر الى الجانب الغربي
وضربوا الخيام على طريق عسقلان وأظهروا العزم على المسير على شاطئ
البحر وأمر الانكثار باقي الناس أن يدخلوا الى البلد وكانوا قد سدوا ثغره
وثله وأصلحوا ما انهدم منه وكان مقدم العسكر الخارج السائر الانكثار
وجمع عظيم من الرجالة والحياالة * ولما كان مستهل شعبان اشتعلت نيران

فبعض الناس في ذلك اليوم وعادتهم انهم اذا ارادوا الرحيل اشبعوا نيرانهم
 واخبر اليك بحركتهم فامر السلطان الثقيل ان يرفع حتى يبقى الناس على ظهور
 فقبل الناس ذلك وهلك من الناس قماش كثير وحوامج كثيرة من السوق
 لم تكن معهم خيل ولا ظهر يحمل جميع ما عندهم لان كل انسان كان يحصل
 ما يحتاج اليه في اسهر وكل واحد من السوق عنده ما يفتد من منزل الى
 منزل في مرار متعددة لكن هذا المنزل لم يمكن ان يتخلف فيه احد لقربه
 من الافرنج الذين بمكا واخوف منهم ولما ان علا النهار شرع العدو في
 السير على جانب البحر وفرقوا قطعا كثيرة كل قطعة حمي عن نفسها ودوي
 السلطان اليك وانفذ معظم العساكر قبالتهم فمضوا وقاتلوهم قتالا شديدا
 وانفذ ولده الملك الافضل يخبر انه قطع طائفة منهم عن الموافقة ولقد
 انزلناهم بالقتال ولو قويتنا لاخذناهم فسير السلطان خلفا عظيما من العساكر
 وسار هو بنفسه وانا في خدمته حتى اتي اوائل الرمل فاقبنا الملك العادل فاخبر
 اخاه ان تلك الطائفة قد التجأت بالتجارة بالطائفة الاولى ومعظم القوم قد سبروا نهر
 حيفا وقد نزلوا بالباقون قد كلفوا بهم وليس للمسير وراءهم بحاصل الاتعاب
 العسكر وضياح الشباب لا غير فراجع السلطان عن القوم لما تحقق ذلك
 وانضم طائفة من العساكر الى تسير وراء الثقيل فمضوا بقتلهم بقوتهم ويكف
 عنهم من يلحق بهم من العدو والطامعة وسار هو حتى لوصل الى القيسون
 فمضت ذلك النهار فنزل ومضربا له الدهلين وثققة دائرة حوله الا غير واستحضر
 الجماعة فاكلوا اشياء واستشارهم فيما يفعل فان السلطان اراد ان يمشي
 الى المنزل الثاني بالاتفق رأي الجماعة على انهم يرمطون ابكرا غدا وهذا لو قد
 مراتب تحولن الافرنج ميركاييتون حوله يراقبون الامر والملا كاف طباح ثاني

شعبان رحل السلطان الثقيل وأقام هو يترصد أخبار العدو فلم يصل منهم شيء إلى أن علا النهار فسار في أثر الثقيل حتى أتى قرية يقال لها الصباغين فجلس ساعة يترقب أخبار العدو وكان قد خلف جرديك قريب العدو وتقيب خلق عظيم باتوا قريب العدو فلم يصله خبر أصلاً فسار حتى أتى الثقيل في منزلة يقال لها عيرون الاساود ولما بلغنا المنزل رأى خياماً فسأل عنها فقيل إنها خيام الملك العادل فمدل لينزل عنده فأقام عنده ساعة ثم أتى خيمته وفقد الخبز في هذه المنزلة بالكافية وغلا الشمير حتى بلغ درهما وبلغ رطل البقساط درهمين ثم أقام السلطان حتى عبر وقت الظهر وركب وسار إلى موضع يسمى الملاحة يكون منزلاً للعدو إذا رحلوا من حيفا وكان قد سبق ليتفقد المكان هل يصلح للمصاف أم لا ويتفقد أراضي قيسارية بأسرها إلى الشرا وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال وصل إلينا من أخبرنا أنه مارحل من حيفا إلى عصر يومنا هذا يعني ثاني شعبان وها نحن مقيمون صر تقبون أخبارهم ويكون العمل بمقتضاها وبات تلك الليلة وأصبح مقياً بتل الزلزلة ينتظر العدو ونادى الجاويش بالعسكر للعرض فركب الناس على ترتيب المصاف وأهبطه . ولما علا النهار نزل السلطان في خيمته وأخذ نصيباً من الراحة بعد الغداء ومثول جماعة من الأمراء إلى خدمته وأخذ رأيهم فيما يصنعون ثم صلى الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المخروجة وغيرها إلى العشاء الآخرة من مائة دينار إلى مائة وخمسين ديناراً وزائد وناقص فما رأيت أفسح صدراً منه ولا أبسط وجهاً في العطاء واتفق الرأي على رحيل الثقيل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل يافا *

المنزل الثالث * وأقام هو جريدة بالمنزل الى الصباح رابع الشهر وركب وسار في رأس النهر الجاري الى قيسارية ونزل هناك وبلغ رطل البقسماط أربع دراهم وربيع الشمير درهمين ونصفاً والخبز لم يوجد أصلاً ونزل في خيمة واكل خبزا وصلّى الظهر وركب الى طريق العدو لتجدد ارشاده في ضرب المصاف ولم يعد الي ان دخل وقت العصر فجلس ساعة وأخذ جزاً من الراحة ثم عاد وركب وأمر الناس بالرحيل ورمي خيمته ورمي الناس خيامهم في أواخر النهار *

المنزل الرابع * وكان الرحيل الي رابية متأخرة عن تلك الرابية وفي ذلك المنزل أتى بأثنين من الافرنج قد تخطفهم اليزك فامر بضرب رقابها فقتلا وتكاثر الناس عليهما بالسيوف تشفياً ثم بات هناك وأصبح مقيماً بالمنزلة لانه لم يصح عن العدو ورحيل وأنفذ الى الثقل حتي يعود اليه في تلك الليلة مما طرأ على الناس من الضيق في الماء كل والقضم وركب في وقت عادته الي جهة العدو وأشرف على قيسرية وعاد الي الثقل قريب الظهر وقد وصل الخبر أن العدو لم يرحل بعد من الملاحه وأحضر عنده اثنان أيضاً قد أخذوا من أطراف العدو فقتلا شرقتلة وكان في حدة الضيقة للماجري على أسرى عكا ثم أخذ جزاً من الراحة وجلس بعد صلاة الظهر وحضرت عنده وقد أحضر بين يديه من العدو فارس مذكور هيئته تخبر عن أنه متقدم فيهم فاحضر ترجمانا وبحث عن أحوال القوم وساله كيف يسوى الطعام عندكم فقال أول يوم رحلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس فلم يزل السمر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس وسأل عن سبب تأخرهم في المنازل فقال لانتظار وصول المراكب بالرجال والميرة فسأل عن القتلي والجرحى في يوم رحيلهم فقال كثير فسأل عن

الحيل التي هلكت في ذلك اليوم فقال مقدار أربعمئة فرس فأمر بضرب عنقه ونهى عن التمثيل به فسأل الترجان عما قال السلطان فأخبره بما قال فتغير تغيراً عظيماً وقال أنا أخلص لكم أسيراً من عكا فقال رحمه الله بل أميراً فقال لا أقدر على خلاص أمير فشنع الطمع فيه وحسن خلقه فاني مارأيت أتم خلقاً منه مع ترف في الاطراف ورفاهية فأمر أن يترك الآن ويؤخر أمره فصفده وعاتبه على ما بدا منهم من الغدر وقتل الاسرى فاعترف بانه قبيح وانه لم يجر الا برضا الملك وحده وركب السلطان بعد صلاة العصر على عادته وبعد أن نزل أمر بقتل الفارس المذكور وأتى بعده باثنين فأمر بقتلها وبات في ذلك المنزل المذكور * وذكر له في السحر أن العدو قد تحرك نحو قيسارية وقارب أوائلهم البلد فرأى أن يتأخر من طريق العدو منزلاً آخر *

المنزل الخامس * فرحل ورحل الناس الى قريب التل الذي كنا عليه فنزل الناس وضربت الحيام ومضى هو يرتاد الاراضي الكائنة في طريق العدو لينظر أيها أصح للمصاف ونزل قريب الظهر واستدعى أخاه الملك العادل وعلم الدين سليمان وأخذ رأيهما فيما يصنع وأخذ جزءاً من الراحة وأذن الظهر فصلى وركب ليشرق وليكشف عن العدو ويتنسم أخباره وأتاه اثنان من الافرنج قد نهبا فأمر بقتلها فقتلا ثم أتى باثنين آخرين فقتلا أيضاً. وجيء في أواخر النهار باثنين فقتلا أيضاً وعاد من الركوب وصلى صلاة المغرب وجلس على عادته واستدعى أخاه وصرف الناس وخلا به الى هزيع من الليل ثم بات وأصبح ونادى الجاويش لعرض الحلقة لا غير وركب الى جهة العدو ووقف على تلؤل مشرفة على قيسارية وكان العدو قد وصل اليها نهار الجمعة

سادس شعبان ولم يزل يعرض هناك الى ان علا النهار ثم نزل وأكل الطعام وركب الى أخيه وعاد بعد صلاة الظهر وأخذ جزءاً من الراحة وجلس وأتى بأربعة عشر من الأفرنج وامرأة أفرنجية بينهم أسيرة وهي بنت الفارس المذكور ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فأطلقت المسلمة ورفع الباكون الى الزردخانه وهؤلاء أتى بهم من بيروت أخذوا في مركب من جملة عدة كثيرة فقتلوا كل ذلك في نهار السبت سابع الشهر وهو في المنزلة ينتظر رحيل العدو مجمعا على لقائه اذا رحل *

المنزل السادس * ولما كان صبيحة الثامن ركب السلطان على عادته ثم نزل ووصله من أخيه أن العدو على حركة وكانت الاطلاب قد باتت حول قيسارية في مواضعها فأمر بمد الطعام وأطعم الناس فوصل ثان وأخبر ان القوم قد ساروا فأمر بالكؤوس فدقت وركب وركب الناس وسار وسرت في خدمته حتى أتى عسكر العدو وصف الاطلاب حوله وأمرهم بقتالهم وأخرج الجاليش فكان النشاب بينهم كالمطر وكان عسكر العدو قد رتب فكانت الرجالة حوله كالسور وعليهم اللبود الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأخرون وهم يرموننا بالزنبورك فيجرح خيل المسلمين وخيالتهم ولقد شاهدتهم ويتغرز في ظهر الواحد منهم الواحد والعشرة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج. وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فاذا تعبت هذه المقاتلة أو أثخنهم الجراح قام مقامهم المستريح واستراح القسم المقاتل. وهذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة الا في وقت الحملة لا غير وقد انقسموا أيضاً ثلاثة أقسام. القسم الاول الملك العتيق جنفى وجماعة الساحلية معه في المقدمة

والانكثار والفرنسيس معه في الوسط . وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة وفي وسط القوم برج على عجلة على ما وصفته من قبل أيضاً كالمنازة العظيمة هذا ترتيب القوم على ماشاهدته وأخبر به من خرج منهم من الأسرى والمستأمنين وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة والمسلمون يرمونهم بالنشاب من جوانبهم ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حنظاً عظيماً ويقطعون الطريق على هذا الوضع ويسرون سيراً رقيقاً ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل وكانت منازلهم قريبة لاجل الرجالة فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عندهم . فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة عن غير دين ولا نفع وكانت منزلهم قاطع نهر قيسارية يسر الله فتحها *

المنزل السابع * ولما كانت صبيحة التاسع وصل من أخباران العدو وقد ركب سائراً فركب السلطان أول الصبح وطلب الاطلاع وأخرج من كل جانب جاليساً فسار يطلب القوم فاتاعهم وهم سائرون على عاداتهم ثلاثة أقسام وطاف الجاليس حولهم من كل جانب ورموهم بالنشاب وهم سائرون ثلاثة أقسام على المثال الذي حكيتة وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه وهم يحفظ بعضهم بعضاً والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب والقتال بينهم شديد والسلطان يقرب الاطلاع ورأيتة وهو يسير بنفسه بين الجاليس ونشاب القوم يجاوزه وليس معه الاصيادان بجنييه لا غير وهو يسير من طلب إلى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم والكؤوس تخفق والبوقات تنغر والصياح بالتهليل والتكبير يعلو . هذا والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون وجرت حالات كثيرة ورجالهم تخرج المسلمين وخيولهم بالزنبورك

والنشاب ولم نزل حواليتهم نقاتلهم ونحمل عليهم وهم يكرون بين ايدينا ويفرون الى ان اتوا نهراً يقال له نهر القصب ونزلوا عليه وقد قامت الظهيرة وضربوا خيامهم وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا اذا نزلوا ايس الناس منهم ورجعوا عن قتالهم وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام شجاع اسمه اياز الطويل بعض ممالك السلطان وكان قد فتك فيهم وقتل خلقاً من خيالتهم وشجعانهم وكانت قد فاضت شجاعته بين العسكرين بحيث، انه جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الاوائل وصار بحيث اذا عرفه الافرنج في موضع يخافونه تقنطرت به فرسه واستشهد وحزن المسلمون عليه حزناً عظيماً ودفن على تل مشرف على البركة ونزل السلطان بالثقل على البركة وهي موضع يجتمع فيه مياه كثيرة واقام في تلك المنزلة الى ما بعد صلاة العصر وأطم الناس خبزاً واستراحوا ساعة ثم رحل وأتى نهر القصب ونزل عليه ايضاً فشرب منه قليلاً من أعلاه والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا الا مسافة يسيرة وبلغ ربع الشعير أربعة دراهم والخبز موجود كثيراً وسعره الرطل بنصف درهم واقام ينتظر رحيل الافرنج حتي يرحل في مقابلتهم فباتوا وبتنا ايضاً*

﴿ ذكر وقعة جرت ﴾

وذلك أن جماعة من العسكر الاسلامي كانوا مشرفين على العدو فصادفوا جماعة منهم يشرفون ايضاً على العسكر الاسلامي فظنوا بهم وهجموا عليهم وجري بينهم قتال عظيم فقتل من العدو جماعة وأحس بهم عسكر العدو فثار اليهم منهم جماعة واتصل الحرب وقتل ايضاً من المسلمين

نفران وأسر من العدو ثلاثة ومثلوا بخدمة السلطان فسألهم عن الاحوال فأخبروا ان الملك الانكثار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان وأنهما أخبراه بقلة المسكر الاسلامي وذلك الذي أطمعه حتى خرج وانه لما كان بالامس يعنى يوم الاثنين رأى من المسلمين قتالاً عظيماً واستكثر الاطلاق وانه جرح زهاء ألف نفر وقتل جماعة وان ذلك هو الذي أوجب اقامته اليوم حتى يستريح عسكره وانه لما رأى ما أصابهم من القتال العظيم وكثرة المسلمين أحضر البدويين عنده وأوقفهما وضرب أعناقهما . وأقننا في ذلك اليوم في تلك المنزلة لاقامة العدو بها وهو الثلاثاء العاشر من شعبان المنزل الثامن . ولما كان ظهر اليوم المذكور رأى السلطان الرحيل والتقدم الى قدام العدو فدق الكؤوس ورحل الناس ودخل في شعرا أرسوف حتى توسطها الى تل عند قرية تسمى دير الراهب فنزل هناك ودم الناس الليل فتقطعوا في الشعرا وأصبح مقبياً ينتظر بقية المساكر الى صباح الاربعاء الحادى عشر وتلاحقت المساكر وركب يرتاد موضعاً يصلح للقتال ولقاء العدو وأقام ذلك اليوم أجمع هناك . ومن أخبار العدو في تلك المنزلة انه أقام على نهر القصب ذلك اليوم أيضاً وأنه لحقته نجدة من عكا فى ثمان بطس كبار واليزك الاسلامى حوله يواصلون الاخبار المستجدة بهم وجرى بين اليزك وبين حشاشة العدو قتال وجرح من الطائفتين

﴿ ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم ﴾

وذلك ان العدو طاب من اليزك من يتحدث معه وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان فانها كانت نوبته فلما مضى اليهم من سنع كلامهم كان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدثوا معه فاستأذن ومضى وبات تلك

الليلة في اليزك وتحدثوا معه وكان حاصل حديثهم انا قد طال بيننا القتال وقد قتل من الجانبين الرجال الابطال وانا نحن جئنا في نصرة افرنج الساحل فاصطلحوا أتم وهم وكل منا يرجع الى مكانه وكتب السلطان الى أخيه في صبيحة يوم الخميس الثاني والعشرين رقعة يقول له فيها «ان قدرت أن تطاول الافرنج فلعلمهم يقيمون اليوم حتى يلحقنا التركان فانهم قد قربوا منا»

﴿ ذكر اجتماع الملك العادل والانكثار ﴾

ولما علم الانكثار وصول الملك العادل الى اليزك طلب الاجتماع به فأجابه الى ذلك فاجتهدا بفرقة من أصحابهما وكان يترجم بينهما ابن الهنفرى وهو من افرنج الساحل من كبارهم ورأيتهم يوم الصلح وهو شاب حسن إلا أنه مخلوق اللحية على ما هو شعارهم . وكان الحديث بينهما أن الانكثار شرع في ذكر الصلح وان الملك العادل قال له أتم تطالبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان فقال له الانكثار القاعده أن تعود البلاد كلها الينا وتنصرفوا الى بلادكم فأخشن له الجواب وجرت منافرة اقتضت انهم رحلوا بعد انفصالهم * ولما أحس السلطان برحيلهم أمر الثقل بالرحيل ووقف هو وعبي الناس تعبئة القتال وسار الثقل الصغير أيضاً حتى قارب الثقل الكبير ثم ورد أمر السلطان بعودهم اليه فعادوا ووصلوا وقد دخل الليل وتخبط الناس تلك الليلة تخبطاً عظيماً واستدعى أخاه ليعرفه ماجري بينه وبين الملك وخلا به لذلك وذلك في ليلة الجمعة ليلة الثالث عشر * وأما العدو فانه سار ونزل على موضع يسمى البركة أيضاً يشرف على البحر وأصبح السلطان في يوم الجمعة متطلعا الى أخبار العدو فأحضر عنده اثنان من الافرنج قد تخطفهما اليزك فأمر بضرب أعناقهما

ووصل من أخبر ان العدو لم يرحل اليوم من منزلته تلك فنزل السلطان واجتمع بأخيه يتحدثان في هذا الامر وما يصنع مع العدو وبات تلك الليلة في تلك المنزلة

﴿ ذكر وقعة ارمون وهي أنكنت في قلوب المسلمين ﴾

ولما كان يوم السبت الرابع عشر بلغ السلطان أن العدو حرك الرحيل نحو أرسوف فركب ورتب الاطلاب للقتال وعزم على مضايقتهم في ذلك اليوم ومصادمتهم وأخرج الجاليش من كل طلب وسار العدو حتى قارب شعرا أرسوف وبساتينها فاطلق عليهم الجاليش النشاب ولزتهم الاطلاب من كل جانب والسلطان يقرب بعضها ويوقف بعضها ليكون رداً ويضابق العدو مضايقة عظيمة والتحم القتال واضطربت ناره من الجاليش وقتل منهم وجرح فاشتدوا في السير عسائهم يبلغون المنزلة فينزولوا واشتد بهم الامر وضاق بهم الخناق والسلطان يطوف من الميمنة الى الميسرة يحث الناس على الجهاد ولقيته مرارا ليس معه الا صبيان بجنييه لا غير ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال والنشاب يتجاوزهما ولم يزل الامر يشتد بالطمع للعدو وطمع المسلمون فيهم طمعا عظيما حتى وصل أوائل راجلهم الي بساتين أرسوف ثم اجتمعت الحياالة وتواصلوا على الحملة خشية على القوم ورأوا انهم لا ينجيهم الا الحملة * ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيخة الرجل الواحد وفرج لهم رجالهم وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فحملت طائفة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب فاندفع الناس بين أيديهم واتفق اني كنت في القلب فقر الالب فرارا عظيما فنويت التحيز الي الميسرة وكانت أقرب الي ووصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة وفرت أشد فرار من

الكل فنويت التحيز الي طلب السلطان وكان رداً الاطلاب كلها كما جرت العادة ولم يبق للسلطان فيه الا سبعة عشر مقاتلا لا غير وأخذ الباقون الي القتال لكن الاعلام كلها باقية ثابتة والكؤوس تدق لا تفتقر وأما السلطان فانه لما رأى منازل بالمسلمين من هذه النازلة سار حتى أتى الي طلبه فوجد فيه هذا النفر القليل فوقف فيه والناس ينفرون من الجوانب وهو يأمر أصحاب الكؤوس بالدق بحيث لا يفترون وكلما رأى فاراً يأمر من يحضره عنده وفي الجملة ما قصر الناس بفرارهم فان العدو حمل حملة قفروا ثم وقف خوفاً من الكمين فوقفوا وقاتلوا ثم حمل حملة ثانية قفروا وهم يقاتلون في فرارهم ثم وقف فوقفوا ثم حمل حملة ثالثة حتى بلغ الي رؤوس رواب عنك وأعلى تلول قفروا الي أن وقف العدو ووقفوا وكان كل من رأى طلب السلطان واقفاً والكؤوس تدق يستحي أن يجاوزه ويخاف غائلة ذلك فيعود الي الطلب فاجتمع في القلب خلق عظيم ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي والسلطان واقف في طلبه والناس يجتمعون عليه حتى أتت العساكر بأسرها وخاف العدو ان يكون في الشعرا كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة وعاد السلطان الي تل في أوائل الشعرا ونزل عليه في خيمته . ولقد كنت في خدمته أسليه وهو لا يقبل السلو وظلل عليه بمندبل وسألناه أن يطعم شيئاً فحضر له شيء لطيف فتناول شيئاً يسيراً وبعث الناس للسقي فان المكان كان بهيماً وجلس ينتظر الناس من العود من السقي والجرحي يحضرون بين يديه وهو يتقدم بمداوتهم وحملهم وقتل في ذلك اليوم رجالاً كثيرة وجرح جماعة من الطائفتين . وكان ممن ثبت الملك العادل والطواشي قايماز النجمي والملك الافضل ولده وصادم في ذلك اليوم وانفتح دمل كان في وجهه وسال منه دم كثير على وجهه وهو صابر محتسب في

ذلك كله وثبت أيضاً طلب الموصل ومقدمة علاء الدين وشكره السلطان على ذلك وتفقد الناس بعضهم بعضاً فوجدوا أن قد استشهد جماعة من العسكر عرف منهم شخصان أمير كبير مملوك وكان شجاعاً معروفًا وقايمًا بالعادلى وكان المذكوراً وليفوش وكان شجاعاً وجرح خلق كثير وخيول كثيرة وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه وأخذت منهم خيول أربعة وكان قد تقدم رحمه الله الى الثقل أن يسير الى العوجاء وذكر أن المنزل يكون على العوجاء فاستأذنته وتقدمت الى المنزل وجلس هو ينتظر اجتماع العساكر وما يرد من أخبار العدو وكان العدو قد نزل على ارسوف قبلها

﴿ المنزل التاسع ﴾ وسرت بعد صلاة الظهر حتى أتيت الثقل وقد نزل قاطع النهر المعروف بالعوجاء في منزلة خضراء طيبة على جانب النهر ووصل السلطان الى المنزلة أواخر النهار وازدحم الناس على القنطرة فنزل على تل مشرف على النهر ولم يعد الى الخيمة وأمر الجاويش أن ينادي في العسكر بالعبور اليه وكان في قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه الا الله تعالى والناس بين جريح الجسد وجريح القلب وأقام السلطان الى سحر الخامس عشر ودق الكؤوس وركب وركب الناس وسار راجعاً الى جهة العدو حتى وصل الى قريب ارسوف وصف الاطلاب للقتال رجاء خروج العدو ومسيره حتى يضاف فلم يرحل العدو في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراح وأقام قبالتهم الى آخر النهار وعاد الى منزلته التي بات فيها * ولما كانت صبيحة السادس عشر دق الكؤوس وركب وركب الناس وسار نحوهم ووصل خبر العدو أنه قد رحل طالباً جهة يافا فقاربهم مقاربة عظيمة ورتب الاطلاب

ترتيب القتال وأخرج الجاليش وأحدق العسكر الاسلامي بالقوم وألقوا عليهم من النشاب ما كان يسد الأفق وقالت قلوبهم قتال الحنق وقصد رحمة الله تحريك عزائمهم على الحملة حتى اذا حملوا أتى الناس عليهم وقصدوهم ويعطى الله النصر لمن يشاء فلم يحملوا وحفظوا نفوسهم وساروا مصطفين على عاداتهم حتى أتوا نهر العوجاء وهو النهر الذي منزلتنا أعلاه فنزل في أسفله وعبر بمضهم الي غربي النهر وأقام الباقون من الجانب الشرقي فلما علم الناس بنزولهم تراجع الناس عنهم وعاد السلطان الي الثقل ونزل في خيمته وأطمم الطعام وأتى باربعة من الافرنج قد أخذتهم العرب ومعهم امرأة فرفعوا الي الزردخانات وأقام بقية ذلك اليوم يكتب الكتب الي الاطراف باستحضار بقية العساكر وحضر من أخبر انه قتل من العدو يوم ارسوف خيول كثيرة وأنه تتبعها العرب وعدوها فزادت على مائة وأمر السلطان أن رحلت الجمال وتقدمت الي الرملة وبات هو بتلك المنزلة *

﴿ المنزل العاشر ﴾ ولما كان سابع عشر صلي الصبح ورحل ورحل معه الثقل الصغير وسار يريد الرملة وأتى باثنين من الافرنج فضرب أعناقهم ووصل من اليزك من أخبر أن العدو رحل من يافا وسار السلطان الي أن أتى الرملة وأتى باثنين من الافرنج أيضاً فسألهم عن أحوالهم فذكروا أنهم ربما أقاموا بيافا أياما وفي أنفسهم عمارتها وشحنها بالرجال والعدد فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان وأنها هل تخرب أو تبقى واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر مقارب العدو ليعرف أحوالهم واتصالها وأن يسير هو ويخرب عسقلان خشمية أن يستولي عليها الافرنج وهي عامرة فيقتلوا من بها من المسلمين ويأخذوا

بها القدس الشريف ويقطعوا بها طريق مصر وخشي السلطان من ذلك وعلم عجز المسلمين عن حفظها اترب عهدهم من عكا وما جرى على من كان متيماً بها ويخيفوا الناس عن الدخول الي عسقلان فادخرت القوة في عسكر الاسلام لحفظ القدس المحروس فتعين لذلك خراب عسقلان فسار الثقل والجمال من أول الليل وتقدم الي ولده الملك الافضل ان سار عقيب الثقل نصف الليل وسار هو وأنا في خدمته سحر الاربعاء *

﴿المنزل الحادي عشر﴾ وهو على عسقلان * ولما كان يوم الاربعاء ثامن عشر الشهر وصل السلطان الي بينا فنزل بها ضحى وأخذ الناس راحة ثم رحل وسار حتى أتى أرض عسقلان وقد ضربت خيمته بعيدا منها فبات هناك مهموما بسبب الخراب وما نام الا قليلا . ولقد دعاني في خدمته سحرا وكنت فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها وأحضر ولده الملك الافضل وشاوره في ذلك وطال الحديث في المعنى . ولقد قال لي والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب اليّ من أن أهدم منها حجراً واحداً ولكن اذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان ثم استخار الله تعالي فأوقع الله في نفسه أن المصلحة في خرابها لعجز المسلمين عن حفظها فاستحضر الوالي قيصر بها وهو من كبار مماليكه وذوي الآراء منهم فأمره بجمع المال فيها ولقد رأيتاه وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه مستقر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من الناس المسكر بدنة معلومة وبرجاً ما وما يخربونه ودخل الناس البلد ووقع الضجيج والبكاء وكان بلداً نضراً خفيفاً على القلب محكم الاسوار عظيم البناء مرغوباً في سكناه فلحق الناس عليه حزن عظيم وعظم عويل

أهلته على مفارقة أوطانهم وشرعوا في بيع مالا يمكن حمله فبيع ما يساوي
 عشرة دراهم بدرهم واحد واختبئوا بالبلد وخرج أهلهم إلى العسكر بذرايرهم
 ونساءهم خشية أن يهجم الأفرنج وبذلوا في الكراء أضعاف ما يساوي قوم
 إلى مصر وقوم إلى الشام وقوم يمشون إذ لم يقع لهم كراء وجرت أمور عظيمة
 وفتنة هائلة لعلها لم تختص بالذين ظلموا وكان هو بنفسه وولده الملك الأفضل
 يستعملان الناس في الخراب والحث عليه خشية أن يسمع العدو فيحضر ولا
 يمكن خرابها وبات الناس في الخيام على أتم حال من التعب والنصب
 . وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل أن الأفرنج تحدثوا معه في
 الصلح وأنه خرج إليه ابن الهنفرى وتحدث معه وأنه طلب جميع البلاد
 الساحلية فرأى السلطان أن ذلك مصالحة لما رأى في أنفس الناس من الضجر
 والسامة من القتال والمصابرة وكثرة ما علاهم من الديون وكتب إليه يسمح
 في الحديث في ذلك وفوض أمر ذلك إلى رأيه وأصبح في العشرين على
 الإصرار على الخراب واستعمال الناس فيه وحثهم عليه وأباحهم الهري الذي كان
 ذخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من هجوم الأفرنج
 وأمر بحرق البلد فأضرمت النار في بيوته ودوره ورفض أهل بواقي الأقمشة
 للعجز عن نقلها والأخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا وكتب الملك
 العادل يخبر أن القوم لم يعلموا بخراب البلد وإن سوف القوم وطول الحديث
 لعلنا تمكن من الخراب وأمر بحشو أبراج البلد بالأحطاب وإن تحرق وأصبح
 الحادى والعشرون فركب يحث الناس ودام يستعملهم على التخريب
 ويطوف عليهم بنفسه حتى التا مناجه التيانا قويا امتنع بسببه من الركوب
 والغذاء يؤمن وأخبار العدو تواصل إليه في كل وقت ويجرى بينهم وبين

اليزك والمسكر وقعت وقلبات وهو يواظب على الحث على الخراب ونقل
الثقل الى قريب البلد ليعاونوا الغلمان والجمالين وغيرهم في ذلك فخرّب
من السور معظمه وكان عظيم البناء بحيث انه كان عرضه في مواضع
تسعة أذرع وفي مواضع عشرة أذرع وذكر بعض الحجارين لاساطان
وأنا حاضر أن عرض السور الذي ينقبون فيه مقدار رمح ولم يزل
التخريب والحريق يعمل في البلد وأسواره الى سلخ شعبان وعند
ذلك وصل من جريدك كتاب يذكر فيه أن القوم يتسحون وصاروا
يخرجون من يافا فيرون على البلاد القريبة منها فتحرك السلطان لعله يبلغ
منهم غرضاً في غرتهم فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين
ومعهم خيل تحميهم وليستهمضونهم في الخراب ثم رأي أن يتأخر بحيث يحرق
البرج المعروف بالاسبتار وكان برجاً عظيماً مشرفاً على البحر كالقلعة المنيعة .
ولقد دخلته وطفته فرأيت بناءه أحكم بناء يقرب من أن لا تعمل فيه
المماول وإنما أراد ان يحرقه حتى يبقى بالحريق قابلاً للخراب ويعمل الهدم
فيه . وأصبح مستهل رمضان فأمر ولده الملك الافضل أن يباشر ذلك بنفسه
وخواصه * ولقد رأيت يحمل الحشب هو وخواصه لحريق البرج ولم يزل
الناس ينتلون الحشب ويحشونه في البرج حتى امتلأ ثم أطلقت فيه النار
فاشتعل الحشب وبقيت النار تشتعل فيه يومين بلياليهما ولم يركب السلطان
في ذلك اليوم تسكيناً لمزاجه وعرض لي أيضاً تشوش مزاج اقتضى انقطاعي
عنه في ذلك اليوم ونقد تردد الى من سأل عن مزاجي من عنده ثلاث
مرات مع اشتغال قلبه بذلك المهم . فآله تعالى يرجمه لقد ماتت بمجاسن
الاخلاق بموته *

﴿ ذكر رحيله الى الرملة ﴾

ثم رحل السلطان ثاني رمضان نصف الليل خشية على مزاجه . من الحر ووصل بينا ضحوة النهار ونزل في خيمة أخيه واستلم منه أخبارهم ساعة ثم ركب ونزل في خيمته وبات في تلك المنزلة وأصبح ثالث الشهر راحلا الى جهة الرملة فسار حتى أتاه ضحوة النهار ونزل بالثقل الكبير نزول إقامة ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا وأطعم الناس الطعام وأخذ جزأ من الراحة وركب بين صلاتي الظهر والعصر وسار الى لدة وراها ورأى بيعتها وعظم بنائها فأمر بخرابها وخراب قلعة الرملة فوق الخراب في الموضعين في ذلك اليوم وفرق الناس فرقا لتخريب المكاين وأباح ما فيها من التبن والشعير في الأهراء السلطانية وأمر من كان فيها من المقيمين بالانتقال الى المواضع العامرة وما كان بقي في المكاين الا نفر يسير وظلّ الناس يخرّبون الى أن أمسي المساء ثم عاد الى خيمته وأصبح رابع رمضان فاقام الحجارين في المكاين ورتب عليهم من يستنجزهم في ذلك وهو يتردد عليهم في الأصائل حتى جاء وقت المنرب فمد الطعام وأفطر الناس وانفصلوا الى خيمهم ووقع له أن يسير خفية في نفر يسير يشاهد أحوال القدس فسار من أول الليل حتى أتى بيت نوبة فبات فيها حتى أتى الصباح وصلى ثم سار حتى أتى القدس في خامس الشهر وخلف أخاه في العسكر يحث الناس على الخراب واقام ذلك اليوم يتصفح أحوال القدس في عمارته وميرته وعدته ورجاله وغير ذلك وظفر في ذلك غلمان الطواشي قايماز بنهر من النصارى ومعهم كتب قد كتبها الوالي الى السلطان قريبة التاريخ يذكر فيها اتواز البلد الغلة والمدة والرجال فوقف على الكتب وضربت رقاب كل من كان معهم وما زال يتصفح أحوال المكان ويأمر بسد خالته الى الثامن وخرج سائرا الى العسكر بهد

صلاة الظهر فبات في بيت نوبة . وفي هذا اليوم وصل عز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج أرسلان وافداً عليه مستنصراً به على أخوته وأبيه فانهم كانوا يقصدون أخذ بلده منه فلقية الملك العادل قاطعاً له فاحترمه واکرمه ثم لقيه الملك الافضل وضربت خيمته قريباً من لدة . وفي ذلك اليوم خرج من العدو الحشاشة فدخل عليهم اليزك ووصل الخبر الي عسكرهم فخرج الي نصرتهم خيالة وجرى بينهم وبين اليزك قتال وذكر بعض الاسري انه كان معهم الانكثار وأن مسلماً قصد طعنه فخال بينه وبينه انرنجى فقتل الافرنج وجرح هو هكذا ذكره الله أعلم *

ولما كان التاسع وصل رحمه الله الي المعسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدمه ولقيه ابن قليج أرسلان فنزل له واحترمه واکرمه ونزل في خيمته . وأقام يحث الناس على التخريب وتتواصل أخبار العدو اليه ويقع بينهم وبين اليزك وقعات ويسرق العرب من خيولهم ويقائلهم رجالهم *

﴿ ذكر وصول رسول مركيس ﴾

وفي غضون ذلك وصل رسول المركيس يذكر أنه يصلح الاسلام بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الافرنج بالعداوة ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم واشترط أن يبذل للسلطان اليمين على ذلك ابتداء فسير العدل النجيب وحمله الاجابة الي ملتتمسه لقصد فصله عن الافرنج فانه كان خبيثاً ملعوناً وكان قد استشر من منهم أخذ بلده وهي صور فأنحاز عنهم واستصم بصور وهي منيعة فقال ذلك القول لهذا السبب وسار النجيب العدل مع رسوله في الثاني عشر واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة القوم وحصار عكا وأخذها واطلاق من بها وبصور من الاسري وعند ذلك يسلم اليه الموضعان

وفي عشية ذلك اليوم خرج رسول ملك الانكتار الي الملك العادل في
تحرريك سلسلة الحديث في الصالح*

ولما كان الثالث عشر من رمضان رأي السلطان أن يتأخر العسكر الي
الجبل ليمكن الناس من انفاذ دوابهم الي العلوقة فانا كنا على الرملة قريبين
من العدو ولا يمكن التفريط في الدواب خشية المهاجمة فرحل ونزل على جبل
متصل بجبل النظرون بالثقل الكبير وجمع العساكر ما عدا اليزك على العادة
وذلك بعد خراب الرملة ولد وما نزل هناك دار حول النظرون وأمر بخرابها
وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة فشرع في خرابها

وترددت الرسل بين الملك العادل والانكتار يذكر أن أنه قد سلم أمر
الصالح الي الملك العادل وأخذ اليه وخرج في عشرة أنفس الي اليزك فاخبروه
بأخبار طيبة وكتب بها الي السلطان في السابع عشر وكان مما أخبره به أخوه
أن الملك افرنسيس مات وكان موته بانطاكية عن مرض عرض له وان
الانكتار عاد الي عكا وكان سبب عوده انه صحح عنده مراسلة المرکيس
للسلطان وبلغه أن المرکيس قد انتظم الحال بيننا وبينه وأنه قد استقرت القاعدة
على عكا فعاد هو الي عكا لفسخ هذه المصالحمة واسترجاع المرکيس اليه فركب
السلطان الي اليزك واجتمع باخيه في لدة وسأله عن الاخبار وعاد الي الخيم
وقت العصر وأتي بأثنين من الافرنج قد تخطفهم اليزك فاخبروا بصحة موت
الإفرنسيس وعود الانكتار الي عكا*

﴿ ذكر مسير الملك العادل الي القدس ﴾

ولما كان التاسع عشر اقتضى الحال تفقد القدس والنظر في عمارته وكان
الملك العادل قد عاد من اليزك وعلم بعد مسير مقدمي الافرنج عنا فرأى أن يكون

هو الذي يسير فسار في هذا اليوم لهذا الغرض
وفي تاريخ هذا اليوم وصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه أن قزل
صاحب ديار العجم ابن يلدكز قفز عليه أصحابه فقتلوه وقيل ان ذلك كان من
تحت يد زوجته تمصباً للسلطان طغرل وجرى بسبب قتله خبط عظيم في
بلاد العجم وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة *

ولما كان الحادي والعشرون من رمضان قدم الملك العادل من القدس
وفي هذا التاريخ وصل كتاب من الديوان العزيز النبوي يذكر فيه قصد
الملك المظفر تقي الدين خلاط ويذكر فيه العناية التامة بكتمر ويشفع في حسن
ابن قفجاق والتقدم باطلاقه وكان قد قبض عليه مظفر الدين بن زين الدين
باربل ويتقدم بمسير القاضي الفاضل الي الديوان لبث حال وفصل أمر وسير
الكتاب الي الفاضل ليقف عليه ويكتب الي تقي الدين *

﴿ ذكر أخبار يزك كان على عكا ولصوص دخلوا في خيام المدو ﴾

ولما كان الثاني والعشرون أحضر لصوص فرسا وبغلة قد دخلوا الي
خيم المدو وسرقوها وكان قد رتب رحمه الله ثلاثمائة لص من شلوح العرب
يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم ويسرقون الرجال أحيانا وذلك انه
يكون الواحد منهم نائماً فيوضع على حلقه الخنجر ثم يوقظ فيري الشلح
وقد وضع الخنجر على نحره فيسكت ولا يتجاسر ان يتكلم فيحمل وهو على
هذا الوضع الي أن يخرج من الخيم ويؤخذ أسيراً وتكلم منهم جماعة فنجروا
فصار من أصابه ذلك لا يتكلم واختاروا الاسر على القتل وداموا على ذلك
مدة طويلة الي انتظام الصلح *

وفي ذلك اليوم وصل من اليزك من أخبر أنهم خرجوا من عكا

يتسحون وان اليزك حمل عليهم فاسر منهم أحدا وعشرين نفسا وان الاسرى
أخبروهم بصحة عود الانكتار الي عكا وانه مريض بها وأخبروا عن ضعف
أهل عكا وفقرهم وقلة الميرة عندهم * وفي هذا التاريخ وصل للبدو مراكب
عدة قيل انها وصلت من عكا وان فيها الانكتار قد عاد بجماعة عظيمة ليقتصد
عسقلان ويعمرها وقيل يقصد القدس والله أعلم

ولما كان الرابع والعشرون وصل الاسرى المذكورون من الزيب وكان
وصولهم فرحا للمسلمين مبشرا بكل خير وفيه وصل رسول قزل وكان قد
سيره قبل وفاته ورسول ابن أخيه ايناج وفي عشيته وصل رسول من
الانكتار معه حصان الي الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها اليه . وفيه
وصل خبر وفاة حسام الدين لاجين بدمشق لمرض كان اعتراه فصعب على
السلطان موته وشق عليه وفيه وصل كتاب من سامة يذكر فيه أن البرنس
أغار على جبلة واللاذقية وانه كسر كسرة عظيمة وقتل منه جماعة وعاد
الي انطاكية

﴿ ذكر رسول الملك العادل الي الانكتار ﴾

ولما كان السادس والعشرون كان اليزك للمادل فطلب الانكتار
رسوله فأنفذ اليه الصنيعة وهو كاتبه . وكان شابا حسنا فوصل اليه وهو في
بازور قد خرج في جمع كثير من الرجالة وانبثوا في تلك الارض فاجتمع به
وسار معه زمنا طويلا وحادثه في معنى الصلح وقال لا أرجع عن كلام أتحدث
به مع أخي وصدقتي يعني العادل وذكر له كلاما وعاد وأخبر به فكتبه الملك
العادل في رقعة وأنفذها الي السلطان وكان يتضمن انك تسلم عليه وتقول له
ان المسلمين والافرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين

بالكافية وقد تلفت الاموال والارواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الامر حقه وليس هناك حديث سوي القدس والصليب والبلاد . والقدس متعبدنا ما نزل عنه ولو لم يبق منا الا واحد * وأما البلاد فيعاد اليها ما هو قاطع الاردن * وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فينبئ به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب * ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى ارباب المشورة في دولته واستشارهم في الجواب . والذي رآه السلطان ان قال القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فانه مسري نبينا ومجتمع الملائكة فلا تتصور ان نزل عنه ولا تقدر على التفریط بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الاصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت وما يقدركم الله على عمارة حجر منها مادام الحرب قائماً وما في أيدينا منها ناكل بحمد الله مغله وننتفع به * وأما الصليب فهلاكه عندنا قرينة عظيمة لا يجوز لنا ان نفرط فيها الا لمصلحة راجعة الي الاسلام هي أوفى منها وسار هذا الجواب اليه مع الواصل منه

﴿ ذكر هرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا وكان أسيراً ﴾

ولما كان آخر السادس والعشرين وصل شيركوه بن باخل وهو من جملة الامراء المأسورين بعكا وكان من قصته انه هرب ليلة الحادي والعشرين وذلك انه كان ادخر له جبلاً في مخدته وكان الامير حسن بن باريك ادخر له جبلاً في بيت الطهارة واتفقا على الهرب ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة وانحدرا من السور الاول وعبر شيركوه من الباشورة أيضاً وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الجبل ونزل شيركوه سليماً فراه وقد تغير

من الوقعة فكلمه فلم يجبه وحركه فلم يتحرك فهزه لعله ينشط فيسير معه فلم يقدر فعلم انه اذا اقام عنده اخذا جميعا فتركه وانصرف واشتد هرباً في قيوده حتى أتى تل الياضية وقد طلع الصبح فآمن في الجبل حتى علا النهار وكسر قيده وسار وستر الله حتى أتى المعسكر ومثل بخدمة السلطان وكان من أخباره ان سيف الدين المشطوب ضيق عليه وانه قطع على نفسه قطعة عظيمة من خيل وبغال وأنواع الاموال وان الملك الانكثار أتى عكا وأخذ كل ماله بها من خدمه ومماليكه وأقمشته ولم يبق له منها شيئاً وأن فلاحى الجبل يمدونه بالميرة مدداً عظيماً وأن طنزل السلحدار أخذ خواص مماليك السلطان وهربوا قبل هروبه *

﴿ ذكر رسالة سيرني فيها الملك العادل الى السلطان مع جماعة من الامراء ﴾

وذلك انه لما كان التاسع والعشرون من رمضان استدعاني الملك العادل في صحبته وأحضر جماعة من الامراء علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وشرح لنا ما عاد به رسوله من الانكثار من الرسالة والكلام وذلك انه ذكر انه قد أراد أن يتزوج الملك العادل بأخت الانكثار وكان قد استصحبها معه من صقلية فانها كانت زوجة صاحبها وقد مات فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية فاستقرت القاعدة على أن يكون مستقر ملكها بالقدس وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي بيده من عكا الى يافا وعسقلان الى غير ذلك ويجعلها ملكة الساحل ويجعله ملك الساحل ويكون ذلك مضافاً الى ما في يده من البلاد والأقطاع وأنه يسلم اليه صليب الصلبوت وتكون القرى للداوية والاسبطار والحصون لهما وأسرانا تفك وكذلك أسراهم وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة ويرحل

الانكثار طالبا بلاده في البحر وينفصل الأمر هكذا ذكر رسول العادل عن الانكثار . ولما عرف ذلك العادل بنى عليه أن استحضرنا عنده وحملنا هذه الرسالة الى السلطان وجعلني المتكلم فيها والجماعة يسمعون ونعرض عليه هذا الحديث فان استصوبه وراه مصلحة للمسلمين شهدنا عليه بالاذن في ذلك والرضا به وان أباه شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى الى هذه الغاية وأنه هو الذي رأى ابطاله فلما مثلنا بالخدمة السلطانية عرضت عليه الحديث وتلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين فبادر الى الرضا بهذه القاعدة معتقداً أن الانكثار لا يوافق على ذلك أصلاً فان هذه منه مكر وهزل فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات وهو يقول نعم ويفرح ويشهد على نفسه به فلما تحققتنا منه ذلك عدنا الى الملك العادل فعرّفناه بما قال وعرّفه الجماعة اني كررت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه وأنه أصر على الاذن في ذلك واستقرت القاعدة عليه *

﴿ ذكر عود الرسول الى الانكثار بالجواب عن هذه الرسالة ﴾

ولما كان ثاني شوال سار ابن النحال رسولاً من جانب السلطان ومن جانب الملك العادل فلما وصل الى مخيم العدو وأنفذ من عرف الملك بقدومه أنفذ اليه من قال له ان الملكة عرض عليها أخوها النكاح فسخطت من ذلك وغضبت بسببه وأنكرت ذلك انكاراً عظيماً وحلفت بدينها المغلظ من يمينها انها لا تفعل ذلك وكيف تمكن مسلماً من غشيانها ثم قال أخوها ان الملك العادل يتنصر وأنا أتم ذلك وترك باب الكلام مفتوحاً *

ولما كان خامس شوال وصل الخبر ان الاسطول الاسلامي استولى على مراكب الافرنج وفيها مركب يعرف بالسطح قيل انه كان فيه خمسمائة

نفر وزائد على ذلك وأنه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة مذكورون
وسر المسلمون بذلك وضربت بشار النصر ونعق بوق الظفر فله الحمد والمنة*
ولما كان سادس شوال جمع السلطان أكابر الامراء وأرباب الآراء من
دولته وشاورهم كيف يصنع ان خرج العدو وكان قد تواصلت الاخبار عنهم
انهم قد اتفقوا على الخروج الى العسكر الاسلامي فانفصل الرأي بين ذوى
الآراء على أنهم يقيمون بمنزلتهم بعد تخفيف الأثقال فان خرج الافرنج
كانوا على لقاءهم*

وفي عشية ذلك اليوم استأن من الافرنج اثنان على فرسين وأخبرا أن
العدو على عزم الخروج وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس وذكر انهم لا يعرفون
قصدهم وهرب أسير مسلم من جانبهم وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج الى
الرملة ثم فيها يتفقون على موضع يقصدونه* ولما تحقق السلطان أمر الجاويش
أن ينادى فى العسكر حتى يتجهز جريدة وشدت الرايات واتفق على أنه
يقف قبالة القوم ان خرجوا وسار في السابع مؤيداً منصوراً حتى أتى قبلى
كنيسة الرملة ليلاً نخيم هناك ليلته*

﴿ ذكر خروج الافرنج من يافا ﴾

ولما كانت صبيحة الثامن رتب الابطال للقتال وسلم اليك للملك العادل
وتبعه من يريد من الغزاة وكان قد وصل جماعة من الروم يريدون الغزاة
فخرجوا في جملة من خرج فلما وصلوا الى خيام الافرنج هجم عليهم المماليك
السلطانية لقوة جاشهم وأنسهم بقتالهم وثقتهم بمراكبهم ورموا عليهم النشاب
فراهم الغزاة والواصلون من الروم فاعتروا باقداهم ووافقهم في فعلهم وقاربوا
عسكر العدو فلما رأى الافرنج تلك المضايقة والمنازلة ثارت همهم وحركتهم

نحوتهم فركبوا من داخل الخيام وصاحوا صيحة الرجل الواحد وحملوا في جمع كثير فنجوا من سبق به جواده وقدر في القدم نجاته وظفروا بجماعة فقتل منهم ثلاثة نفر ونقلوا خيامهم الى بازور وأقام السلطان في تلك الليلة بمنزلته الى الصباح

﴿ ذكر وفاة تقي الدين الملك المظفر ﴾

ولما كان الحادي عشر ركب السلطان الى جهة العدو فاشرف عليهم ثم عاد وأمرني بالاشارة الى أخيه بان يحضر معه علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم فلما مثل الجماعة بين يديه أمر خادما ان يخلى المكان عن غير الحاضرين وكنت في جملتهم وأمره بإبعاد الناس عن الخيمة ثم أخرج كتابا من قباه وفضه ووقف عليه وبدأت دموعه وغلبه البكاء والنحيب حتى وافقناه من غير ان نعلم السبب ما هو وفي أثناء ذلك ذكر انه يتضمن وفاة الملك المظفر فأخذ الجماعة في البكاء حتى أتوا بوظيفته ثم ذكرته الله تعالى وانتهى قضائه وقدره فقال استغفر الله ان الله وانا اليه راجعون ثم قال المصلحة كتم ذلك واخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن ننازله ثم أحضر الطعام فأكل الجماعة وانفصلوا وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه هو غير الكتاب الواصل الى حماة بنعيه في طي كتاب وصل من النائب بها وكانت وفاته بطريق خلاط عائدا الى ميفارقين فحمل ميتا الى ميفارقين ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بارض حماة وحمل اليها وزرت ضريحه وكانت وفاته تاسع عشر رمضان سنة سبعة وثمانين *

﴿ ذكر كتاب وصل من بغداد ﴾

ولما كان الثاني عشر من شوال وصل من دمشق كتاب من النواب

بها في طيه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي مجده الله يتضمن
فصولا ثلاثة الاول الانكار على الملك المظفر في مسيره الي بكتير وبولغ فيه
حتى قيل ان الديوان العزيز لا يسلمه . والفصل الثاني يتضمن الانكار على
مظفر الدين في امسك حسن بن قنجاك والامر باعادته الى الكرخاني وبولغ
فيه حتى قيل ان الديوان العزيز لم يأذن لغيره في سكنها . وكانت قصة حسن
ابن قنجاك انه قصد ارمية الي السلطان طغرل فانه كان قد نزل به في معونته لما
هرب من ديار العجم واستنصر به وتزوج أخته ووقع في ذهنه أنه يكون
أتا بكة ويملك به البلاد فقصد ارمية فقتل أهلها على ما قيل وسبي نساءهم
وذراريهم وتعرض للقوافل وكانت معقلة الكرخاني فلما وجد السلطان طغرل
قوته تركه وانصرف عنه وعاد الي بلاده وأظهر الفساد في الارض والتعرض
للقوافل على ما قيل فاستعطفه مظفر الدين صاحب اربل حتى عاد اليه وانخرط
في سلك أصحابه وقبض عليه وأنفذ الي الديوان العزيز ذلك وفي معناه استيلاء
مظفر الدين على بلاده ولعله تشفع الي الديوان فاقتضت عاطفته ذلك في
حقه . واما الفصل الثالث فكان يتضمن التقدم باحضار القاضي الفاضل في
الديوان رسولا لتقرر عليه قواعدويسر اليه أسباب . هكذا كان مضمون الكتاب
واما الجواب عنه فان السلطان أجاب عن الفصل الاول بأننا لم نأمره بشيء
من ذلك وإنما عبر ليجمع العساكر ويعود الي الجهاد فانفتت أسباب اقتضت
ذلك وقد امرناه بالعود . واما الفصل الثاني فأجاب عنه بان عرفهم حال ابن
قنجاك وما تصدى له من الفساد في الارض وانه قد تقدم الي مظفر الدين
حتى يحضره معه الي الشام فيقطعه فيه ويكون ملازما للجهاد . واما الفصل
الثالث فانه اعتذر عن القاضي الفاضل بأنه كثير الامراض وقوته تضعف عن

الحركة الى العراق فهذا كان حاصل الجواب *

﴿ ذكر وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس ﴾

ولما كان ثالث عشر شوال وصل من أخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المركيس صاحب صور وكان قد جزي بيننا وبينه أحاديث مترددة حاصلها أنهم يقطعون عن الافرنج ونصرتهم ويصيرون معنا عليهم بناء على فتنة كانت جرت للمركيس مع الملوك بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لآخي الملك جفري وقبح نكاحها بأمر اقتضاه دينهم فاضطربت آراؤهم فيه فخاف المراكيس على نفسه فأخذ زوجته وهرب تحت الليل الى صور وأخذ الى السلطان والاعتضاد به وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المراكيس عن الافرنج فانه كان أشد هم باسا . وأعظمهم للحرب مراسا . واثبتهم في التدبير أساسا . وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان أمر باجلاله واحترامه فضربت خيمة وضرب حولها شقة ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظماهم وملوكهم وأمر بانزاله في الثقل يستريح ثم يجتمع به *

﴿ ذكر واقعة الكمين الذي استشهد فيه اياس المهراني ﴾

ولما كان سادس عشر شوال أمر السلطان الحلقة أن كمنت للعدو في بطون أودية هناك واستصحبوا جماعة من العرب فلما استقر الكمين في موضعه ظهرت العرب على جاري عاداتها في مناوشتها العدو وكان العدو يخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب قريبا من مخيمه تضرب العرب وتضرب العرب عليهم فضربوا عليهم ووقع الحزب بينهم وثار الصياح وسمع العدو فركب منهم جمع من الخيالة وطلبوا جهة العرب فانهزم العرب بين أيديهم الى

جهة الكمين والعدو يتبعهم طمأ حتى قاربوا الكمين فخرج الكمين عليهم وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد فانهمزوا بين أيديهم نحو خيامهم واتصل الخبر بالعدو فركب منهم خلق عظيم وقصدوا نحو الوقعة والتحم القتال واشتد الامر وقتل جمع من الطائفتين وأسر وجرح جمع من العدو وأخذ منهم خيل كثيرة وكان سبب انفصال الحرب ان السلطان أحس بهذه الوقعة فانفذ أمراء أخر أسلم وسيف الدين يازكج ومن يجري مجراها رداً للمسلمين وقال اذا رأيتم الغلبة على الكمين فاطهروا فلما رأوا الكثرة من جانب العدو خرجوا بخيلهم ورجلهم ولما رأى العدو الاطلاع الاسلامية قد صوبت نحوه أعنته خيلها ولوا الادبار نحو خيامهم والسيف يعمل في أقفيتهم حتى دخلوا الخيام وانفصل الحرب قبيل الظهر وكان السلطان قد ركب متشوقاً أخبار الكمين وكنت في خدمته وكان أول من دخل من الوقعة ووصل جماعة العرب ومعهم خمس رؤس من الخيل قد أخذوها وانفصلوا قبل انفصال الحرب وما زالت الطلائع تتواتر والبشائر تتواصل وقتل من العدو زهاء ستين نفراً وجرح من المسلمين جماعة منهم اياس المهراني وكان شجاعاً معروفاً وجاؤلى غلام القيدى وأسر من العدو فارسان معروفان واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما وعاد السلطان الى خيمته فرحاً مسروراً معوضاً من قتل فرسه متلطفاً بالجريح مترحماً على الشهيد *

وفي بقية هذا اليوم وصل رسول الانكثار الى الملك العادل بعته على الكمين ويطلب الاجتماع به *

﴿ ذكر ما جرى للملك العادل والانكثار واجتماعهما ﴾

ولما كان الثامن عشر سار الملك العادل الى اليزك وضربت له قبة عظيمة

وسار ومعه من الاطعمة والحلاوات والتجملات والتحف ما جرت العادة ان يحمل من ملك الى ملك وهو اذا تجمل في ذلك لا يفلب وسار الانكثار الى خيمته وحضر عنده فاحترمه احتراماً عظيماً ووصل مع الانكثار الى خيمته وأحضر من طعامهم الذي يختصون به ما تحف به الملك العادل على وجه المطايبة فتناول منه الملك العادل وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل وتحادثا معظم ذلك النهار وتفاصيلاً على تواد ومحبة أكيدة *

﴿ ذكر الرسالة التي أنفذها الانكثار الى السلطان ﴾

وفي ذلك اليوم سأل الانكثار الملك العادل ان يلتبس من السلطان الاجتماع به والمثول بين يديه . ولما وصات هذه الرسالة شاور السلطان الجماعة في الجواب فما منهم من وقع له ما وقع للسلطان . وذلك انه قال الملوك اذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك فاذا انقطع أمر حسن الاجتماع والاجتماع لا يكون الالمفاوضة في مهم وانا لا أفهم بلسانك وأنت لا تفهم بلساني ولا بد من ترجمان بينناثق أنا وأنت به فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر وتسبتب قاعدة وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة . قال الرسول ولما سمع الانكثار هذا الجواب استعظمه وعلم أنه لا يقدر على بلوغ غرض الا بالدخول تحت المراضى السلطانية

﴿ ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان ﴾

ولما كان التاسع عشر جلس السلطان واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه وكنت حاضر المجلس فاكرمه اكراماً عظيماً وحادثهم وقدم بين أيديهم ما جرت به العادة . ولما

فرغ الطعام خلا بهم وكان حديثهم في أن السلطان يصلح المرئيس صاحب
 صود وكان قد انضم اليه جماعة من اكابر الافرنجية منهم صاحب صيدا
 وغيره من المعروفين وقد سبقت قصته وكان من شروط الصلح معه اظهار
 عداوة الافرنج البحرية وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم وواقعة وقعت له
 معهم بسبب الزوجة وبذل له السلطان الموافقة على شروط قصد بها الايقاع
 بينهم وأن يقتل بعضهم بعضاً فلما سمع السلطان حديثه وعد أن يرد عليه
 الجواب فيما بعد وانصرف عنه في ذلك اليوم

﴿ ذكر وصول رسول الانكتار وهو ابن الهنغري وهو من ﴾

﴿ اكابرهم وملوكهم ومن اولاد ملوكهم ﴾

وصل وفي صحبته شيخ كبير ذكروا ان عمره مائة وعشرون سنة فأخضره
 السلطان عنده وسمع كلامه . وكانت رسالته ان الملك يقول اني أحب
 صداقتك ومودتك وانك ذكرت انك أعطيت هذه البلاد الساحلية
 لأخيك فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه ولا بد أن يكون لناعلقة بالقدس
 الشريف ومقصودى أن نقسم بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين ولا
 على لوم من الافرنجية فأجابه في الحال بوعد جميل ثم أذن له في الود في
 الحال وتأثر بذلك تأثراً عظيماً وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الاسارى
 وكان منفصلاً عن حديث الصلح فقال ان كان صلح فعلي الجميع وان لم يكن
 صلح فلا يكون من حديث الاسارى شيء وكان غرضه رحمه الله أن يفسخ
 قاعدة الصلح فانه التفت اليّ في آخر المجلس بعد انفصالهم وقال متي ما
 صالحناهم لا تؤمن غائلتهم فاتي لو حدث بي حادث الموت ما تكاد تجتمع
 هذه المساكر وتقوي الافرنج فالمصاححة أن لا نزال على الجهاد حتي نخرجهم

من الساحل أو يأتينا الموت هذا كان رأيه قدس الله روحه وإنما غلب على
الصلح

﴿ ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصالحين بين الانكثار والمركيس ﴾

ولما كان حادى عشر شوآل جمع السلطان الامراء والا كابر وأرباب
المشورة وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس واستقر الامر من جانبه عليها
وهي أخذ صيدا وأن يكون معنا على الافرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعدوان
وذكر ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصالح وهي أن تكون لنا من القرى
الساحلية مواضع معينة وتكون لنا الجبلات بأسرها أو تكون القرى كلها
مناصفة وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس في بيع القدس الشريف
وكنائسه . وكان الانكثار قد خیرنا بين هذين القسمين فشرح قدس الله
روحه الحال في القاعدتين للامراء واستنبط آراءهم في ترجيح أحد الحالين
الانكثار والمركيس وترجیح أحد القسمين المذكورين من جانب الملك
فراى أرباب الراى انه ان كان صالح فليكن مع الملك فان مصافاة الافرنج
للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة غير مأمونة الفائلة وانفض الناس وبقي
الحديث مترددا في الصلح والرسل تواصل في تقرير قواعد الصلح . وأصل
التقاعد ان الملك قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج وأن تكون
البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لها فأما الافرنجية فلها من جانب أخيها
والاسلامية له من جانب السلطان وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى ان
قال ان معاشر دين النصرانية قد أنكروا عالى وضع أختي تحت مسلم بدون
مشاورة البابا وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وهأنا أسير اليه رسولا يعود
في ستة أشهر فان أذن فيها ونعت والآ زواجتك ابنة أخي وما أحتاج الى

اذنه في ذلك . هذا كله وسوق الحرب قائم * والقتال عليهم ضربة لازم *
 وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الاحيان ويشرف على الافرنج وهم
 كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفا من أن ينضاف المركيس الي المسلمين
 وعند ذلك تنكسر شوكتهم ولم يزل الحال كذلك الي خامس عشر شوال

﴿ ذكر رحيله رحمه الله الى تل الجزر ﴾

ولما كان ذلك اليوم أصبح السلطان على عزم الرحيل وأحضر أرباب
 الرأي وشاورهم في جواب رسالة القوم وعرض عليهم حديثه وذكر
 ما عندهم في ذلك وأحضر الرسل وكان ابن الهنغرى يترجم بينه وبين
 البحرين واستقرت القاعدة على أن ينفذ معهم رسولين رسولا من جانبه ومن جانب
 العادل الآخر لأن الحديث كان يتعلق به وكان من جملة رسالتهم ان البابا ان
 أذن في هذا العقد وان لم يأذن زوجنا الملك العادل بابنة أخي الملك وهي
 بكر وذكروا ان من دينهم ان البابا انما يحتاج الي اذنه في تزويج الثيب من
 بنات الملوك وأما الابكار فيزوجها أهلها وانفصل الحال على ذلك وسارت
 الرسل الي خيم الملك العادل ليجوز رسول السلطان ويلحقه ثم وصل بعد ذلك
 من اليزك من أخبر ان الفرنج قد انتشر منهم راجل كثير وخرجوا عن
 الاسوار التي لهم ولم يظهر لخروجهم غائلة وسار رحمة الله عليه الي تل الجزر
 لا رتياد اليزك وتبعه الناس في الرحيل فما كان الظهر الا ورحل الناس الي
 السلطان ونزلنا بتل الجزر . ولما عرف الافرنج بعود السلطان رحلوا عائدين
 وأقام السلطان بتل الجزر ثم رحل الي جهة القدس الشريف ورحل الافرنج
 الي جهة بلادهم واشتد الشتاء وعظمت الامطار وسار السلطان الي القدس
 الشريف وأعطى العسكر دستورا وأقننا بالقدس في ذلك الشتاء أجمع وعاد

العدو الى بلاده ووصل الانكثار عساكره الى يافا وعاد الي عكا ينظر في
أحوالها فأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول اني أوثر الاجتماع بالملك العادل
فقيه مصلحة تعود على الطائفتين فقد بلنني ان السلطان فوض أمر الصلح
الى أخيه الملك العادل فاتفق الرأي في مضي الملك العادل على أنه يمضى بحيث
يجتمع بعساكرنا التي في النور وكوكب وتلك النواحي ويحدثه ويقول له ان
الحديث جري بيننا مراراً وما أسفر عن مصلحة فان كانت هذه الدفعة كتلك
الدفعات فلا حاجة الي الحديث * وان كان النرض بت حال فقارب الحال وأنا
لا أجمع بك الا أن أري ما يقارب فصل الحال وقرر مع الملك العادل ان رأي
ما يمكن معه فصل الحال والا طاولة وماطله الي أن تصل العساكر من
الاطراف فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن انهاء ما ينفصل الحال عليه فكتب
تذكرة فيها المناصفات وذكر فيها من أمر بيروت انه أصر على طلبها وأن
نعطي صليب الصلبوت ويكون لهم في القمامة قس ويفتح لهم باب زيارتها
بشرط أن لا يحملوا السلاح وكان الحامل على ذلك مأخذ الناس من تعب
مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعث عن الاوطان فان من الناس من كان لا يفارق
السلطان ولا يمكنه طلب دستور منه

﴿ ذكر مسير الملك العادل ﴾

وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الاول سنة
ثمان وثمانين وخمسة مائة ثم وصل كتابه من كيسان يخبر أنه لقيه الهنغري
مع الحاجب أبي بكر رسولا من الانكثار يقول انا قد وافقنا على قسمة
البلاد وان كل من في يده شيء فهو له فان كان ما في أيدينا زائدا أخذتم
في مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا وان كان ما في أيديكم أكثر فعلنا كذلك

ويكون القدس لنا ولكم فيه الصخرة هكذا كان مضمون الكتاب فوقف
السلطان عليه الامراء فاستصوب ذلك الامير أبو الهيجاء ورأوا من حال
هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل وهو مصلحة وسار الجواب الى
الملك العادل في ذلك *

ولما كان حادي عشر ربيع الاول وصل الحاجب أبو بكر صاحب
الملك العادل يخبر ان الانكثار سار الي يافا من عكا وأن الملك العادل ما
رأى أن يجتمع به الا عن قاعدة منفصلة وانه جري بين هذا الحاجب
وبين الانكثار مفاوضات كثيرة حاصلها انه نزل على ان تكون الصخرة لنا
والقلعة في أيدينا والباقي مناصفة وان لا يكون في البلد منهم مذكور وان
تكون قرى القدس وباطنه مناصفة ثم قدم الملك العادل في سادس عشر
ربيع الاول من الغور ولقيه السلطان وحكى ما سبق من الخبر *

وفي بقية ذلك اليوم وصل من أخبر ان الافرنج أغاروا على حلة عرب
قريبة من الدارون وأنهم أخذوا منهم جماعة وانهم أخذوا منهم زهاء ألف
رأس غنم فعظم ذلك على السلطان وشق عليه فسير جماعة فلم تلحقهم

﴿ ذكر انفصال رسول المراكيس ﴾

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولا من جانب المراكيس
يلتمس الصلح مع المسلمين فاشترط رحمة الله عليه شروطاً منها ان يقاتل
جنسه ويباينهم . ومنها ان ما يأخذه من البلاد الافرنجية بعد الصلح بانفراده
يكون له وما تأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا وما نتفق نحن وهو على أخذه
تكون له نفس البلد ويكون لنا ما فيه من أسرى المسلمين وغير ذلك من
الاموال . ومنها أن يطلق لنا كل أسير مسلم في مملكته . ومنها ان فوض

الانكثار اليه أمر البلاد لأمر يجري بينهم كأن الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الانكثار ما عدا عسقلان وما بعدها فلا يدخل في الصلح وتكون الساحليات له وما في أيدينا لنا وما في الوسط مناصفة وسار رسوله على هذه القاعدة *

ولما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ربيع الاول وصل أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ووصل جريدة مقدما على عسكره *

﴿ ذكر خروج سيف الدين المشطوب من الاسر ﴾

وكان وصوله الي القدس الشريف يوم الخميس مستهل جمادي الآخري دخل على السلطان بغتة وعنده أخوه الملك العادل فتمض له واعتقه وسر به سرورا عظيما وأخلى المكان وتحدث معه بطرف من أحداث العدو وسأله عن حديث الصلح فذكر أن الانكثار سكت عنه *

وفي هذا اليوم كتب السلطان الي ولده الملك الأفضل ان يسير الي قاطع الغزاة ويستلم البلاد من الملك المتصور بن الملك المطهر وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السلطان على نفسه وأظهر ذلك ودخل في أمره الملك العادل وسير الي الملك العادل حتي يتحدث في أمره . وكان ذلك قد شق على السلطان وأثار منه غيظا عظيما كيف يكون هذا الامر من أهله ولم يكن أحد من أهله خاف منه ولا طلب يمينه وهذا كان السبب في توقف الانكثار في الصلح فانه ظن ان خلافه يكدر للسلطان شرب الغزاة ويحوجه الي الموافقة على ما يرضاه فانفذ الي الملك الأفضل ان يسير الي البلاد وكتب الي الملك الظاهر بحلب المحروسة ان أخاه ان احتاج الي معونة عاونه وجهزه بحملة كبيرة وسار باحترام

عظيم حتي وصل الى حلب واكرمه أخوه الملك الظاهر اكراما عظيما وعمل له ضيافة تامة وقدم بين يديه مقدمة سنوية. وعذنا الى حديث العدو *

﴿ ذكر عود رسول صور ﴾

ولما كان سادس ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وصل يوسف من جانب المريكس يحدد حديث الصلح ويقول قد انفصل الحال على شيء بينه وبين الافرنجية فان نجح في هذه الايام سارت الفرنسية في البحر وان تأخر بطل الحديث في الصلح بالكافية فرأى السلطان الصلح مع المريكس مصلحة لا اشتغال قلبه من جانب الشرق وخاف ان يتصل ابن تقي الدين بكتبر فيحدث من ذلك ما يشغل الخاطر من الجهاد فأجاب الي ملتبس المريكس وكتب مع صاحبه مواضعة على نعت ما تقدم وسار يوسف الرسول بالجواب تاسع ربيع الآخر *

﴿ ذكر قتل المريكس ﴾

ولما كان السادس عشر من الشهر وصل من الرسول المنفذ الى المريكس كتاب ان المريكس قتل وعجل الله بروحه الى النار وكانت صورة قتله انه تقدم يوم الثلاثاء ثالث عشر عند الاسقف ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين وكان خفيفاً من الرجال فما زالوا يضربانه حتي عجل الله بروحه الى النار وأمسك الشخصان وسئلا عن هذا الامر ومن حضهما عليه فقالا ان الانكثار حملنا عليه وقام بالامر اثنان فحفظا القلعة الي ان اتصل الخبر بالملوك وانعقد الامر وتدبر المكان *



﴿ ذكر تمة خبر الملك المنصور وما جري له ﴾

وذلك أنه لما بلغه مؤاخذه الله لمطان أنفذ إلى الملك العادل رسولا يشفع به ليطيب قلب السلطان ويقترح عليه أحد قسمين إما حران والرها وسيساط وإما حماء ومنبج وسلمية والمعرة مع كفالة اخوته فراجع الملك العادل السلطان مرارا فلم يجبه إلى شيء من ذلك فكثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء وهزت شجر رافة منه فرجع خلقه النبوي وحلف له على حران والرها وسيساط على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع أفراجها وتكفل اخوته ويتخلى عن تلك المواضع التي في يده ودخلت تحت ضمان الملك العادل ثم التمس الملك العادل خط السلطان ثانياً ولج عليه فمزق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر وانفصل الحال وانقطع الحديث وكنت المتردد بينهما في ذلك وأخذ الغيظ السلطان كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب اولاد اولاده *

﴿ ذكر قدوم رسول ملك الروم ﴾

ولما كان مستهل جمادى الأولى وصل رسول من قسطنطينية الكبرى والنقي بالاحترام والاكرام ومثل بالخدمة السلطانية في ثالث الشهر وكانت رسالته تشتمل على مطالب منها صليب الصلבות ومنها أن تكون القمامة بيد قسوس من جانبه وكذا سائر كنائس القدس ومنها أن يكون الاتفاق معه على أن يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه وان يوافق على قصد جزيرة قبرص فاقام عنده يومين ثم سير معه رسولا يقال له ابن البراز من الديار المصرية وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته وقيل ان الصايب قد بذل فيه ملك الكرج مئتي الف دينار فلم يجب إلى ذلك *

﴿ ذكر ماجري للملك العادل في البلاد التي هي قاطع القررات ﴾

وذلك انه لما سار الملك الافضل رفق الملك العادل قلب السلطان على ابن
 تقي الدين وقد كثر الحديث في معناه. وأتقذني السلطان لمشاورة الامراء
 في خدمة الملك العادل في أمره فجميعهم في خدمته فذكرت لهم ما ارسلني
 فيه اليهم فانتدب الامير حسام الدين أبو الهيجاء للجواب وقال نحن عبيده
 وبماليك وذلك بصبي وربما جملة خوفه أن انضاف الى جانب آخر ونحن
 لا نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار فان أراد اننا نقاتل المسلمين
 صالحنا الكفار وسرنا الى ذلك الجانب وقاتلنا بين يديه وان أراد منا ملازمة
 النزاهة صالح المسلمين وسامحهم. وهذا كان جواب الجميع فرق السلطان وجدد
 نسخة يمين لابن تقي الدين وحلف له بها واعطاه خطه بما استقر من
 المعاهدة. ثم ان الملك العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي
 الدين بعد استقلاله وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها وكنت الرسول
 بينهما وكان آخر ما استقر انه يسلم تلك البلاد وينزل عن كل ما هو شامي
 القررات ما بعد الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وحاصه بمصر بعد النزول
 عن الجزيرة وعليه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت
 والبلقاء الى القدس والمغل في السنة المذكورة في مواضعه له ومغل قاطع
 القررات في هذه السنة للسلطان أيضاً وأخذ خط السلطان بذلك وسار بنفسه
 يصلح أمر ابن تقي الدين ويطيب قلبه وكان مسيره في ثامن جمادي الاولى *

﴿ ذكر استيلاء الفرنج على الدارون ﴾

وكان الافرنج خذلهم الله تعالى لمبا رأوا أن السلطان قد أعطي المسافر

دستورا وتفرقت المساكر عنه نزلوا على الدارون طمعا فيه وكان بيد علم الدين قيصر وفيه نوابه . ولما كان يوم تاسع جمادى الاولى اشتد زحف العدو على المكان راجلا وفارسا وكان الانكثار قد استنفذ من نوبة عكا نقاين جبليين فتمكنوا من نهب المكان وأحرقوا النقب وطلب أهل الحصن مهلة بحيث يشاورون السلطان فلم يمهلوا واشتدوا في القتال عليه فأخذوه عنوة واستشهد فيه من قدر الله له ذلك وأسر من قدر له ذلك وكان ذلك قدرا مقدورا

﴿ ذكر قصد مجدل يابا ﴾

ولما استولى الافرنج على الدارون ساروا بعد ان قرروا أمره ووضعوا فيه من اختاروا حتى نزلوا على منزلة يقال لها الحسي وهي قريب من جبل الخليل عليه السلام وذلك في رابع عشر جمادى الاولى فأقاموا عليه ثم تأهبوا بقصد حصن يقال له مجدل يابا فأتوه جريدة وخلفوا خيامهم في منزلتهم وكان بها عسكر اسلامي فلقبهم وجرى بينهم قتال عظيم وقتل من العدو كند مذكور واستشهد من المسلمين فارس واحد كان سبب قتله انه وقع ربحه فنزل ليأخذه فمنعه فرسه الركوب فبادروه وقتلوه وعادوا الي خيامهم بقية اليوم خائين والله الحمد

﴿ ذكر وقعة جرت في صور ﴾

ولما كان سادس عشر جمادى وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر انه تخلف في صور مائة راكب وانضم اليهم من عكا خمسون وطمعوا فخرجوا لشن الغارات على البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف وجرى بينهم قتال شديد وقتل من العدو خمسة عشر

يفرأ ولم يقتل من المسلمين أحد وعادوا خائبين والله الحمد

﴿ ذكر قدوم العساكر الإسلامية للجهاد ﴾

ولما رأى السلطان ما جرى من العدو من التنبط سير الي العساكر من سائر الاطراف أن يسابقوا الى الحضور وكان أول قادم بدر الدين دلدرم مع خلق كثير من التركمان فثقيه السلطان واحترمه ووصل به اليه عن الدين ابن المقدم في سابع عشر جمادى الاولي بمسكر حسن وآلات جميلة ففرح به السلطان

وأما العدو فانه رحل من الحسي ونزل على مفرق طرق منها طريق عسقلان وطريق الى بيت جبرين والي غير ذلك من الحصون الإسلامية . ولما بلغ السلطان ذلك أمر العساكر ان سارت نحوه فخرج أبو الهيجاء السمين وبدر الدين دلدرم وابن المقدم وتابعت المسكر وتخلف هو في القدس لنوع الثياب كان عرض له فلما أحس العدو المخذول بظهور العساكر هرب الإسلامية عاد خائباً خاسراً ناكصاً على عقبيه ووصلت الكتب من الامراء بمخبرين برحيل العدو الى عسقلان

﴿ ذكر تعبئة العدو لتصد القدس الشريف ﴾

ولما كان يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الاولي وصل قاصد من العساكر يخبر ان العدو قد خرج في راجله وفارسه وسواد عظيم وخيم على مثل الصافية فسير السلطان الي العساكر الإسلامية ينذرها ويحذرهما واستدعى الامراء جريدة اليه ليعقدوا رأيا فيما يقع العمل بمقتضاه فوصل ورحل العدو من تل الصافية الى جانب النظرون فنزل شماله وذلك في السادس والعشرين

من جمادى الاولى وكانت قد سارت من عرب الاسلام جماعة للغارة على
 يافا فوصلوا بليل من غير علم بحركة العدو فنزلوا في بعض الطريق يقسمون
 فوقعت عليهم عساكر العدو فأخذوهم وهرب منهم ستة نفر فوصلوا الي
 السلطان وأخبروه الخبر ووصلت الجواسيس وتواترت الاخبار من جانب
 العدو انه مقيم بالنظرون لنقل الازواد والآلات التي تدعو الحاجة اليها في
 الحرب فاذا حصل عندهم ما يحتاجون اليه قصدوا القدس الشريف حرسه
 الله تعالى . وفي يوم الاربعاء وصل منهم رسول صحبته غلام كان للمشطوب
 عندهم يحدث في معنى قراقوش ويتحدث في معنى الصلح

﴿ ذكر نزولهم في بيت نوبة وهو موضع وطاة بين ﴾

﴿ جبال يبننا بينه وبين القدس مرحلة ﴾

رحل العدو من النظرون يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى
 الاولى ونزلوا ببيت نوبة . ولما عرف السلطان ذلك استحضر الامراء
 وضرب المشورة فيما يفعل فكانت خلاصة الرأي أن يقسم الاسوار على
 الامراء ويخرج ببقية المسكر جريدة الى جهة العدو فاذا عرف كل قوم
 موضعهم من السور استعدادوا فان دعت الحاجة اليهم خرجوا وان دعت
 الحاجة الى ملازمة مواضعهم لازموها فكتبت الرقاع وسيرت الي الامراء
 وكانت طريق يافا سابلة لمن ينقل الميزة الي العدو فأمر السلطان من في
 الزك أن يعمل معهم ما يمكنه وكان في الزك بدر الدين دلدرم فكمن حول
 الطريق جماعة جيدة فر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة
 فاستضعفهم فحملوا عليهم وجرى قتال عظيم كانت الدائرة فيه على العدو وقتل منهم
 ثلاثون نفرا وأسر جماعة ووصل الاسارى في التاسع والعشرين من جمادى الاولى

الى القدس وكان لدخولهم وقع عظيم وجرى على العدو من ذلك وهن كبير
وقويت قلوب اليزكية وانبعث همهم حتى حملوا على المسكر ونزلوا الي
أطراف الحيم والله الحمد

ولما علم المسلمون ان القوافل لا تنقطع خرج جماعة وأخذوا معهم عربا
كثيرا وكنوا كمينا واجتازت القافلة ومعها جماعة كثيرة فخرجت العرب على
القافلة وتبعتهم الحيلة فدحروا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين فخرجت
الأتراك عليهم فأخذوا وقتلوا وجرح من الأتراك جماعة وذلك في ثالث
جهادى الآخرة

﴿ ذكر أخذ قافلة مصر حرسها الله تعالى ﴾

وذلك انه كان قد تقدم الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز
والاحتياط عند مقاربة العدو فاقاموا ببليس أياما حتى اجتمعت القوافل اليهم
واتصل خبرهم بالعدو ثم ساروا طالبين البلاد والعدو يترقب أخبارهم ويتوصل
اليها بالعرب المفسدين . ولما تحقق العدو خبر القوافل أمر عسكره بالاحتياط
والتحفظ وسار حتى أتى تل الصافية فبات ثم سار حتى أتى الصافية ثم علق
على خيله فثة وسار حتى أتى ماء يقابل الحسي واتصل خبر نهضة العدو بالسلطان
فانفذ بندير للقافلة وكان المندوب لذلك الامير آخر أسلم والطنبا العادلي
وجماعة من الفرسان المذكورين وأمرهم ان يبعدوا بالقافلة في البرية ويتباعدوا
عن العدو ما أمكن فاتفق ان العسكر وصل الحسي قبل وصول العدو اليه
فلم يقيموا عليه وساروا حتى وصلوا القفل والمسكر المصرى فاتوا بالقفل على
ذلك الطريق ثقة منهم بانهم لم يجدوا فيه ذاعرا ولا أحسوافيه بمخوف فرغبوا في
قرب الطريق وسلكوا بالناس هذا الطريق حتى وصلوا الي ماء يقال له الحويلمة

وتفرق الناس لاجل الماء فاخبر العرب العدو بذلك وهو نازل برأس الحسى فقام من وقته وسري حتى أتاهم قبيل الصبح وكان مقدم العسكر فلك الدين أخو الملك العادل لأمه فإشار أسلم بالمسير ليلا قطعاً للطريق واستظهاراً بالصمود إلى الجبل فخاف فلك الدين أنه إن رحل بالليل جرى أمر على القافلة لتبدها فنادى في الناس أن لا يرحلوا إلى الصباح *

وأما الانكثار فبلغنا أنه لما بلغه الخبر لم يصدقه وركب مع العرب بجمع يسير وسار حتى أتى القفل فطاف حوله في صورة عربي وراهم ساكنين قد غشيم الناس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريب الصباح فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله وكان الشجاع هو الذي ركب فرسه ونجا بنفسه وانهمز الناس إلى جهة القفل والعدو يتلوهم فلما رأوا القفل اعرضوا عن قتال العسكر وطلبوا القفل فانقسم القفل ثلاثة أقسام قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وعسكر الملك العادل وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب أيضاً. وقسم استولى عليهم العدو فساقهم بجهلهم وأحمالهم وجميع ما كان معهم وكانت وقعة شنعاء لم يصب الإسلام بمثلاً من مدة مديدة . وكان في العسكر المصري جماعة من المذكورين كحسين الجراحي وفلك الدين وبني الجاولي وغيرهم من المذكورين . وقتل من العدو زهاء مئتي فارس على رواية . وعشرة أنفس على رواية . ولم يقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف وابن الجاولي الصغير فانهما استشهدا إلى رحمة الله تعالى وتبدد الناس في البرية ورهوا أموالهم وكان السعيد منهم من نجا بنفسه وجمع العدو ما أمكنهم جمعه من الخيل والبغال والجمال والاقمشة وسائر أنواع الاموال وكلف الجمالين خدمة الجمال والحربندية

خدمة البغال والساسة خدمة الخيل وسار في جحفل من النبية يطالب
عسكره فنزل على الخويلذة فاستقى منها ثم سار حتى أتى الحبي * ولقد حكي
لى من كان أسيراً معهم انه فى تلك الليلة رقع فيهم الصوت ان عسكر السلطان
قد قصدهم فتركوا الغنيمة وانهمزوا وبعـدوا عنها زمانا ولما انكشف لهم أن
العسكر لم يلحقهم عادوا الى الرحل وهرب فى تلك النبية جمع من أسارى
المسلمين وكان الحاكي منهم فسألته بكم حزرتم الجمال والخيل فاخبر ان الجمال
تناهز ثلاثة آلاف والأسارى خمسمائة وتقرب من ذلك عدة الخيل
وكانت هذه الواقعة صبيحة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة ووصل
الخبر الى السلطان فى عشية ذلك اليوم بعد العشاء الآخرة وكنت جالسا فى
خدمته وأوصل الخبر شاب من الاصطبلية فما مر بالسلطان خبر انكى منه
فى قلبه ولا اكثر تشويشا لباطنه وأخذت فى تسكينه وتسايته وهو لا يكاد
يقبل التسلية *

وكان أصل هذه القضية أن الامير أسلم أشار عليهم أن يصعدوا
الجبل فلم يفعلوا فصعد هو وأصحابه فلما وقعت الكبسة كان هو على الجبل فلم
يصل اليه أحد من العدو ولم يشعروا به . ولما انهزم المسلمون تبعتهم خيالة
لافرننج وأقام الرجالة منهم يستولون على ما تخلف من المسلمين من الاقمشة
ولما تحقق الامير أسلم ان الخيالة قد بعدت عن الرجالة نزل اليهم بمن معه
من الخيالة وكبسهم من حيث لم يشعروا وقتلوا منهم جماعة وغنموا منهم
دواب من جعلها بغلة كانت تحت هذا القاصد * ثم سار العدو يطلب خيامه
فكان وصوله الى المخيم يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة وكان يوما
عظيما عندهم أظهروا فيه من السرور وأسبابه مالا يمكن وصفه وأعادوا

خيمهم الي الوطأة على بيت نوبة وصح عزمهم على القدس وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الاموال والجمال التي كانت تحمل الميرة والزاد الواصلة من مصر مع عسكرها ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقلون الميرة وأنفذوا الكندهري الي صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا الي القدس ولما عرف السلطان ذلك منهم عاد الي الاسوار فقسما على الامراء وتقدم اليهم بتهيئة أسباب الحصار وأخذ في افساد المياه بظاهر القدس وتخريب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلاً وأظن في ذلك اطناباً عظيماً وأرض القدس لا يطمع في حفر بئر بها فيها ماء معين لانها جبل عظيم وحجر صلب وسير الي العساكر يطلبها من النواحي والبلاد *

﴿ ذكر قدوم الملك الافضل وأمره بالعود عن تلك البلاد ﴾
« وكان قد وصل الي حلب المحروسة »

ولما وصل أمر السلطان اليه بالعود عاد مع انكسار في قلبه وتشويش في باطنه فوصل الي دمشق مستقبلاً ولم يحضر الي خدمة السلطان فلما اشتد خبر الافرنج سير اليه وطابه فما وسعه التأخر فسار مع من كان قد وصل من العساكر الشرقية الي دمشق وكان وصوله في يوم الخميس تاسع عشر جمادى الاخرى ولقيه السلطان قريباً من العازرية فترجل له جبراً لقلبه وتمظيماً لأمره وسار وفي خدمته أخوه الملك الظافر وقطب الدين الي ظاهر القدس



﴿ ذكر عود العدو الي بلادهم وسبب ذلك ﴾

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الاخرى استحضر السلطان الامراء عنده فحضر الامير ابوالهيجاء السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خيمة السلطان وحضر المشطوب والاسدية بأسرهم وجماعة الامراء ثم أمرني ان اكلهم وأحشهم على الجهاد فذكرت ما يسره الله من ذلك. وكان مما قلته ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الامر بايئه الصحابة رضي الله عنهم على الموت في لقاء العدو ونحن أولى من تأسي به صلى الله عليه وسلم والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ولعل بركة هذه النية يندفع هذا العدو فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا في صورة مفكر والناس سكوت كأن على رؤسهم الطير فقال « الحمد لله . والصلاة على رسول الله . اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته . واتم تعلمون ان دماء المسلمين واموالهم وذرايرهم معلقة بدمكم وان هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقاه الا اتم فان وليتم بانفسكم والعياذ بالله طوى البلاد طي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم فانكم اتم الذين تصديتم لهذا واكتم مال بيت المال فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » * فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يا مولانا نحن ممالكك وعبيدك وأنت انعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطينتنا وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك . والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك الي ان نموت فقال الجماعة مثل ما قال فانبسطت نفسه بذلك المجلس وطاب قلبه وأطعمهم ثم انصرفوا وانقضى يوم الخميس على أشد حال التأهب والاهتمام حتى كانت العشاء الاخرة وجميعنا في خدمته على العادة وسهرنا حتى مضي من الليلة هزيع وهو غير

منبسط على عادته ثم صلينا العشاء وكانت العشاء هي الدستور العام فصلينا
واخذنا في الانصراف فاستدعاني فلما جلست في خدمته قال لي علمت ما الذي
تجدد قلت لا قال ان ابا الهيجاء السمين انفذ الى اليوم وقال انه اجتمع عنده جماعة
من المماليك وانكروا علينا موافقتنا على الحصار وقالوا لا مصلحة في ذلك فانا
نخاف ان نحصر ويجرى علينا مثل ما جرى على عكا وحينئذ تؤخذ بلاد
الاسلام اجمع والرأي ان نلقى مصاف فان قدر الله تعالى ان نهمهم ملكنا
بقية بلادهم . وان تكن الاخرى يسلم العسكر ويمض القدس وقد حفظ
الاسلام بعساكره مدة بغير القدس وكان رحمه الله عنده من القدس امر
عظيم لا تحمله الجبال فشقت عليه هذه الرسالة واقمت تلك الليلة في خدمته
وهي من الليالي التي احييتها في سبيل الله . وكان مما قالوه في الرسالة ان
اردت ان تقيم فتكون معنا انت او بعض اهلك والافالكراد لا يدينون
للاتراك والاتراك كذلك فانفصل الحال على ان يقيم من اهله مجد الدين بن
نخروشاه وصاحب بعلبك . وكان رحمه الله يحدث نفسه بالمقام ثم صرف
رأيه عنه لما فيه من الخطر على الاسلام فلما ان قارب الصبح واشفتت عليه
خاطبته في ان يستريح ساعة وانصرفت عنه فما وصلت الا والمؤذن قد اذن
فاخذت في أسباب الوضوء فما فرغت الا والصبح قد طلع فعدت الى خدمته
وهو يجدد الوضوء فصلينا ثم قلت له قد وقع لي واقع اعرضه قال وما هو
قلت من كثر اهتمامه بما قد حمل على نفسه وقد عجزت اسبابه الارضية
ينبغي له ان يرجع الى الله وهذا يوم الجمعة وهو ابرك أيام الاسبوع فيه دعوة
مستجابة ونحن في ابرك موضع فالسلطان يغتسل ويتصدق بصدقة خفية
بحيث لا يشعر احد انها منه ويصلي بين الاذان والاقامة ركعتين يناجي

فيهما ربه ويفوض مقاليد اموره اليه ويدترف بالمعجز عما تصدي له فلعل الله
يرحمه ويستجيب دعائه وكان حسن العقيدة تام الايمان يتلقى الامور الشرعية
باكمل انقياد. ثم انفصلنا فلما جاء وقت الجمعة صليت الي جانبه في الاقصى فصلى
ركعتين ورأته ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه ثم
انقضت الجمعة بخير ولما كانت عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت
رقعة من جرديك وكان في اليزك وكان جملة ما فيها أن القوم ركبوا بأسرهم
ووقفوا في التل وقت الظهيرة ثم عادوا الى خيامهم وقد سيرنا جواسيس
تكشف أخبارهم. ولما كانت صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها
أن الجواسيس رجوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود الى القدس والرحيل
الى بلادهم فذهبت الفرنسية الى الصعود الى القدس وقالوا نحن انما جئنا
من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه، وقال الانكثار ان هذا الموضع
قد افسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلاً فمن أين نشرب فقالوا له نشرب
من نهر نقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ فقال كيف نذهب الى السقى
فقالوا ننتقم قسمين قسم يركب الي السقى وقسم يبقى على البلد في المنازلة
ويكون الشرب في اليوم مرة فقال الانكثار اذا يؤخذ العسكر البراني الذي
يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقيين ويذهب دين النصرانية
فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم وحكم الثلاثمائة اثنى عشر وحكم
الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فما أروا به فعلوه. فلما أصبحوا
حكموا بالرحيل فلم تمكنهم المخالفة وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادي
الآخرة راحلين نحو الرملة وعلى أعقابهم ناكسين ولله الحمد ومضى عسكرهم
شاكياً السلاح ولم يبق في المنزلة الا الآثار ثم نزلوا الرملة وتواترت الاخبار

بذلك فركب السلطان وركب الناس وكان يوم سرور وفرح

﴿ ذكر رسالة الكندهري ﴾

ولما فرغ بال السلطان برجيل العدو حضر رسول الكندهري يقول ان الانكتار قد أعطاني البلاد الساحلية وهي الآن لي فأعد عليّ بلادي حتي أصالحك واكون أحد أولادك فغضب السلطان لذلك غضبا عظيما بحيث انه كاد يبطش به فأقيم من بين يديه فسأل أن يمهل لي يقول كلمة أخري فأذن له في ذلك فقال يقول ان البلاد في يدك فما الذي تعطيني منها فاتهره وأقامه

ولما كان اليوم الثالث والعشرون حضر الرسول وكان جوابه أن يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ما كان مع المركيس * ثم وصل بعد ذلك الحاجب يوسف صاحب المشطوب من عند الافرنج وذكر أن الانكتار أحضره وأحضر الكندهري وأخلى المجلس وقال له قتل لصاحبك انا قد هلكنا نحن وأتم والأصلح حقن الدماء ولا ينبغي أن تعتقد ان ذلك لضعف مني بل للمصلحة ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح وأن يكون هو الوساطة بينهم وبين السلطان وأنفذ مع الحاجب شخصين يسمعان الكلام من المشطوب وكان ظاهر الحال الكلام في اطلاق بهاء الدين قراقوش وباطنه في معني آخر وأخبر الحاجب أنهم رحلوا عن الرملة قاصدين يافا وأنهم على غاية الضعف والعجز عن قصد مكان آخر فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة وكان الجواب الى الكندهري أن نعطي عكا ونصالحه على مال ويتركنا والانكتار على بقية البلاد

وكان رحمه الله قد جعل في مقابلة عكا عسكريا خشية خروج العدو الى النواحي التي تليها فلما كان الثاني والعشرون خرج العدو من عكا غائرين على

ما يليها من البلاد والرسائق فثارت عليهم الكمينات من الجوانب وكان قد
 شعر العسكر الاسلامي بخروجهم فكمن لهم فأخذوا منهم جماعة وقتلوا
 جماعة ولله الحمد

﴿ ذكر عود رسولهم في معنى الصلح ﴾

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر عاد رسولهم صحبة
 الحاجب يوسف وقد حمل الحاجب يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم
 وهي ان الملك الانكتار يقول اني راغب في مودتك وصدقتك وانه لا يريد
 ان يكون فرعون بملك الارض ولا يظن ذلك فيك ولا يجوز لك ان تهلك
 المسلمين كلهم ولا يجوز لي ان اهلك الا فرنج كلهم وهذا ابن أختي الكندهري
 قد ملكته هذه الديار وسلمته اليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك ولو
 استدعيتهم الي الشنق سمعوا وأطاعوا ويقول ان جماعة من الرهبان المنقطعين
 قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها وأنا أطلب منك كنيسة وتلك
 الامور التي كانت تضيق صدرك مما كان يجري في المراسلة مع الملك العادل
 تركتها وأعرضت عنها. ولو أعطيتني مفرعة أو خربة قبلتها. فلما سمع
 السلطان هذه الرسالة جمع أرباب الرأي وأصحاب مشورته وسألهم عما يكون
 الجواب لهذه الرسالة فما منهم الا من أشار بالمحاسنة وعقد الصلح لما كان
 قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب وعلاهم من الديون. واستقر الحال
 على هذا الجواب

اذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الاحسان الا الاحسان ان ابن أختك
 يكون عندي كبعض اولادى وسيلفك ما فعل معه وأنا أعطيك اكبر الكنائس
 وهي القمامة وأما بقية البلاد فنقسمها بالساحلية التي بيدك تكون بيدك والذي

بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا وما بين العملين يكون مناصفة وعسقلان وما وراءها يكون خرابا لا لنا ولا لكم وان أردتم قراها كانت لكم والذي كنت أكرهه حديث عسقلان *

وانفصل الرسول طيب النفس وذلك في ثاني يوم قدومه وهو الثامن والعشرون واتصل الخبر بعد وصول الرسول اليهم انهم راحلون الى عسقلان طالبون جهة مصر ووصل رسول من جانب قطب الدين ابن قليج ارسلان يقول ان البابا قد وصل الى القسطنطينية في خلق لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقال الرسول اني قتلت في الطريق اثني عشر فارسا . ويقول تقدم الي من يستلم بلادي مني فاني قد عجزت عن حفظها فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولم يكثر به

﴿ ذكر عود رسول الافرنج ثالثا ﴾

ولما كان التاسع والعشرون وصل الحاجب صاحب المشطوب ومعه جفري رسول الملك فقال ان الملك شكر انعام السلطان وقال ان الذي أطلبه منك ان يكون لنا في قلعة القدس عشرون رجلا وان من سكن من النصارى والافرنج لا يتعرض اليهم وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة والبلاد الجبلية لكم . وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة انه قد نزل عن حديث القدس ما عدا الزيارة ولكن يقول ذلك تصنعنا لضعفنا وانهم راغبون في الصلح وان الانكثار لا بدله من الرواح الي بلده وأقام يوم الاثنين صلح الشهر وكان معه في هذه الدفعة بازيان هدية لسلطان فاستحضر الامراء بأسرهم وشاورهم فيما يكون الجواب لهذه الرسالة وانفصل الحال على هذا الجواب وهو ان القدس ليس لكم فيه حديث سوي الزيارة فقال الرسول وليس على

الزوار شيء يؤخذ منهم . فعلم من هذا القول الموافقة وأما البلاد كعسقلان وما وراءها فلا بد من خرابه فقال الرسول قد خسر الملك على سورها ما لا جزيلا فقال المشطوب للسلطان المصلحة ان تجعل مزارعها وقراها في مقابلة خسارتها فاجاب وان الدارون وغيره تخرب وتكون بلادها مناصفة . وأما باقى البلاد فتكون لهم من يافا الى صور باعمالها . ومهما اختلفنا في قرية كانت مناصفة هكذا كان جواب رسالته وسار في يوم الثلاثاء مستهل رجب ومعه الحاجب يوسف وكان قد طلب رسولا مذكورا يحلفه ان استقرت القاعدة فأخر السلطان تسيير الرسول الى حين استقرار القاعدة وأنفذهم هدية حسنة في مقابل هديتهم وما كان يغلب في الهدايا

﴿ ذكر عود الرسول ﴾

كان عوده وقد مضى هزيع من ليلة ثالث رجب فحضر الحاجب ليلا وأخبر السلطان الخبر وحضر الرسول في بكرة الخميس الثالث من رجب وأدى الرسالة وهي ان الملك يسأل ويخضع لك ان ترك له هذه الاماكن الثلاثة عامرة وأى قدر لها في ملكك وعظمتك وما من سبب لاصراره عليها الا ان الافرنج لم يسمحوا بها وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس الا في القمامة وحدها فانت تترك له هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل ما في أيديهم من الدارون الى انطاكية ولكم ما في أيديكم وينتظم الحال ويروج وان لم ينتظم الصلح فالافرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم . فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والحشونة أخرى . وكان لعنه الله مضطرا الى الرواح وهذا عمله مع اضطارره والله الولي في ان بقى المسلمين شره فما

بلونا أعظم حيلة ولا أشد اقداما منه *

ولما سمع السلطان هذه الرسالة أحضر الامراء وأرباب الرأي من دولته وسألهم عن الجواب ما يكون فكان خلاصة الرأي هذا الجواب وهو « ان أهل انطاكية لنا معهم حديث ورسلنا عندهم فان عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح والا فلا . وأما البلاد التي سألتها فلا يوافق المسلمون على دفعها اليه وان كانت لا قدر لها . وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابلة ما خسره عليه لذا في الوطأة وسير الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب »

ولما كان الخامس من رجب وصل ولده الملك الظاهر عز نصره وكان كثير المحبة له والايثار لجانبه لما يراه فيه من أمارات السعادة وصفات الكفاءة وتوسم الملك نخرج السلطان الى لقائه فلقبه من قاطع العزازية ونزل له عند لقائه واحترمه وأكرمه وضمه اليه وقبله بين عينيه ونزل في دار الاستبار *

ولما كان السابع وصل الحاجب يوسف وحده وذكر ان الملك قاله لا يمكن ان نحرب من عسقلان حجراً واحداً ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك . وأما البلاد فحدودها معروفة ولا مناصرة فيها وعند ذلك تأهب السلطان للخروج الي جهة العدو وأظهر القوة وشدة العزم على اللقاء *

﴿ ذكر تربيته رحمة الله عليه ﴾

ولما كان العاشر من رجب بلغ السلطان ان الافرنج رحلوا طالبين نحو بيروت فبرز من القدس الي منزلة يقال لها الجيب وكان قدوم الملك العادل من البلاد القراتية في بكرة الحادي عشر فدخل الصخرة وصلب عندها ثم توجه يتبع السلطان . ثم ان السلطان رحل من الجيب الي بيت نوبة

وبعث الى العسكر في القدس يحثهم على الخروج والحقاق به ولحقت السلطان في بيت نوبة فاني كنت تخلفت عنه ليلة الاستعداد ثم رحل في يوم الاحد الثالث عشر الى الرملة ضحوة نهاره على تلال بين الرملة ولد فاقام بها بقية الأحد . ولما كانت صبيحة الاثنين ركب جريدة حتى أتى بازور وبيت جبرين فأشرف على يافا ثم عاد الى منزلته وأقام بها بقية يومه وجمع أرباب مشورته وشاورهم في النزول على يافا واتفق الرأي على ذلك

﴿ ذكر حصار يافا ﴾

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشرة رحل طالبا جهة يافا نخيم عليها ضحوة النهار ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقليا وكان طرف الميمنة على البحر وطرف الميسرة أيضاً على البحر والسلطان في الوسط وكان صاحب الميمنة الملك الظاهر أعز الله نصره وصاحب الميسرة أخاه الملك العادل والعساكر فيما بينهما . ولما كان السادس عشر من الشهر زحف الناس اليها واستحقرها وأمرها استحقرها عظيماً ثم رتب السلطان الناس للقتال وأحضر المنجنيقات وركبها على أضعف موضع في السور مما يلي الباب الشرقي وشرع النقبابون في السور وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج واشتد الحزم والزحف فأخذ النقبابون النقب من شمالي الباب الشرقي الى الزاوية بطول البدنة وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان في الحصار الاول وبناه الافرنج وتمكن النقبابون من النقب ودخلوا فلم يشك الناس في أخذ البلد في هذا اليوم هذا وأمر العدو في ازدياد وكان الملك قد توجه من عكا الى بيروت وهذا الذي حمل السلطان على نزوله على يافا ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد ضرس العدو منه وظهر من العدو من

الشدة والحمية والذنب والمنعة ما اضعف قلوب الناس هذا والنقابون قد تمكنوا من النقب عليهم فلما قارب الفراغ أخذ العدو في خسف النقب عليهم فحسفوه في مواضع عدة وخاف النقابون وخرج منهم جماعة وقتل الناس عن القتال وعلّموا أن أمر البلد مشكل وأنه يحتاج إلى زيادة عمل في أخذه فعزم السلطان عزم مثله فأمر النقابين أن يأخذوا النقب في بقية البدنة من البرج إلى الباب وأمر المنجنيقات أن تضرب قبالة البدنة المنقوبة ففعلوا ذلك وأقام السلطان في تلك الليلة هناك إلى أن مضى من الليل ثلثه وعاد إلى الثقل وكان الثقل بعيداً عن البلد على تل قبالة وأصبحت المنجنيقات قد أقيم منها اثنان وأقيم الثالث في بقية النهار وأصبح السلطان على القتال والزحف فلم يجد من الناس إلا الفتور بسبب نصب المنجنيقات ظناً منهم أن المنجنيق لا يعمل إلا بعد أيام . ولما علم السلطان من الناس الفتور والتواكل حملهم على الزحف فالتحم القتال واشتد الأمر وأذاقوا العدو مرّ الحرب فأشرف البلد على الأخذ واتفقت النفوس وطمعت في ذلك طمعاً شديداً وضعف العدو إلا أنه جرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبورك من البلد . ولما رأى العدو المخدول ما قد حل به أرسل رسولين نصرانياً وفرنجياً يطلبان الصلح ويتحدثان فيه فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته فاجابوا إلى ذلك واشتروطوا أن ينظروا إلى يوم السبت الذي هو تاسع عشر رجب فإن جاءتهم النجدة والا تمت القاعدة على ما استقر فإبى السلطان الا انظار فعاد الرسول ثم رجوا يسألونه الا انظار فأبى ذلك وقتل الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل سكوناً إلى الدعة على جاري العادة فأمر السلطان النقابين بحشو النقب بعد انتهائه ففعلوا ذلك ووضعت النار فيه فوق نصف البدنة وكان العدو قد عرف وقوع

النار في النقب وعلم ان ذلك المكان يقع فعمد الي أخشاب عظيمة وهياها
 خلف ذلك المكان فلما وقع ذلك المكان التهبت النيران فبُنيَت من الدخول
 الي الثلمة ثم أمر السلطان الناس فزحفوا وضايقوا القوم مضايقة عظيمة فله
 درهم من رجال أقيال ما أشدهم وأعظم بأسهم فانهم مع هذا كله لم يلقوا لها
 بابا ولم يزالوا يقاتلون خارج الابواب أعظم قتال حتى فصل الليل بين الطائفتين
 ولم تقدر على البلد في ذلك اليوم بعد حرق النقب في باقى البدنة وضاق
 صدر السلطان لهذا الأمر وتقسم فكره وندم كيف لم يجبهم الي الصلح وبات
 تلك الليلة في الخيم وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق تضرب بعضها
 البدنة الضعيفة بسبب النقب والنيران والحسف من جانبهم*

﴿ ذكر فتح يافا وما جرى فيه من الوقائع ﴾

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب أصبحت المنجنيقات وقد نصبت
 وحجارتها قد جمعت من الاودية والاماكن البعيدة لمدم الحجر في ذلك
 المكان وظلت ترمي البدنة المنقوبة وزحف السلطان وزحف ولده الملك
 الظاهر عز نصره زحفاً شديداً وزحف عسكر الملك الدادل من اليسرة فانه
 كان مريضاً وارتفعت الاصوت وضربت الكؤوسات وخفقت البوقات
 ورمت المنجنيقات وأحاط بهم الويل واشتد عزم النقبين في ايقاد النار فما
 مضى من النهار ساعتان الا ووقعت البدنة وكان وقعها كوقع الواقعة ونادى
 الناس ألا ان البدنة قد وقعت فلم يبق من له أدنى ايمان الا وزحف . ولا فلب
 من العدو الا أرعد ورجف . هذا الزحف وهم على القتال أشد وأحزم .
 وعلى الموت أعز واكرم . وذلك انها لما وقعت علا لها دخان وغبار . وأظلم
 الافق وعميت عين النهار . وما تجاسر أحد على الولوج خوفاً من اقمحام

النار . فلما انكشفت الظلمة ظهرت أسنة قد نابت مناب الاسوار . ورماح قد سدّت الثلمة حتى غيبت نفوذ الابصار . ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم . وسداد حركاتهم وسكناتهم . ولقد رأيت رجلين على مشي السور يمنعان المتسلق عليه من جهة الثلمة وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل الي داخل وقام رفيقه مقامه متصدياً للمثل مالق صاحبه في ساعة أسرع من ملح العيون بحيث لم يفرق بينهما فارق

ولما رأى العدو ما آل الأمر اليه سيروا رسولين الي السلطان يبتسون الامان فقال رحمه الله الفارس بالفارس والتركيبي بمثلته والراجل بالراجل والعاجز على قطيعة القدس فنظر الرسول فرأى القتال على الثلمة أشد من إضرار النار فسأل السلطان أن يبطل القتال الي أن يعود فقال لا أقدر على منع المسلمين من هذا الامر ولكن ادخل الي أصحابك فقل لهم يتجاوزوا الي القلعة ويتركوا الناس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه مانع فعاد الرسول بهذه الرسالة فأنحاز العدو الي قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة عظيمة ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أمشة عظيمة وغلاباً كثيرة وأثاثاً وبقايا قماش مما نهب من القافلة المصرية واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان

ولما كان عصر الجمعة المباركة وصل السلطان كتاب من قايمار النجمي وكان في طرف العدو لحمايته من عسكر العدو الذي في عكا يخبر فيه ان الانكثار لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت وعاد الي قصد يافا فاشتد عزم السلطان على إتيمة الامر وتسلم القلعة ممن لم ير الامان لانه قد لاح أخذهم وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بمغرم ونوبتهم عليه فكان أخذهم عنوة مما يبعث هم السكر غير أن الامان وقع واتفق الصالح فكنت

بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدو من القلعة وتسلمها خوفا من لحوق
النجدة وكان السلطان يشتهي خروجه غير ان الناس قد أقعدهم التعب عن
اتمام الامر وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار بحيث لم يتبق لهم استطاعة
على الحركة وأقام السلطان يحثهم الى ان هوي الليل فلما رأى ما قد نزل بالناس
من التعب ركب وسار الى خيمته الى الثقل وسار الناس الى خدمته ثم نزل في
خيمته وعدت الى خيمتي وعندني من الخوف ما اقلقني عن النوم

ولما كان سحر تلك الليلة سمعنا بوق الافرنج قد نطق فعلمنا بوصول
النجدة قد وصلت في البحر فاستدعاني السلطان من وقته وقال لا شك ان
النجدة قد وصلت في البحر وعلى الساحل من عساكر الاسلام من يمنعهم
من النزول والمصلحة أن تسير الى الملك الظاهر وتقول له أن يقف بظاهر
الباب القبلي وتدخل أنت ومن تراه الى القلعة وتخرجون القوم وتستولون
على ما فيها من الاموال والاسلحة وتكتبها بخطك الى الملك الظاهر خارج
البلد وهو يسيرها الي ويسير معي لتقوية البلد مع ذلك عز الدين جرديك
وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني فسرت من ساعتى ومعي شمس الدين
عدل الخزانة حتى أتيت الملك الظاهر وهو نائم على شليته على تل قريب
البحر في اليزك وعليه كراغنده وهو بلاأمة حربته فلا ضيع الله صنعهم في
نصرة الاسلام فايقظته فقام والنوم في عينيه وسرت في خدمته وهو يستفهم
منى رسالة السلطان حتى وقف حيث أمره ودخلنا نحن الى يافا وأتينا القلعة
وأمرنا الافرنج بالخروج فأجابوا الى ذلك وتهبأوا للخروج

﴿ ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدو ﴾

ولما أجابوا الى الخروج قال عز الدين جرديك لا ينبغي ان يخرج منهم

أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية ان يتخطفهم الناس وكان الناس قد
داخلهم الطمع في البلد وأخذ عز الدين يشتد في ضرب الناس واخراجهم وهم
غير مضبوطين بعد ولا محصورين في مكان فكيف يمكن اخراجهم وطال
الامر الي أعلا النهار وأنا الورمه وهو لا يرجع عن ذلك والزمان مضى
ولما رأيت انوقت كاد يفوت قلت له ان النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في
اخراجهم والسلطان قد أوصاني بذلك فلما عرف السبب في حرصي اجاب الي
اخراجهم ومضي بنا الي باب القلعة القريب من الباب الذي الملك الظاهر قائم عنده
فأخرجنا تسعة وأربعين نفراً بنحو لهم ونسائهم وسيرناهم ولما خرج هؤلاء
اشتد الباقون وحدثهم نفوسهم بالمعصيان وكان سبب خروج من خرجوا
أنهم استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لا نجدة لهم فيها ولم يعلموا ان
الانكثار مع القوم ورأوهم قد تأخروا عن النزول الى علو النهار فخافوا ان يمتنعوا
فيؤخذوا ويقتلوا فخرج من خرج ثم بعد ذلك قربت النجدة حتى صاروا
خمسة وثلاثين مركباً فقويت نفوس الباقين في الحصن وظهرت عليهم امارات
المعصيان ودلائله وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزيمتهم وأخذوا الطارقيات
والجنويات وعلوا على الاسوار وكانت القلعة جديدة لم تشرف بهد فلما رأيت
الامر قد آل الى ذلك نزلت من التل الذي كنت واقفاً عليه وهو ملاصق
لباب القلعة وقلت لعز الدين جرديك وهو مع عسكره في الاسفل مع
جمع من الاجناد خذوا حذرکم فقد تغيرت عزائم القوم فما كانت الا ساعة
بحيث صرت خارج البلد في خدمة الملك الظاهر الا وقد ركب القوم خيلهم
وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد واخرجوا من كان في البلد من الاجناد
ولقد ازدحم الناس في الباب حتي كاد يتلف منهم جماعة وبقي في بعض

الكنائس جماعة من اتباع العساكر مشغولين بما لا يجوز فاجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا وسيرني الملك الظاهر الى والده السلطان أعرفه بالحال فامر الجاويش ان ينادي في العسكر وضرب الكوس للقتال ونفر الناس من كل جانب للغزاة وهجموا البلد وحشروا العدو في القلعة فأقنوا بالبوار واستبطاوا نزول النجدة اليهم وخافوا خوفا عظيما فإرسلوا بطرهم والقسطلان رسولين الى السلطان يعتذران اليه مما جرى ويسألان القاعدة الاولي فخرجا الى السلطان والقتال يشتد عليهم وكان سبب انقطاع النجدة انهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم فخافوا ان تكون القلعة قد أخذت وكان البحر يمنع من سماع الصوت من كل جانب لكثرة الضجيج والتهليل . فلما رأي من في القلعة شدة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر شانيا فيها شاني الملك علموا ان النجدة ظنت ان البلد قد أخذ ووهب واحد نفسه للمسيح وقفز من القلعة الى الميناء وكانت رملا فلم يصبه شيء واشتدعدوا حتى أتى البحر فخرج له شاني وأخذه الي شاني الملك فحدثه بالحديث فلما شعر الانكثار أن القلعة مع أصحابه اندفع يطلب الساحل وكان أول شاني أتى من فيه بالبر شانيه وكان أحمر ورقبته حمراء وبيرقه أحمر فكانت الاساعة حتى نزل كل من في الشواني الي الميناء هذا كله وأنا أشاهد ذلك ثم حملوا على المسلمين فاندفعوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء وكان تحتي فرس فسقته الي السلطان وأخبرته الخبر وبين يديه الرسولان وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الأمان فعرفته في أذنه ما جرى فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث فما كان الاساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان فصاح في الناس فركبوا وقبض على الرسولين وأمر

بترحيل الثقل والاسواق الى بازور فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من يافا لم يقدروا على نقله ورحل الثقل وبقي السلطان جريدة في الليل وبات ليلته هناك وخرج الانكثار الي موضع السلطان الذي كان فيه لضيق البلد وأمر من في القلعة ان يخرجوا اليه معظم سواده فاجتمع به جماعة من المماليك وجرت بينهم احاديث ومجاوبات كثيرة

﴿ ذكر حديث الصلح ﴾

ثم طلب الحاجب ابا بكر المادلي وحضر عندهم ايبك العزيزي وسنقر المشطوبى وغيرهم وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كانوا يجتمعون به في اوقات متعددة وكان قد صادق من الامراء جماعة كبدر الدين دلدرم وغيره فلما حضر هذا الجمع عنده جد وهزل ومن جملة ما قاله هذا السلطان عظيم وما في هذه الارض للاسلام اكبر ولا اعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي والله ما لبست لأمة حرب ولا تأهبت لأمر وليس في رجلى الارذول البحر فكيف تاخر * ثم قال والله العظيم الكريم ما ظننت انه ياخذ يافا في شهرين فكيف أخذها في يومين . ثم قال لابي بكر سلم على السلطان وقل له بالله عليك أجب سؤالي في الصلح فهذا الامر لا بد له من آخر وقد هلكت بلادى وراء البحر وما في دوام هذا مصلحة لنا ولا لكم ثم انفصلوا عنه وحضر أبو بكر عند السلطان وعرفه ما قال وكان ذلك في أواخر يوم السبت تاسع عشر شهر رجب فلما سمع السلطان ذلك أحضر أرباب المشورة وانفصل الحال على ان الجواب هو « انك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة وكان الحديث في يافا وعسقلان والآن قد خربت يافا فيكون

لك من صور الي قيسارية « فمضى اليه وعرفه ما قال فرده اليه ومعه رسول
 افرنجي وقال يقول الملك « ان قاعدة الافرنج انه اذا أعطى واحد لواحد بلداً
 صار تبعه وغلामه وأنا اطلب منك هذين البلدين يافاموعسقلان وتكون
 عساكرهما في خدمتك دائماً واذا احتجت الي وصلت اليك في أسرع
 وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي ». فكان جواب السلطان « حيث دخلت هذا
 المدخل فانا أجيبك بان نجعل هذين البلدين قسمين أحدهما لك وهو يافا وما
 وراءها والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها » ثم سار الرسولان ورحل
 السلطان الي الثقل وكان المخيم ببازور ورتب النقبانين لذلك واليزك عندهم
 وسار حتي أتى الرملة فخيم بها يوم الاحد العشرين من رجب ووصل اليه
 الرسول مع الحاجب أبي بكر فأمر باكرامه والاحسان اليه وكانت رسالته
 الشكر من الملك على اعطائه يافا وتجديد السؤال في عسقلان ويقول انه ان
 وقع الصلح في هذه الايام سار الي بلاده ولا يحتاج أن يشتي هاهنا فأجابه
 السلطان في الحال بقوله « أما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه وأما تشتيه
 هاهنا فلا بد منها لانه قد استولي على هذه البلاد ويعلم انه متى غاب عنها
 أخذت بالضرورة كما تؤخذ أيضاً اذا أقام ان شاء الله تعالى . واذا سهل عليه
 ان يشتي هاهنا وينعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنقوان
 شبابه ووقت اقتناص لذاته أفلا يسهل علي أن أشتي وأصيف وأنا في وسط
 بلادي وعندي أولادي وأهلي ويأتي الي ما أريد وأنا رجل شيخ قد كرهت
 لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني والعسكر الذي يكون عندي في
 الشتاء غير العسكر الذي يكون عندي في الصيف وأنا أعتقد أني في أعظم
 العبادات ولا أزال كذلك حتي يعطى الله النصر لمن يشاء » * فلما سمع الرسول

ذلك طلب أن يجتمع بالملك العادل فأذن له في ذلك فسار الى خيمته وكان قد تأخر بسبب مرض اعتراه الي موضع يقال له صمويل فسار الرسول اليه مع جماعة ثم بلغ السلطان ان عسكر العدو قد رحل من عكا قاصداً يافا للانجاد فجمع أرباب الرأي وعقد مشورة في قصدهم فاتفق الرأي على أنهم يقصدونهم ويرحل بالثقل الي الجبل ويقصدونهم جريده فان لاحت فرصة انتهزوها والا رجموا عنهم وهذا أولي من أن نصبر حتى تجتمع عساكر العدو ونرحل الي الجبل في صورة منهزمين وأما اذا وصلنا الآن ففي صورة طالبين فأمر السلطان الثقل أن يسير الي الجبل عشية الاثنين الحادي والعشرين من رجب وسار هو جريده في صبيحة يوم الثلاثاء حتي نزل على العوجاء ووصل اليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل عليها ولم يبق فيه طمع وبلغه أن الانكثار قد نزل خارج يافا في نفر يسير بخيم قليلة فوق له أن ينتهز فيه الفرصة ويكبس خيمه وينال منهم غرضاً وعزم على ذلك وسار من أول الليل والادلة من العرب تتقدمه وهو يقطع الطريق الي أن أتى في الصباح الي خيام العدو فوجدنا تقريباً عشر خيم فداخله الطمع وحملوا حملة الرجل الواحد فثبتوا في أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب فوجموا من ثباتهم ودار العسكر حلقة واحدة

ولقد حكى لي بعض الحاضرين فاني كنت تأخرت مع الثقل ولم أحضر هذه الواقعة لالتياث مزاجي أن عدة الخيل كان يحزرها المكثرت سبعة عشر والمقل تسعة والرجال دون الالف فمن قائل ثلاثمائة ومن قائل اكثر من ذلك فوجد السلطان من ذلك منغیظة عظيمة ودار على الاطلاع يحثها فلم يجب دعاءه سوى ولده الملك الظاهر وقال له الجناح أخو المشـطوب قل

لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة وكان في قلوب
المسكر من صلح يافا حيث فوتوهم الغنيمة ما كان وجرى ماجري ما أثر هذا
الاثر . فلما رأى السلطان ذلك رأى أن وقوفه في مقابلة هذه الشرذمة
اليسيرة من غير عمل خسة في حقه وقد بلغني أن الانكثار أخذ رحمه ذلك
اليوم وخمل من طرف الميمنة الى طرف اليسرة فلم يتعرض له أحد فغضب
السلطان ثم أعرض عن القتال وسار حتى أتى بازور كالمغضب ونزل بها وذلك
في يوم الاربعاء الثالث والعشرين من رجب وبات المسكر باليزك ثم أصبح
يوم الخميس فسار الى النظرون ونزل به وأنفذ الى المسكر فأحضره عنده
فوصلنا اليه آخر نهار الخميس الرابع والعشرين فبات به ثم أصبح يوم الجمعة
فسار الى أخيه العادل يفتقده ودخل القدس وصلي الجمعة ونظر العمار ورتبها
ثم عاد من يومه الى الثقل وبات فيه على النظرون

﴿ ذكر قدوم المساكر ﴾

كان أول من وصل علاء الدين بن أتابك صاحب الموصل وكان وصوله
ضحاء نهار السبت السادس والعشرين من رجب فلقبه السلطان عن بعد
واحترمه وأكرمه وأنزله عنده في الخيمة وعمل همة حسنة وقدم له مقدمة
جميلة ثم سار الى خيمته

وأما رسول الملك فانه عاد في هذا اليوم فان الملك العادل قد حمليه
رسالة مشافهة الى الملك وعاد مع الحاجب أبي بكر الى يافا فعاد أبو بكر وحضر عند
السلطان في ذلك اليوم وأخبره أن الملك لم يتركني أدخل يافا وخرج الي وكلمني
في ظاهرها وكان كلامه الي كم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني
وأنا كنت أحرص أن أعود الي بلادى والآن قد هجم الشتاء وتغيرت الانواء

وقد عزمتم على الإقامة وما بقى بيننا حديث هكذا كان جوابه خذله الله تعالى
ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسكر مصر فخرج السلطان
الى لقاءهم وكان فيهم مجد الدين هلدري وسيف الدين يازكج وجماعة الاسدية
وكان في خدمته الملك المؤيد مسعود وقد أظهروا الزينة ونشروا الاعلام
والبيارق فكان يوما مشهودا ثم أنزلهم عنده ومد الخوان ثم ساروا الى
منازلهم

﴿ ذكر قدوم الملك المنصور ابن تقي الدين رحمه الله ﴾

وكان قد تسلم للبلاد التي وعد بها وكان وصوله الى خدمة الملك العادل
في يوم السبت حادي عشر شعبان فنزل عنده بماء صمويل وافتقده وكتب
الملك العادل في ذلك اليوم الى السلطان يخبره بوصوله وسأله في احترامه
وإكرامه واطلاق الرحمة له . ولما تحقق الملك الظاهر وصول الملك المنصور
استأذن والده في لقائه وافتقاد الملك العادل فأذن له في ذلك فسار فوجد الملك
المنصور مخيما بيت نوبة فنزل عنده وخرج الى لقائه وأقام عنده الى العصر
وذلك في يوم الاحد ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان ونحن
في خدمته فدخل عليه فاحترمه ونهض اليه واعتنقه وضمه الى صدره ثم
غشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الامر وغشيه من البكاء ما لم ير مثله فبكي
الناس لبكائه ساعة زمانية ثم باسطه وسأله عن الطريق ثم انفصل وبات في
خيمة الملك الظاهر الى صبيحة الاثنين ثم ركب وعاد الى عسكره ونشروا
الاعلام والبيارق وكان معه عسكر جليل فقترت عين السلطان ونزل في
مقدمة المسكر مما يلي الرملة



﴿ ذكر رحيله رحمه الله الى الرملة ﴾

وذلك أنه لما رأى المسافر قد اجتمعت جمع أرباب الرأى وقال ان
الانكتار قد مرض مرضاً شديداً والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليمبروا
البحر من غير شك ونفقاتهم قد قلت وهذا المدو قد أمكن الله منه وأرى
أن نسير الي يافا فان وجدنا فيها مطعماً بلناها والآعدنا تحت الليل الي عسقلان
فما تلحقنا النجدة الآ وقد نلنا منها غرضاً فرأوا ذلك رأياً . وتقدم الي جماعة
من الامراء كز الدين جرديك وجمال الدين فرج وغيرهما بالمسير في ليلة
الخميس سادس عشر شعبان حتى يكونوا قريباً من يافا في صورة يزك
يستطلعون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ثم يعرفونه ذلك فساروا .
هذا ورسل الانكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج ووقع عليه في مرضه
شهوة الكثرى والخوخ فكان السلطان يمدده بذلك ويقصد كشف الاخبار
بتواتر الرسل والذي انكشف من الاخبار ان فيها ثلاثمائة فارس على قول
المكثر ومثي فارس على قول المقل وان الكندهري يتردد بينه وبين
الفرنسيسية في مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولاً واحداً وأنهم لا
عناية لهم بسور البلد وانما عنايتهم بعمارة سور القلعة وكان الانكتار قد طلب
الحاجب أبا بكر العادلى وكان له معه انبساط عظيم . فلما تحقق السلطان الاخبار
أصبح يوم الخميس راحلا الي جهة الرملة فنزل بها ضاحي نهار ووصل الخبر
من المغيرين يقولون انا اغرنا على يافا فلم يخرج الا نحو ثلاثمائة فارس معظمهم
على بغال فأمرهم السلطان بمقامهم هناك ثم وصل الحاجب أبو بكر ومعه
رسول من عند الملك يشكر السلطان على انعامه بالفواكه والثلج وذكر أبو بكر
انه تفرد به وقال له قل لأخي الملك العادل يبصر كيف يتوصل الي

السلطان في معنى الصلح ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي أنا ويبقى هو في هذه الشردمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم فليس لي غرض إلا إقامة جاهي بين الافرنج وان لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها

فلما سمع السلطان ذلك سيرهم الي الملك العادل وأسرّ الي ثقة عنده أن يمضي الي الملك العادل ويقول له ان نزلوا عن عسقلان فصالحهم فان العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت فسار ضحى الجمعة سابع عشر شعبان

﴿ ذكر الاجابة الي النزول عن عسقلان ﴾

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور انفذ بدر الدين دلدرم من اليزك يقول انه قد خرج الينا خمسة أنفس منهم شخص مقدم عند الملك يسمي هوات وذكروا أن لهم معنا حديثا فهل أسمع حديثهم أولا فاذن له السلطان في ذلك ولما كانت العشاء الآخرة حضر بدر الدين بنفسه وأخبر ان حديثهم كان أن الملك قد نزل عن عسقلان وعن طلب العوض عنها وقد صح مقصوده في الصلح فأعاده السلطان ثانية لينفذ اليه ثقة يأخذ يده على ذلك ويقول ان السلطان قد جمع العساكر وما يمكنني ان أحدثه هذا الحديث الا بأن أثق انك لا ترجع وبعد ذلك أحدثه وسار بدر الدين على هذه القاعدة وكتب الي الملك العادل يخبره بما يجري

ولما كان يوم السبت ثامن عشر شعبان أنفذ بدر الدين وذكر أنه أخذ يده على هذه القاعدة بمن يثق به وأن حدود البلاد على ما استقر في الدفعة الاولى مع الملك العادل فأحضر السلطان الديوان فذكروا يا فافا وأعمالها وأخرج

الرملة ويبننا ومجدل يابا ثم ذكر قيسارية وأعمالها وأرسوف وأعمالها وحينفا وأعمالها وعكا وأعمالها وأخرج منها الناصرة وصفورية وأثبت الجميع في ورقة وكتب جواب الكتاب وانفذه على يد طرنطاي مع الرسول وكان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بدر الدين في عصر السبت وقال للرسول هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فان صالحتم على ذلك فمبارك قد اعطيتم يدي ولينفذ الملك من يحلف ويكون ذلك في غداة غد والافيملم أن هذا تدفيع ومماثلة ويكون الامر قد انفصل من بيننا. وساروا في بكرة الاحد على هذه القاعدة

ولما كانت العشاء الآخرة يوم الاحد وصل من أخبر بوصول طرنطاي ومعه الرسول واستأذن في حضورها فاذن رحمه الله في حضور طرنطاي وحده فذكر أن الملك قد وقف على تلك الرقة وأنكر انه نزل عن العوض فاذكره الجماعة الذين خرجوا الي بين يدي دلدرم أنه نزل عن ذلك فقال اذن أنا قلته فلا أرجع عنه . قولوا للسلطان مبارك رضيت بهذه القاعدة وقد رجعت الي مروءتك فان زدتنى شيئاً فمن فضلك وانعامك . ثم سار وأحضر الرسل ليلاً وأقاموا الي بكرة وحضروا عند السلطان بكرة الاثنين فذكروا ما استقر عن صاحبهم ثم انفصلوا الي خيمهم وحضر عند السلطان أرباب المشورة واستقر الامر وانفصلت القاعدة وسار الامير بدر الدين دلدرم الي الملك العادل وأخذ الرسل معه في صورة من يسأل في زيادة الرملة وعاد في عشاء الآخرة ليلة الاثنين وكتبت المواضة وذكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين من تاريخها وهو الاربعاء الثاني والعشرون من شعبان سنة ثمانية وثمانين وخمسةائة ويزاد فيها الرملة لهم ولدت أيضاً وسير العدل

وقال له ان قدرت ان ترضيهم بأحد الموضوعين أو مناصفتهم فافعل ولا يكون لهم حديث في الجبلبات ورأي السلطان ذلك مصلحة لماعرا الناس من الضعف وفتة النفقات والشوق الي الاوطان ولما شاهده من تقاعدهم عن يافا يوم أمرهم بالحملة فلم يحملوا نخاف أن يحتاج اليهم فلم يجدهم فرأي أن يحييهم مدة حتى يستريحوا ويتبعوا غير هذه الحالة التي صاروا اليها ويعمر البلاد ويشحن القدس بما يقدر عليه من الآلة ويتفرغ لعمارتها *

وكان من القاعدة ان عسقلان تكون خرابا وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها خشية أن نأخذها عامرة فلا نخربها فمضى العدل على هذه القاعدة واشترط دخول البلاد الاسلامية واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصلح على قاعدة آخر صلح صالحناهم عليه واستقر الحال على ذلك وسارت الرسل وحكم عليهم ان لا بد من فصل الحال إما الصلح وإما الخسومة خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل أحاديثه السابقة ومدافعاته المعروفة *

وفي ذلك اليوم وصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط ببذل الطاعة والموافقة وسير العساكر وحضر رسول الكرج وذكر فصلا في معنى الزيادات التي لهم في القدس وعمارتها وشكوا أنها أخذت من أيديهم ويسأل عواطف السلطان أن يردها الي نوابهم ورسول صاحب أرزن الروم ببذل الطاعة والعبودية

﴿ ذكر تمام الصلح ﴾

ولما وصل العدل الي هناك انزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك به فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة وعرض العدل عليه النسخة وهو

مريض الجسم فقال لا طاقة لي بالوقوف عليها وانا قد صالحت وهذه يدي
فاجتمعوا بالكندهرى والجماعة وأوقفوهم على النسخة ورضوا بلد والرملة
مناصفة وبجميع ما في النسخة واستقرت القاعدة أنهم يحلفون بكرة يوم
الاربعاء لانهم كانوا قد أكلوا شياً وليس من عادتهم الحلف بعد الاكل وأنفذ
العدل الى السلطان من عرفه ذلك

ولما كان يوم الاربعاء الثانى والعشرون من شعبان حضر الجماعة عند
الملك وأخذوا يده وعاهدوه واعتذر أن الملوك لا يحلفون وقنع السلطان
بذلك ثم حلف الجماعة والمستحلف الكندهرى ابن اخته المستحلف عنه في
الساحل وبالبيان بن بارزان صاحب طبرية ورضى الاستتار والداوية وسائر
مقدمى الافرنجية بذلك وساروا بقية يومهم عائدين الى الخيم السلطاني فوصلوا
العشاء الآخرة وكان الواصلون من جانبهم ابن الهنرى وابن بارزان وجماعة
من مقدميهم فاحترموا واکرموا وضربت لهم خيمة تليق بهم وحضر
العدل وحكى ماجرى

ولما كانت صبيحة الثالث والعشرين حضر الرسل في خدمة السلطان
وأخذوا بيده الكريمة وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة واقترحوا
حلف جماعة وهم الملك العادل والملك الافضل والملك الظاهر عز نصرهم
والمشطوب وبدر الدين دلدردم والملك المنصور ومن كان مجاوراً لبلادهم كابن
المقدم وصاحب شيزر وغيرهم فوعدهم السلطان ان يسير معهم رسلا الى
الجماعة المجاورين ليحلفوهم لهم وحلف لصاحب انطاكية وطرابلس وعلق
اليمن بشرط حلفهم للمسلمين فان لم يحلفوا فلا يدخلوا في الصلح
ثم أمر المنادى أن ينادي في الوطقات والاسواق ألا ان الصلح قد

انتظم في سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم ان يدخل الى بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا ان يدخل الى بلادهم فليفعل وأشار رحمة الله عليه أن طريق الحج قد فتح من الشام ووقع له عزم على الحج في ذلك المجلس وكنت حاضراً ذلك جميعه وأمر السلطان أن تسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ولاخراج الافرنج منها ويكون معهم جماعة من الافرنج الى حين وقوع الخراب في السور خشية استبقائه عامراً . وكان يوم مشهوداً غشى الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه الا الله تعالى . والله العظيم ان الصلح لم يكن من اثاره فانه قال لي في بعض محاوراته في الصلح أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني فيقوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلته يعني حصنه وقال لا أنزل فيهلك المسلمون . هذا كلامه وكان كما قال لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة وكانت مصلحة في علم الله تعالى فانه اتفقت وفاته بعيد الصلح ولو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر فما كان الصلح الا توفيقاً وسادة له *

﴿ ذكر خراب عسقلان ﴾

ولما كان الخامس والعشرون من شعبان نذب السلطان علم الدين قيصر الى خراب عسقلان وسير معه جماعة من النقابين والحجارين واستقران الملك ينفذ من يافا من يسير معه ليقف على التخريب ويخرج الافرنج منها فوصلوا اليها من الغد فلما أرادوا التخريب اعتذرا لاجناد الذين بها بان لنا على الملك جامكية لمدة فاما ان يدفعها الينا ونخرج أو ادفعوها أتم الينا فوصل

بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا ووقع التخريب فيها في
السابع والعشرين من شعبان واستمر يخرّبها وكتب على الجماعة رقاعا
بالمعاونة على التخريب وأعطى كل واحد قطعة معلومة في السور وقيل له
دستورك في تخريبها *

ولما كان التاسع والعشرون رحل السلطان الى النظرون واختلط
العسكران وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة ووصل خلق
عظيم من العدو الى القدس للحج وفتح لهم السلطان الباب وأنفذ معهم
الخفراء يحفظونهم حتى يردهم الى يافا وكثر ذلك من الافرنج وكان غرض
السلطان بذلك أن يقضوا غرضهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم فيأمن
المسلمون من شرهم *

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير الى السلطان
يسأله منع الزوار واقترح أن لا يؤذن لهم الا بعد حضور علامة من جانبه
أو كتابة وعلمت الافرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا في الحج فكان يرد منهم
في كل يوم جموع كثيرة مقدمون وأسباط وملوك متنكرون وشرع السلطان
في أكرام من يرد ومدّ الطعام ومباستهم ومحادثتهم وعرفهم انكار الملك
ذلك وأذن لهم السلطان في الحج وعرفهم أنه لم يلتفت الى منع الملك من
ذلك واعتذر الى الملك بان قوما قد وصلوا من بعد ذلك لزيارة هذا المكان
الشريف فلا أستحل منهم ثم اشتد المرض بالملك فرحل في ليلة التاسع
والعشرين وسار هو والكندهرى وسائر العدو الى جانب عكا ولم يبق في
يافا الا مريض أو عاجز ونفر يسير *



﴿ ذكر عود العساكر الإسلامية الي أوطانهم ﴾

ولما انقضى هذا الامر واسه تقمرت القواعد أعطى السلطان الناس دستورا وكان أول من سار عسكر اربل فانه سار في مستهل شهر رمضان المبارك ثم سار بعده في ثانيه عسكر الموصل وسنجار والحصن وأشاع أمر الحج وقوى عزمه على براءة الذمة وكان هذا مما وقع لي وبدأت بالاشارة به فوق منه موقعا عظيما وأمر الديوان وكل من عزم على الحج من السكران يثبت اسمه حتى يحصر عدة من يدخل معنا في الطريق وكتب جرائد بما يحتاج اليه في الطريق من الخلع والازواد وغيرها وسيرها الى البلاد ليعدوها .

ولما أعطى الناس دستورا وعلم عود العدو قد رجع الي ورائه رأى الدخول الى القدس الشريف تهيئة أسباب عمارته والنظر في مصالحه والتأهب للمسير الى الحج فرحل من النطرون يوم الاحد رابع شهر رمضان وسار حتى أتى ماء صمويل يفتقد الملك العادل فوجده قد سار الي القدس وكنت عنده رسولا من جانب السلطان أنا والامير بدر الدين دلدرم والمعدل وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب مرضه وكان قد تماثل فعرفناه مجيء الساطان إلي ماء صمويل لقيامته فحمل على نفسه وسار معنا حتى لقيه في ذلك المكان وهو أول وصوله الى ماء صمويل ولم ينزل بعد فلقية ونزل وقبل الارض وعاد فركب فاستدناه وسأله عن مزاجه وسارا جميعا حتى أتيا القدس الشريف في بقية ذلك اليوم .

﴿ ذكر وصول رسول من بغداد ﴾

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من شهر رمضان صلي الملك

العادل الجمعة وانصرف الى الكرك عن دستور من السلطان لينظر في أحواله ويعود الى البلاد الشرقية يدبرها فانه كان قد أخذها من السلطان وكان قد ودع السلطان فلما وصل العازرية نزل بها مخيما فوصله من أخبر أن رسولا من بغداد واصل اليك فانفذ الى السلطان وعرفه فذكر له أن يجتمع ويطالع ما وصل فيه فلما كان السبت الرابع والعشرون دخل الى الخدمة السلطانية وذكر أن الرسول قد وصل اليه من جانب ابن النافذ بعد ان ولي نيابة الوزارة ببغداد ومقصود الكتاب أنه يحثه على استعفاف قلب السلطان الى لخدمة الشريفة والدخول بينه وبين الديوان العزيز والانكار عليه بتأخر رسله عن العتبة الشريفة واقتراح تسفير القاضي الفاضل ليحضر الديوان العزيز في تقرير قاعدة تحرر بينه وبين السلطان لا بد منها وقد وعد الملك العادل من الديوان بوعود عظيمة اذا قرر ذلك وتكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد وما يشبه هذا الفن فحدثت عند السلطان فكرة في انفاذ رسول يسمع كلام الديوان ويستعلم سبب دخول الملك العادل في البين وزاد الحديث، ونقص وطال وقصر وقوى العزم السلطاني على إنفاذ الضياء الشهرزوري وعاد الملك العادل الى مخيمه بالعازرية بعد تقرير هذه القاعدة وعرفه اجابة السلطان الى انفاذ رسول الى خدمة الديوان العزيز وسار يوم الاثنين طالبا جهة الكرك وسار الضياء متوجها الى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان

﴿ ذكر توجه ولده الملك الظاهر الى بلاد د ووحشة السلطان له ﴾

ولما كانت بكرة التاسع والعشرين توجه الملك الظاهر عن نصره بعد ان ودعه ونزل الى الصخرة فصلى عندها وسأل الله تعالى ماشاء ثم ركب

وركبت في خدمته فقال لي قد تذكرت أمراً أحتاج فيه الى مراجعة السلطان مشافهة فأنفذ من استأذن له العود الي خدمته فأذن له في ذلك فحضر واستحضرني وأخلي المكان ثم قال له أوصيك بتقوي الله تعالى فانها رأس كل خير وأمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فان الدم لا ينام وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم فانت أميني وأمين الله عليهم وأوصيك بحفظ قلوب الامراء وأرباب الدولة والا كابر فما بلغت ما بلغت إلا بمدارة الناس ولا تحمد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يغفر الا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك اليه فانه كريم . وكان ذلك بعد أن انصرفنا من خدمته ومضي من الليل ماشاء الله أن يمضي وهذا ما أمكنتني حكايته وضبطه ولم يزل بين يديه الى قريب السحر ثم أذن له في الانصراف ونهض ليودعه فقبل وجهه ومسح على رأسه وانصرف في دعة الله ونام في برج الحشب الذي للسلطان وكنا نجلس عنده في الاحيان الى بكرة وانصرفت في خدمته الى بعض الطربق وودعته وسار في حفظ الله

ثم سير الملك الافضل ثقله وأقام يراجع السلطان على لساني في أشغال كانت له حتى دخل في شوال أربعة أيام وسار في ليلة الخامس منه نصف الليل عن تعتب عليه جريدة على طربق الغور

﴿ ذكر مسيره رحمه الله من القدس الشريف ﴾

وأقام السلطان يقطع الناس ويعطيهم دستورا ويتأهب للمسير الي الديار

المصرية وانقطع شوقه عن الحج وكان من اكبر المصالح التي فاتته ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب الانكثار متوجها الى بلاده مستهل شوال فعند ذلك حرر السلطان عزمه على ان يدخل الساحل جريدة ويفتقد القلاع البحرية الى بانياس ويدخل دمشق المحروسة يقيم بها أياماً قلائل ويعود الى القدس الشريف سائراً الى الديار المصرية يتفقد أحوالها ويقرر قواعدها وينظر في مصالحها وأمرني بالمقام في القدس الشريف لعارة بيمارستان انشأ فيه وادارة المدرسة التي انشأها فيه الي حين عودته وسار من القدس الشريف ضحوة نهار الخميس سادس شوال وودعته الي البيرة ونزل بها واكل فيها الطعام ثم أتى بهض طريق نابلس فبات فيه ثم أتى نابلس ضحوة نهار الجمعة سابع شوال فلقبه خلق عظيم يستغيثون من المشطوب ويتضورون من سوء رعايته لهم فاقام يكشف عن أحوالهم الي عصر يوم السبت ثم رحل ونزل بسببضية يتفقد أحوالها ثم أتى في طريقه الي كوكب ونظر في أحوالها وسد خللها وذلك في يوم الاثنين عاشره وكان فكاك بهاء الدين قراقوش من رتبة الاسر يوم الثلاثاء حادي عشر شوال ومثل في الخدمة السلطانية ففرح به فرحاً شديداً وكانت له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام واستأذن السلطان في المسير الي تحصيل القطيعة فاذن له في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين الفاً والله أعلم *

ولما وصل السلطان الي بيروت وصل الي خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفداً فبالغ في احترامه واکرامه وبساطته وأنعم عليه بالعمق وزرعان ومزارع تغل خمسة عشر الف دينار. وكان قد خلف المشطوب في القدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن واليه وانما كان واليه عز الدين جرديك وكان ولاه بعد الصلح حالة عودته الي القدس بعد أن شاور فيه الملك

العادل والملك الافضل والملك الظاهر على لساني وأشار به أهل الدين والصلاح
لانه كان كثير الجهد والخدمة والحفظ لاهل الخير فامرني السلطان أن أوليه
ذلك في يوم الجمعة عند الصخرة ووليته اياه بعد صلاة الجمعة واشترطت عليه
الامانة وعرفته موضع حسن اعتقاد السلطان فيه وانعقد الامر وقام به القيام
المرضي . وأما المشطوب فانه كان مقوماً بالقدس من جملة من كان مقوماً بها
وتوفي يوم الاحد الثالث والعشرين من شوال ودفن في داره بعد ان صلى عليه في
المسجد الاقصي رحمه الله *

﴿ ذكر عود السلطان الى دمشق المحروسة ﴾

وكان عوده اليها بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها
والتقدم بسد خللها واصلاح أمور أجنادها وشحنها بالاجناد والرجال ودخل
دمشق بكرة الاربعاء السادس والعشرين من شوال وفيها أولاده الملك
الافضل والملك الظاهر والملك الظافر وأولاده الصغار وكان يحب البلد ويؤثر
الاقامة فيه على سائر البلاد وجلس للناس في بكرة الخميس السابع والعشرين
منه وحضر الناس عنده وبلوا شوقهم من رؤيته وانشده الشعراء وعم ذلك
المجلس الخاص والعام وأقام ينشر جناح عدله . ويهطل سحاب انعامه وفضله
ويكشف مظالم الرعايا في الاوقات الممتدة حتي كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة
اتخذ الملك الافضل دعوة للملك الظاهر فانه لما وصل الي دمشق بلغه حركة
السلطان اليها فاقام حتي يتمي بالنظر اليه ثانياً وكأن نفسه الشريفة كانت قد
أحست بدنو أجل السلطان فودعه في تلك الليلة مراراً متعددة وهو يعود
اليه . ولما اتخذ الملك الافضل له دعوة أظهر فيها من بديع التجمل وغريبه
ما يليق بهمته وكانه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصوله الي حلب وحضرها

أرباب الدنيا وابناء الآخرة وسأل السلطان الحضور فحضر جبراً لقلبه *

﴿ ذكر قدوم الملك العادل أخيه ﴾

ولما تصفح للملك العادل أخبار الكرك وأمر بإصلاح ما قصد إصلاحه منه عاد طالبا البلاد القراتية فوصل أرض دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعدة وكان السلطان قد خرج الى لقائه وأقام يتصيد حوالي عباب الى الكسوة حتى لقيه وسارا جميعاً وكان دخولهما الى دمشق آخر نهار الاحد الحادى والعشرين وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون فى أرض دمشق وموطن الظباء وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لأولاده ومرابع تنزهه وهو لا يشعر ونسي عزمه المصري وعرضت له أمور أخرى وعزمات غير ذلك ووصلني كتابه الى القدس يستدعيني الى خدمته وكان شتاء شديد ووحل عظيم نخرجت من القدس الشريف فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين وكان الوصول الى دمشق يوم الثلاثاء ثانى عشر صفر سنة تسع وكان وصل أوائل الحج على طريق دمشق وأنفق حضوري والملك الافضل حاضر فى الايوان الشمالى وفى خدمته خلق من الامراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان لخدمته فلما شعر بحضورى استحضرنى وهو وحدد قبل أن يدخل اليه أحد فدخات عليه فقام ولقيني لقاء ما رأيت أشد من بشره بى فيه ولقد ضمنى اليه ودمعت عينه



﴿ ذكر لقائه للحاج ﴾

ولما كان يوم الاربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده فسألني
 عنن في الايوان فأخبرته أن الملك الافضل جالس في الخدمة والامراء والناس
 في خدمته فاعتذر اليهم على لسان جمال الدولة اقبال . ولما كانت بكرة الخميس
 استحضرتني فحضرت عنده في صفة البستان وعنده اولاده الصغار فسأل عن
 الحاضرين فقيل له رسل الافرنج وجماعة الامراء والاكابر فاستحضر رسل
 الافرنج الي ذلك المكان فحضروا وكان له ولد صغير وكان كثيرا ما يميل اليه
 يسمى الامير وكان حاضرا وهو يداعبه فلما وقع بصره على الافرنج ورأى
 أشكالهم وحلق لحاهم وقص شعورهم وما عليهم من الثياب غير المألوفة خاف
 منهم وبكى فاعتذر اليهم وصر فهم بعد ان حضروا ولم يسمع كلامهم وقال ان لي
 اليوم شغلا وكان عادته المباشطة ثم قال احضروا لنا ما تيسر فاحضروا أرزا
 بلبن وماشابه ذلك من الاطعمة الخفيفة فاكل وكنت أظن أنه ما عنده شهوة
 وكان في هذه الايام يعتذر الي الناس لثقل الحركة عليه وكان بدنه ملتأنا ممتلأنا
 وعنده كسل فلما فرغنا من الطعام قال ما الذي عندك من خبر الحاج فقلت
 اجتمعت بجماعة منهم في الطريق ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ولكنهم غدا
 يدخلون فقال نخرج ان شاء الله الي لقاءهم وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه
 فلها سنة كثيرة الانداء وقد سالت المياه في الطرق والانهار وانفصلت من
 خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه ثم ركب في بكرة الجمعة
 وتأخرت منه قليلا ثم لقيته وقد لقي الحاج وكان فيهم سابق الدين وقرالا
 الياروقي وكان كثير الاحترام للمشايخ فلقبهم ثم لحقه الملك الافضل وأخذ
 يحدثني فنظرت الي السلطان فلم أجد عليه كراغنده وما كان له عادة يركب

بدونه وكان يوماً عظيماً قد اجتمع فيه للقاء السلطان والتفرج عليه معظم من في البلد فلم أجد الصبر دون أن سرت الي جانبه وحدثته في اهمال هذا فكانه استيظ فطلب الكزاعند فلم يوجد الزردكماش فوجدت لذلك أمراً عظيماً وقلت في نفسي السلطان يطلب ما لا بد منه في عاداته ولا يجده ووقع في قلبي تطير بذلك فقلت له أليس ثم طريق نسله ليس فيه خلق كثير فقال بلي ثم سار بين البساتين فطلب جهة المنيع وسرنا في خدمته وقلبي يرعد لما قد وقع فيه من الخوف عليه فسار حتى أتى القلعة فعبّر على الجسر الي القلعة وهو طريقه المعتاد وكانت آخر ركوبه

﴿ مرضه رحمة الله عليه ﴾

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً فما انتصف الليل حتى غشيتني حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر من ظاهره وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلاً عليه أثر الحمى ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل ودخل ولده الملك الافضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه في الليل وطاب له الحديث الي قريب الظهر ثم انصرفنا والقلوب عنده فتقدم الينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الافضل ولم يكن القاضي عادته ذلك فانصرف ودخلت أنا الي الايوان وقد مدّ الطعام والملك الافضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشاً وبكي جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده في موضعه ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردد طرفي النهار وندخل اليه أنا والقاضي الناضل في النهار مراراً ويعطي الطربق في بعض الايام التي يجد فيها خنة وكان مرضه في رأسه وكان من أمارات انتهاء العمر اذ كان قد ألف

مزاجه سفرا وحضرا ورأي الاطباء فصدده فقصدوه في الرابع فاشتد مرضه
وقلت رطوبات بدنه وكان يغاب عليه اليبس غلبة عظيمة ولم يزل المرض يتزايد
حتي انتهى الى غاية الضعف . ولقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره الي
مخدة وأحضر ماء فاتر ليشر به نقيب شرب دواء لتلين الطبيعة فشر به فوجده
شديد الحرارة فشكا من شدة حرارته وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده
ولم يعضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات سبحان الله الا يمكن أحدا
تعديل الماء فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي
الفاضل يقول لي أبصر هذه الاخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها
والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدرح رأس من أحضره واشتد
مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد وينيب ذهنه

ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب فاشتد
الخوف في البلد وخاف الناس ونقلوا الاقمشة من الاسواق وغشى الناس من
الكتابة والحزن مالا يمكن حكايته * ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نعد في
كل ليلة الي أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ثم نحضر في باب الدار فان
وجدنا طريقا دخلنا وشاهدناه وانصرفنا والاعرفونا أحواله وكنا نجد الناس
يتربصون خروجنا الي ان يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا

ولما كان العاشر من مرضه حقن دفتين وحصل من الحقن راحة
وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا وفرح الناس فرحا
شديدا فاقننا على العادة الي أن مضي من الليل هزيع ثم أتينا الي الدار فوجدنا
جمال الدولة اقبالا فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد فدخل وأنفذ الينا مع
الملك المعظم تورانشاه جبره الله تعالى ان العرق قد أخذ في ساقه فشكرنا الله تعالى

على ذلك والتمسنا منه أن يمس بقية قدمه ويخبرنا بحاله في العرق ففقده ثم خرج الينا وذكر أن العرق سابغ وانصرفنا طيبة قلوبنا ثم اصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر فحضرنا بالباب وسألنا عن الاحوال فاخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ في الفراش ثم في الحصر ونأثرت به الارض وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً وحارت في القوة الاطباء

﴿ ذكر تحليف الأفضل ﴾

ولما رأي الملك الافضل ما حل بوالده وتحقق الناس موته تسرع في تحليف الناس في دار رضوان المعروفة بسكناه واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله بعد وفاته واعتذر الي الناس بأن المرض قد اشتد وما يعلم ما يكون وما يفعل هذا الا احتياطاً على جاري عادة الملوك فأول من استحضر للحلف سعد الدين أخو بدر الدين مودود الشحنة فبادر الى اليمين من غير شرط ثم حضر ناصر الدين صاحب صهيون وزاد ان الحصن الذي في يده له وحضر سابق الدين صاحب شيزر لحلف ولم يذكر الطلاق واعتذر بأنه ما حلف به . ثم حضر خشتر بن حسين الهكاري وحلف . وحضر أنوشروان الزرزاري وحلف واشترط ان يكون له خبز يرضيه ، وحضر عليكان وملكان وحلفا ثم مد الخوان وحضر الجماعة وأكلوا *

ولما كان العصر أعيد المجلس للتحليف وحضر ميمون القصري رحمه الله وشمس الدين الكبير وقالنا نحن نحلف بشرط أن لانسل في وجه أحد من اخوتك سيفاً لكن رأسي دون بلادك . هذا قول ميمون القصري . وأما منقر فانه امتنع ساعة ثم قال كنت حلفتني على النظرون وأنا عليها وحضر

سلمه وقال ليس لي حيز فقل لي على شيء أحلف فزوجم خلف وعلق يمينه بشرط أن يعطى ثوباً يرضيه . وحضر منقر المشطوب وحلف واشترط أن يرضى . وحضر أيبك الأفتس رحمه الله واشترط رضاه . وحضر حسام الدين بشارة وحلف وكان مقدماً على هؤلاء . ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ولم يتعرض لهم بل حلف هؤلاء للتقرير . ونسخة اليمين المحلوف بها مضمونها اني من وقتي هذا صفت نيتي . وأخلصت طويتي . للملك الزاهر مدة حياته واني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسى ومالى . وسيفى ورجالى . محتملاً أمره واقفاً عند مرضيه . ثم من بعده لولده الافضل على وورثته . ووالله اني في طاعته وأذبه عن دولته وبلاده بنفسى ومالى وسيفى ورجالى . وامثيل أمره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء والله على ما أقول وكيل .

﴿ ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه ﴾

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر وهي الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع من الامر في أوله وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضي الفاضل تلك الليلة وابن الركي ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت وحضر بيننا الملك الافضل وأمر أن نبيت عنده فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأياً فان الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف ان لم نزل أن يقع الصوت في البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضاً فرأى المصلحة في نزولنا واستحضر الشيخ أبي جعفر امام الكلاسة وهو رجل صالح لبيت بالقلعة حتى اذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكره الشهادة وذكره الله تعالى فعلى

ذلك ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه وبات في تلك الليلة على حال المنقلين
الى الله تعالى والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره الله تعالى وكان
ذهنه غائبا من ليلة التاسع لا يكاد يفيق الا في أحيان . وذكر الشيخ أبو
جعفر أنه لما انتهى الى قوله تعالى هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب
والشهادة سمعه وهو يقول رحمة الله عليه صحيح وهذه يقظة في وقت
الحاجة وعناية من الله تعالى به فله الحمد على ذلك *

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من
صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح
في وقت وفاته ووصلت وقد مات وانتقل الى رضوان الله ومحل كرمه
وجزيل ثوابه * ولقد حكى لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر الى قوله تعالى
لا اله الا هو عليه توكلت تبسم وتهلل وجهه وسلمها الى ربه * وكان يوما لم
يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشى القلعة
والبلد والدينا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى . وبالله لقد كنت أسمع
من بعض الناس انهم يتمنون فداءه بنفوسهم وما سمعت هذا الحديث الا
على ضرب من التجوز والترخص الا في ذلك اليوم فاني علمت من نفسي
ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس *

ثم جلس ولده الملك الافضل للعزاء في الايوان الشمالي وحفظ باب
القلعة الا عن الخواص من الامراء والمعممين وكان يوما عظيما وقد شغل كل
انسان ما عنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة من ان ينظر الى غيره
وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل وواعظ . وكان
أولاده يخرجون مستغيثين الى الناس فتكاد النفوس تزهرق لهول منظرهم

ودام الحال على هذا الي ما بعد صلاة الظهر . ثم اشتغل بتفسيه وتكفينه فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة الا بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين وغسله الدولي القيه ونهضت الي الوقوف على غسله فلم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجي بثوب فوط . وكان ذلك وجميع ما احتاج اليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه وارتفعت الاصوات عند مشاهدته وعظم من الضجيج والعيول ما شغلهم عن الصلاة فصلى عليه الناس ارسالاً وكان أول من أم بالناس القاضي محي الدين ابن الزكي ثم أعيد الي الدار التي في البستان وكان ممرضاً بها ودفن في الصفة الغربية منها . وكان نزوله في حفرة قدس الله روحه ونور ضريحه قريباً من صلاة العصر ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر وعزى الناس فيه وسكن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فما وجد قلب الا حزين ولا عين الا باكية الا من شاء الله . ثم رجع الناس الي بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد أحد منهم في تلك الليلة الا نحن حضرنا وقرأنا وجددنا حالاً من الحزن *

واشتغل في ذلك اليوم الملك الافضل بكتابة الكتب الي عمه واخوته يخبرهم بهذا الحادث . وفي اليوم الثاني جلس للغزاء جلوساً عاماً وأطلق باب القلمة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر ثم انفض المجلس في ظهر ذلك اليوم واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية وقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه واشتغل الملك الافضل بتدبير أمره ومراسلة اخوته وعمه

ثم انتقضت تلك الضنون وأهلها • فساكنها وكانهم أحلام

تم بعون الله والحمد لله رب العالمين والصلاة

والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

أجمعين وسلام على المرسلين

والحمد لله رب

العالمين



متخبات ❦

من كتب التاريخ لصاحب حماه تأليف تاج الدين شاهنشاه بن أيوب
رحمه الله تتعلق بسيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❦ ذكر قتل الصالح بن رزبك ❦

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة في رمضان قتل الملك الصالح أبو
الزارات طلائع بن رزبك الأرميني وزير العاضد العلوي جهزت عليه عمه
العاضد من قتله وهو داخل في القصر بالسكاكين ولم يمت في تلك الساعة
بل حمل إلى بيته وأرسل يعتب على العاضد فأرسل العاضد إليه يحلف له أنه
لم يرض. ولا علم بذلك وأمسك العاضد عمته وأرسلها إلى طلائع فقتلها وسأل
العاضد أن يولي ابنه رزبك الوزارة ولقب العادل ومات طلائع واستقر ابنه
العادل رزبك في الوزارة

❦ ذكر ولاية شاور ثم الضرغام ❦

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في صفر وزير شاور للعاضد لدين الله
العلوي وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزبك فولاه الصميد وكانت

ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة . ولما جرح الصالح أوصى ابنه العادل أن لا يغير على شاور شيأ لعلمه بقوة شاور ولما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب الى شاور بالعزل فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل الى القاهرة فهرب العادل وطرد وراءه شاور وأمسكه وقتله وهو العادل رزبك ابن الصالح طلائع بن رزبك وانقرضت بقتله دولة بني رزبك واستقر شاور في الوزارة وتلقب بأمير الجيوش وأخذ أموال بني رزبك وودائعهم ثم ان الضرغام جمع جمعاً ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان فقوي على شاور فانهزم شاور الى الشام مستنجداً بنور الدين . ولما تمكن الضرغام من الوزارة قتل كثيراً من الامراء المصريين لتخلو له البلاد فضمفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم

﴿ ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسة ﴾

وفي هذه السنة سير نور الدين محمود بن زنكي عسكرياً مقدمهم أسد الدين شيركوه بن شاذى الى الديار المصرية ومعهم شاور وكان قد سار من مصر هارباً من الضرغام الوزير فلحق شاور بنور الدين واستنجده وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده الى الوزارة فأرسل نور الدين شيركوه الى مصر فوصل اليها وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة وأعاد شاور الى وزارة العاضد العلوي ثم غدر شاور بنور الدين ولم يف له بشيء مما شرط فسار شيركوه واستولى على بليس والشرقية فأرسل شاور يستنجد الافرنج على اخراج أسد الدين شيركوه من البلاد فسار الافرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببليس ودام الحصار ثلاثة أشهر وبلغ الافرنج حركة نور الدين وأخذ حارم فراسلوا شيركوه في

الصلح وفتحوا له نخرج من بلبس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا
الشام سالمين

وفي هذه السنة في رمضان فتح نور الدين محمود حارم وأخذها من
الافرنج بعد مصاف جري بين نور الدين والافرنج انتصر فيه نور الدين
وقتل وأسر عالما كثيرا وكان من جملة الأسرى البرنس صاحب أنطاكية
والقومص صاحب طرابلس وغنم منهم المسلمون شيئا كثيرا

وفي هذه السنة أيضا في ذي الحجة سار نور الدين الى بانياس وفتحها
وكانت بيد الافرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسة إلى هذه السنة . ثم
دخلت سنة احدى وستين وخمسة وفيها فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة
من الشام وكان بيد الافرنج

ثم دخلت سنة اثنين وستين وخمسة وفيها عاد أسد الدين شيركوه
الى الديار المصرية وجهزه نور الدين بعسكر جيد عدتهم ألف فارس فوصل
الى ديار مصر واستولى على الجزيرة وأرسل شاور الى الافرنج استنجدهم وجمعهم
وساروا في أثر شيركوه الى جهة الصعيد والتقوا على بلد يقال له الابوان
فانهزم الافرنج والمصريون واستولى شيركوه على بلاد الجزيرة واستغلها ثم سار
الى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب
وعاد شيركوه الى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والافرنج وحصروا
صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة أشهر فسار شيركوه اليهم واتفقوا على
الصلح على مال يحملونه الى شيركوه ويسلم اليهم الاسكندرية ويعود الى الشام
فتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال من هذه السنة وسار
شيركوه الى الشام فوصل الى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة واستقر الصلح

بين الافرنج والمصريين على أن يكون للافرنج بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها
 بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار
 وفي هذه السنة فتح نور الدين صاميثا والمريبة وفيها عصى غازي بن
 حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج فسير اليه عسكريا أخذوا منه
 منبج ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخا غازي المذكور
 فبقى فيها الى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين
 وسبعين وخمسمائة

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة وفيها ملك نور الدين قلعة جعبر
 وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك بن سالم بن مالك
 ابن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي وكانت بأيديهم من أيام السلطان
 ملكشاه ولم يقدر نور الدين على أخذها الا بعد أن أسر صاحبها وأحضره
 الي نور الدين واجتهد به على تسليمها فلم يفعل فأرسل عسكريا مقدمهم فخر
 الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني وأردفه بعسكر آخر مع محمد الدين أبي
 بكر المروفي بن الداية وكان رضيع نور الدين وحصروا قلعة جعبر فلم
 يظفروا منها بشيء وما زالوا على صاحبها ملك حتى سلمها وأخذ عنها عوضا
 مدينة سروج بأعمالها والملوح من بلد حاب وعشرين ألف دينار معجلة
 وباب بزاغة

﴿ ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ثم ملك ﴾

﴿ صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية ﴾

وفي هذه السنة اعني سنة اربع وستين وخمسمائة في ربيع الاول سنة
 أسد الدين شيركوه بن شاذي الي ديار مصر ومعه العساكر الثورية موسيب

ذلك تمكن الافرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها حتى ملكوا بليس قهراً في مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم ثم ساروا من بليس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها فاحرق شاور مدينة مصر خوفاً من أن يملكها الافرنج وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوماً فارسل العاضد الى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الافرنج على الف الف دينار يحملها اليهم فحمل اليهم مائة الف دينار وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال وتحصيله فرحلوا وجهاز نور الدين المسكر مع شيركوه وانفق فيهم المال وأعطى شيركوه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه . أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهب الملك من بيته . وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . ولما قارب شيركوه مصر رحل الافرنج من ديار مصر على اعقابهم الى بلادهم فكان هذا لمصر فتحاً جديداً ووصل أسد الدين شيركوه الى القاهرة في رابع ربيع الآخر واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد الى خيامه بالخلعة العاضدية وأجري عليه وعلى عسكره النفقة الوافرة وشرع شاور يماطل شيركوه فيما كان بذله لنور الدين من تقرير المال وإيراد ثلث البلاد ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم الى أسد الدين شيركوه ويعده ويمنيه وما يقدم الشيطان الا غروراً . ثم ان شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وامرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك . ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك

عزموا على الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين
جرديك وغيرها وعرفوا شيركوه بذلك فهام عنه واتفق أن شاور قصد
شيركوه على عادته فلم يجده في المخيم وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي رضي
الله عنه فلقى صلاح الدين وجرديك شاور وأعلماه برواح شيركوه الي
زيارة الشافعي وساروا جميعا الي شيركوه فوثب صلاح الدين وجرديك
على شاور وألقياه الي الارض عن فرسه وأمسكاه في سابع ربيع الآخر
من هذه السنة فهرب أصحابه عنه وأرسلوا أعلما شيركوه بما فعلاه
فخضرو لم يمكنه الا اتمام ذلك وسمع العاضد الخبر فارسل الي شيركوه
يطلب منه انفاذ رأس شاور فقتله وأرسل رأسه الي العاضد ودخل بعد ذلك
القصر عند العاضد فخلع عليه العاضد خلعة الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير
الجيوش وسار بالخلع الي دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور واستقر في الامر
وكتب له منشورا أوله بعد البسملة « من عبد الله ووليه أبي محمد الامام العاضد
لدين الله أمير المؤمنين الي السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي
الائمة مجير الامة . أسد الدين ابي الحارث شيركوه العاضدى عضد الله به الدين .
وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين . وأدام قدرته . وأعلى كلمته . سلام عليك .
انا نحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ونسأله أن يصلي علي محمد وآله الطاهرين .
والائمة المهديين ويسلم تسليما » ثم ذكر تفويض أمور الخلافة اليه ووصايا
أضربنا عنها للاختصار . وكتب العاضد بخطه علي ظهر المنشور « هذا عهدم
يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها فخذ كتاب أمير
المؤمنين بقوة . واسحب ذيل الافتخار بان اعتزت خدمتك الي النبوة »
ومدحت الشعراء أسد الدين ووصل اليه من الشام مديح الهامه الكاتب

قصيدة أولها

بالجد أدركت ما أدركت لا اللبب * كم راحة جنيت من دوحة التعب
ياشير كوه بن شاذي الملك دعوة من * نادي فعرف خير ابن بخير أب
جري الملوك وما حازوا برخصهم * من المدي في العلاما حزت بالخب
ملك من ملك مصر رتبته قصرت * عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد أمكنت أسد الدين العزيمة من * فتح البلاد فبادر نحوها وثب
وفي شيركوه وقتله شاور يقول عرقلة الدمشقي

لقد فاز بالملك العظيم خليفة * له شيركوه العاضدي وزير
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه * وشاور كلب للرجال عقور
بني وطني حتي لقد قال صحبه * على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره * ولا زال فيه منكر ونكير
فاما الكامل ابن شاور لما قتل أبوه فقد دخل القصر فكان آخر
العهد به . ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله حتي اذا فرحوا
بما أوتوا أخذناهم بغتة . وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادي
الآخرة سنة أربع وستين وخمسة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام . وكان
شيركوه وأيوب ابنا شاذي من بلد دوين قال ابن الاثير وأصلهما من الأكراد
الروادية فقصدوا العراق وخرجا بهروز شحنة السلجوقية ببغداد وكان أيوب
أكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظاً قلعة تكريت ولما انكسر عماد
الدين زنكي من عسكر الخليفة ومر على تكريت خدمه أيوب وشيركوه ثم
ان شيركوه قتل انسانا بتكريت فاخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة
عماد الدين زنكي فأحسن اليهما وأعطاهما اقطاعات جميلة . ولما ملك قلعة

بعلبك جعل أيوب مستحفظاً لها ولما حاصر عسكر دمشق بعلبك بعد موت زنكي سلمها أيوب لهم على اقطاع كثيرة شرطوها له وبقي أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بعد موت أبيه زنكي وأقطعه نور الدين حمص والرحبة لما رأى من شجاعته وزاده عليها وجعله مقدم عسكره فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكتب أخاه أيوب فساعد أيوب نور الدين على ملك دمشق وبقي مع نور الدين الى أن أرسل شيركوه الى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها وتوفي في هذه السنة على ما ذكرناه

ولما توفي شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شاذي وكان قد سار معه على كرهه . قال صلاح الدين أمرني نور الدين بالسير مع عمي شيركوه وكان قد قال شيركوه بحضرتي يا يوسف تجهز للمسير فقات والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية مالا أنساه أبدا فقال لنور الدين لا بد من مسيره معي فأمرني نور الدين وأنا استقبل فقال نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك فشكوت الضائقة فأعطاني ما تجهزت به فكانما أساق الي الموت ولما مات شيركوه طلب جماعة من الامراء النورية التقدم على العسكر وولاية الوزارة العاضدية منهم عين الدولة الياروقى وقطب الدين ينال المنبجي وسيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحاوي وهو خال صلاح الدين فارسى العاضد أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم تنطعه الامراء المذكورون وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري فسعي الى المشطوب حتى أماله الي صلاح الدين ثم قصد الحارمى وقال هذا

ابن أختك وعزه ومملكه لك فمال اليه أيضاً ثم فعل بالباقيين كذلك فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الي نور الدين بالشام وثبت قدم صلاح الدين على أنه نائب نور الدين وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالامير الاسفهلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرد به بكتاب بل الي الامير صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فارسلهم اليه نور الدين فاعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر وتمكن من البلاد وضعف أمر العاضد . ولما فوض الامر الي صلاح الدين تاب عن شرب الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص لباس الجد ودام على ذلك الي ان توفاه الله تعالى . قال ابن الاثير مؤلف كتاب الكامل رأيت كثيراً ممن ابتداء الملك ينتقل الي غير عقبه فان معاوية تذب وملك فانتقل الملك الي بني مروان بعده ثم ملك السفاح من بني العباس فانتقل الملك الي عقب أخيه المنصور ثم السامانية أول من ابتدئ بالملك نصر بن احمد فانتقل الملك الي أخيه اسماعيل وعقبه ثم عماد الدولة بن بويه ملك فانتقل الملك الي عقب أخيه ركن الدولة ثم ملك طغرل السلجوقي فانتقل ملكه الي عقب أخيه ثم شيركوه ملك فانتقل الملك الي أخيه

ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه بل انتقل الي أخيه العادل وعقبه ولم يبق لاولاد صلاح الدين غير حلب وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى ذلك اولاً وأخذ الملوك وعيون أهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبه ذلك * ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل مؤتمن الخلافة وكان مقدم

السودان فاجتمعت السودان فهم حفاظ القصر في عدد كثير وكان بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين انهزم فيها السودان وقتل منهم خلق كثير وتبعهم صلاح الدين فاخلام قتلا وتهجيجاً وتهيجاً وحكم صلاح الدين على القصر واقام فيه بهاء الدين قراقوش الاسدى وكان خصياً أبيض وبقي لا يجرى في القصر صغيرة ولا كبيرة الا بأمر صلاح الدين *
 ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة فيها سارت الافرنج الى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وأخرج على ذلك أموالاً عظيمة فحصرها خمسين يوماً وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام فرحوا عاندين على اعقابهم ولم يظفروا بشيء منها * قال صلاح الدين ما رأيت أكرم من العاضد ارسل الى مدة اقامة الافرنج على دمياط الف الف دينار مصرية سوي الثياب وغيرها *

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مرة ثم رحل عنه * وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام فقام نور الدين في عمارة الاسوار وحفظ البلاد اتم قيام وكذلك خربت بلاد الافرنج فخافوا من نور الدين واشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ماخرب من بلاده *

وفيها في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل وكان مرضه حياً حادة * ولما مات صرف ارباب الدولة الملك عن ابنه الاكبر عماد الدين زنكي بن مودود الى أخيه الذي هو اصغر منه وهو سيف الدين غازي بن مودود فسار عماد الدين زنكي الى عمه نور الدين مستنصراً به * وتوفي قطب الدين وعمره اربعون سنة تقريباً وكانت مدة ملكه احدى وعشرين سنة وخمسة اشهر ونصفاً وكان من احسن الملوك سيرة

وفي سنة ست وستين سار نور الدين محمود بن زنكي الى الموصل وهي بيد أخيه غازي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن اقسنقر فاستولي عليها نور الدين وملكها * ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها وأطلق المكوس منها ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازي وأعطى سنجار لعماد الدين وهو اكبر من أخيه فقال كمال الدين الشهرزوري هذا طريق الي أذى يحصل للبيت الاتابكي لان عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين وسيف الدين هو الملك لا يرى الاغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف وتطمع الاعداء *

وفي هذه السنة سار صلاح الدين عن مصر فغزا بلاد الافرنج قرب عسقلان والرملة وعاد الي مصر ثم خرج الي أيلة وحصرها وهي للافرنج على ساحل البحر الشرقي ونقل اليها المراكب وحصرها برا وبحرا وفتحها في العشر الاول من ربيع الآخر واستباح أهلها وما فيها وعاد الي مصر ولما استقر صلاح الدين بمصر كان بمصر دار الشحنة تسمى دار المعونة يجلس فيها فهدمها صلاح الدين وبنها مدرسة للشافعية * وكذلك بني دار العزل مدرسة للشافعية وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعا ورتب قضاة شافعية وذلك في العشرين من جمادى الآخرة * وكذلك اشترى تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين منازل العز وبنها مدرسة للشافعية

﴿ ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية ﴾

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة وفيها ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله. وكان سبب الخطبة العباسية بمصر انه لما تمكن صلاح الدين بمصر وحكم على القصر وأقام فيه قراقوش الاسدي وكان خصياً أبيض وبلغ نور الدين ذلك أرسل الي صلاح الدين حتما جز ما يقطع الخطبة العلوية

واقامة الخطبة العباسية فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة فلم يلتفت نور الدين الي ذلك وأصرّ عليه وكان العاضد قد مرض فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء ويقطعوا خطبة العاضد فامثلوا ذلك ولم ينتطح فيها عزان وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته وتوفي العاضد يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع خطبته

ولما توفي العاضد جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه وكانت كثرته تخرج عن الاحصاء وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق الثمينة والكتب والتحف * فمن ذلك الجبل الياقوت وكان وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا قال ابن الأثير مؤلف الكامل أنا رأيت به ووزنته . ومما حكى انه كان بالقصر طبل للقولنج اذا ضرب الانسان به شرط فكسر ولم يعلموا به إلا بعد ذلك ونقل صلاح الدين أهل العاضد الي موضع من القصر ووكّل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من عبد وأمة فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه وكان لم تغن بالامس . ولما اشتد مرض العاضد أرسل الي صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة ولم يمض اليه فلما توفي علم صدقه فندم لتخلفه عنه وجميع من خطب له منهم أربعة عشر خليفة المهدي . والقائم . والمنصور . والمعز . والعزيز . والحاكم . والظاهر . والمستنصر . والمستعلي . والآمر . والحافظ . والظافر . والفائز . والعاضد . وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسلمجاسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين الي أن توفي العاضد في هذه السنة أعني سنة سبع وستين وخمسمائة مائتان واثنان وسبعون سنة تقريبا . وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا واستردت ولم تحل الا وتمرت . ولم

تصف الا وتكدرت . بل صفوها لم يخل من الكدر
ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر الي بغداد ضربت لها البشائر عدة
أيام وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم الي نور
الدين وصلاح الدين والخطباء وسيرت الاعلام السود . وكان العاضد المذكور
قد رأى في مقامه أن عقربا خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد
للعاضد ولدغته فاستيقظ العاضد مصرعوبا واستدعي من يعبر الرؤيا وقص ما رآه
عليه فعبر له بوصول أذى اليه من شخص بذلك المسجد فتقدم العاضد الي
والي مصر باحضار من بذلك المسجد فأحضر اليه شخصا صوفيا يقال له
نجم الدين الخوبشاني فاستخبره العاضد عن مقدمه وسبب مقامه بالمسجد
المذكور فاخبره بالصحيح في ذلك وراه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه
فوصله بمال وقال له ادع لنا يا شيخ وأمره بالانصراف فلما أراد السلطان
صلاح الدين ازالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى في ذلك فأفتاه بذلك
جماعة من الفقهاء وكان نجم الدين الخوبشاني المذكور من جملتهم فبالغ في البتيا
وصرح في خطه بتعديد مساويهم وسلب عنهم الايمان وأطال الكلام في
ذلك فصح بذلك رؤيا العاضد

وفي هذه السنة جري بين نور الدين وصلاح الدين الوحشة في
الباطن . كان صلاح الدين سار ونازل الشوبك وهي للافرنج ثم رحل عنها
خوفا أن يأخذه فلايق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر فنزله ولم يفتحه
لذلك وبلغ نور الدين ذلك فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين * ولما استقر
صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال بلننى أن نور الدين يقصدنا
فما الرأي فقال تقي الدين عمر ابن أخيه نقاتله ونصده وكان ذلك بحضرة أيهم

نجم الدين أيوب فانكر على تقي الدين ذلك وقال أنا والدكم لورأيت نور الدين
 نزلت وقلت الارض بين يديه بل اكتب وقل لنور الدين انه لوجاءني من
 عندك انسان واحد وربط المندبل في عنقي وجرني اليك سارعت الي ذلك
 وانفضوا على ذلك ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة وقال له لو قصدنا
 نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتله ولكن ان أظهرنا ذلك يترك نور
 الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندري ما يكون من ذلك واذا أظهرنا له
 الطاعة تمادي الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله فكان كما قال

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة وفي هذه السنة سارت طائفة من
 الترك من ديار مصر مع مملوك لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه
 قراقوش الى افريقية ونزل على طرابلس الغرب فحاصرها مدة ثم فتحها واستولى
 عليها وملك كثيرا من بلاد افريقية

وفيه سار نور الدين الي بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان
 واستولى على مر عش وبهسنى ومرزيان وسيواس فأرسل اليه قليج أرسلان
 يستعطفه ويطلب الصلح فقال نور الدين لأرضى الابان ترد ملطيه على ذي
 النون بن الراشمنذ وكان قليج أرسلان قد أخذها منه فبذل له سيواس فاصطلح
 معه نور الدين فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس
 وطرده ابن الراشمنذ

وفيه سار صلاح الدين من مصر الى الكرك وحصرها وكان قد واعد
 نور الدين أن يجتمع على الكرك وسار نور الدين من دمشق حتي وصل الى
 الرقيم وهو بالقرب من الكرك فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين
 فرحل عن الكرك عائدا الى مصر وأرسل تحفا الى نور الدين واعتذر بان لباه

أيوب مريض وخشى أن يموت فتذهب مصر فقبل نور الدين عذره في الظاهر وعلم المقصود

ولما وصل صلاح الدين الي مصر وجد أباه أيوب قد مات وكان سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذي المذكور أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوقع وحمل الي قصره وبقي أياما ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة وكان عاقلا حسن السيرة

﴿ ذكر ملك شمس الدين توران شاه بن أيوب اليمن ﴾

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة وكان صلاح الدين واهله خائفين من نور الدين فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث ان قصدهم نور الدين قاتلوه فان هزمهم التجأوا الي تلك المملكة فجز صلاح الدين أخاه توران شاه الي النوبة فلم تعجبهم بلادها ثم سيره في هذه السنة بعسكر الي اليمن وكان صاحب اليمن حينئذ انسانا يسمى عبد النبي المقدم الذكر في سنة أربع وخمسين وخمسمائة فتجهز توران شاه ووصل الي اليمن وجري بينه وبين عبد النبي قتال فانتصر فيه توران شاه وهزم عبد النبي وهجم زبيد وملكها وأسر عبد النبي ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ياسر فخرج لقتال توران شاه فهزمه توران شاه فهجم عدن وملكها وأسر ياسر أيضا واستولي توران شاه على بلاد اليمن واستقرت في ملك صلاح الدين واستولي على أموال عظيمة لعبد النبي وكذلك من عدن

﴿ ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمني ﴾

في هذه السنة في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان

المصريين فانهم قصدوا الوثوب عليه واعادة الدولة العلوية فلم بهم وصلبهم
عن آخرهم . فمنهم عبد الصمد الكاتب . والقاضي الديرس . وداعي الدعاة .
وعمار بن عليّ اليميني الشاعر الفقيه . وله أشعار حسنة فمنها مما يتعلق
باحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله قصيدة منها

رميت يادهر كف المجد بالنشل * وجيده بعد حسن الحلى بالمطل
جدعت مارنك الاقني فأنفك لا * ينفك مأبون أهل الشين والحجل
مررت بالقصر والاركان خالية * من الوفود وكانت قبلة القبل

وفي هذه السنة توفي الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي
ابن اقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة وغير ذلك يوم الاربعاء حادي عشر
شوال بعملة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة وكان نور الدين شرع يتجهز للدخول
الي مصر لاخذها من صلاح الدين وكان يريد ان يخلي ابن أخيه سيف
الدين غازي بن مودود في الشام قبالة الافرنج ويسير هو بنفسه الي مصر
فأتاه أمر الله الذي لا مرد له وكان نور الدين اسمر طويل القامة ليس له
لحية الا في حنكه حسن الصورة وكان قد اتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين
واليمن لما ملكها توران شاد بن أيوب وكذلك كان يخطب له بمصر وكان
مولد نور الدين سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الارض حسن
سيرته وعدله * وكان من الزهد والعبادة على قدم عظيم وكان يصلي كثيراً
من الايام فكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما أحسن المحراب في المحراب
وكان عارفاً بالفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وليس
عنده فيه تعصب وهو الذي بنى أسوار مدن الشام منها دمشق وحمص وحمه

وحلب وشيزر وبعابك وغيرها لما تهدمت بالزلازل وبني المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله *

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بالملك بعده وعمره احدى عشرة سنة وحلف له العسكر بدمشق وأقام بها وأطاعه صلاح الدين بمصر وخطب له بها وضربت السكة باسمه وكان المتولى لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الامير شمس الدين محمد المعروف بابن المقدم *

ولما مات نور الدين وملك ابنه الملك الصالح سار من الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي وملك جميع البلاد الجزرية *

﴿ ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر ﴾

ثم دخلت سنة سبعين وخمسة وثمانين وفي اول هذه السنة اجتمع على رجل من اهل الصعيد يقال له الكنز جمع كثير وأظهروا الخلاف على صلاح الدين فأرسل صلاح الدين اليه عسكرا فاقتتلوا وقتل الكنز وجماعة معه وانهمزم الباقون *

﴿ ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها ﴾

في هذه السنة سلخ ربيع الاول ملك صلاح الدين بن أيوب دمشق وحصص وجماه * وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الي حلب ليكون مقامه بها فسار الملك الصالح الي حلب مع سعد الدين كشتكين ولما

استقر بحلب وتمكن كمشكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته
وقبض على الرئيس ابن الحشاب واخوته وهو رئيس حلب واستبد سعد
الدين بتدبير الملك الصالح نخافه ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق
فكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملكوه عليهم فسار جريدة في سبعمائة
فارس ولم يلبث ان وصل دمشق فخرج كل من كان بها من المسكر والثقوه
وخدموه ونزل بدار أبيه أيوب المعروفة بدار العقيقي وعصت عليه القلعة
وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ربحان فراسله صلاح الدين واسماله
فسلم القلعة اليه فصعد اليهم صلاح الدين وأخذ ما فيها من الاموال *
ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق استخلف فيها أخاه سيف الاسلام طغتكين
ابن أيوب وسار الي حمص مستهل جمادى الاولى وكانت حمص وحماة وقلعة بارين
وسلمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع نحر الدين ابن الزعفراني فلما
مات نور الدين لم يمكن نحر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته
مع الناس وكانت هذه البلاد له بنير قلاعها فان قلاعها فيها ولاة لنور
الدين وليس تفخر الدين معهم في القلاع حكم الآبارين فان قلعتها كانت له
أيضاً ونزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الاولى وملك
المدينة وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها ورحل الي حماة فملك
مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة وكان بقلعتها الامير عز الدين
جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين انه ليس
له غرض الا حفظ بلاد الملك الصالح عليه وانما هو نائبه وقصده من
جرديك المسير الي حلب في رسالة فاستحلفه جرديك على ذلك وسار جرديك
الي حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه فلما وصل جرديك

الي حاب قبض عليه كشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة الي
 صلاح الدين فملكها ثم سار صلاح الدين الي حلب وحصرها وبها الملك الصالح
 فجمع أهل حاب وأرسل سعد الدين كشتكين الي سنان مقدم الاسماعلية
 أموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فارسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين
 فقتلوا دونه واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب الي مستهل رجب ورحل عنها
 بسبب نزول الافرنج على حمص ونزل صلاح الدين على حماة ثامن رجب
 وسار الي حمص فرحل الافرنج عنها ووصل صلاح الدين الي حمص وحصر
 قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان من هذه السنة ثم سار الي
 بعلبك فملكها * ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح
 الي ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين
 فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي وجعل مقدم
 الجيش اكبر أمراءه وهو عز الدين محمود ولقبه سلقندار وطلب أخاه الاكبر
 عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجاليسير في النجدة أيضاً فامتنع
 مصانعة لصلاح الدين فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجال ووصل عسكر
 الموصل صحبة مسعود بن مودود وعلقندار الي حلب وانضم اليهم عسكر
 حلب وسار الي صلاح الدين فارسل صلاح الدين يبذل حمص وحماه وان
 يقر بيده دمشق ويكون فيها نائباً للملك الصالح فلم يجيبوا الي ذلك وساروا
 الي قتاله واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم صلاح
 الدين وعسكره اموالهم وتبعهم صلاح الدين حتي حصرهم في حلب وقطع
 حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة واستبد
 بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين في الصلح علي ان يكون له ما بيده من الشام

وللملك الصالح ما بقي بيده منهم فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب في
العشر الاول من شوال من هذه السنة.

وفي العشر الاخير من شوال ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين
واخذها من صاحبها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني وكان فخر الدين المذكور
من اكابر الامراء النورية*

﴿ ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل

من السلطان صلاح الدين ﴾

ثم دخلت سنة احدي وسبعين وخمسةائة وفيها عاشر شوال كان المصاف
بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بتل
السلطان فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه فانه كان قد استنجد
بصاحب حصن كيفا وصاحب مارددين وغيرهما وتمت على سيف الدين غازي
الهزيمة حتي وصل الى الموصل مرعوبا وقصد الهروب منها الي بمض القلاع
فقبته وزيره وأقام بالموصل واستولى السلطان صلاح الدين على اُنقال عسكر
الموصل وغيرهم وغنم ما فيها ثم سار الى نرابه وحصرها وتسلمها ثم سار الي منبج
فحصرها في آخر شوال وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي
شديداً بنض لصلاح الدين وفتحها عنوة وأسرى ينال وأخذ جميع موجوده ثم
أطلقه فسار ينال الى الموصل فاقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة ثم سار
السلطان صلاح الدين الي عزاز ونازلها ثالث ذى القعدة وتسلمها حادي عشر
ذى الحجة فوثب الاسماعيلى على صلاح الدين في حصاره عزاز فضربه بسكين
في رأسه فجرحه فامسك صلاح الدين الاسماعيلى وبقي يضرب بالسكين فلا
يؤثر حتى قتل الاسماعيلى على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل

أيضا ونجا السلطان الي خيمته مذعورا وعرض جنده وأبعد من انكره منهم
 * ولما ملك السلطان عزاز رحل عنها ونازل حلب في منتصف ذي الحجة
 وحصرها وبها الملك الصالح وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب فسألوه
 في الصلح فأجابهم اليه وأخرجوا اليه بنتا صغيرة لنور الدين فاكرمها وأعطها
 شيئا كثيرا وقال لها ماترومين فقالت أريد قلعة عزاز وكانوا قد علموها ذلك
 فسلمها السلطان اليهم واستقر الصلح ورحل السلطان من حلب في العشرين
 من محرم سنة اثنتين وسبعين *

وفي سنة احدى وسبعين في رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن
 أيوب من اليمن الي الشام وأرسل الي أخيه صلاح الدين يعله بوصوله *
 ثم دخلت سنة اثنين وسبعين وخمسمائة وفيها قصد السلطان بلد
 الاسماعيلية في قلعة مصيات فارسل سنان مقدم الاسماعيلية الي خال صلاح
 الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماه يسأله أن يسمي في الصلح
 فسأل الحارمي الصلح عنهم فأجابه صلاح الدين الي ذلك وصالحهم ورحل
 عنهم وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ووصل الي مصر فانه كان بعد عهده
 بها بد ان استقر له ملك الشام * ولما وصل الي مصر في هذه السنة أمر
 ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلمة على جبل المقطم ودور ذلك
 تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع القاسمي ولم يزل العمل
 فيه الي ان مات صلاح الدين *

وفي هذه السنة أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الامام
 الشافعي رضى الله عنه بالقرافة بمصر وعمل بالقاهرة مارستان *
 ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وفي جمادي الاولي منها سار

السلطان من مصر الى الساحل لنزو الافرنج فوصل الي عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر فهب وتفرق عسكره في الاغارات وبقى السلطان في بعض العسكر فلم يشعر الا بالافرنج قد طاعت عليه فقاتلهم أشد قتال وكان لتقى الدين بن شاهنشاه ولد اسمه أحمد من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته فأمره أبوه تقي الدين بالحملة فحمل عليهم وقاتلهم فأثر فيهم أثراً كبيراً وعاد سالماً فأمره أبوه بالعود اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيداً وتمت الهزيمة على المسلمين وقاربت حملات الافرنج السلطان فمضى منهزماً الى مصر على البرية ومعه من سلم فلقوا في طريقهم مشقة وعطشا شديداً وهلك كثير من الدواب وأخذت الافرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون في الاغارات أسرى وأسر النقيه عيسى وكان من أكبر أصحاب السلطان فافتداه السلطان من الاسر بعد سنتين بستين ألف دينار ووصل السلطان الى القاهرة نصف جمادى الآخرة . قال الشيخ عز الدين علي بن الاثير مؤلف الكامل رأيت كتاباً بخط يد صلاح الدين الي أخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة وفي أوله

« ذكرتك والخطي يخطر بيننا * وقد نهلت منا المثقفة السمير »

ويقول فيه « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه الا

لأمر يريده سبحانه وتعالى »

وفي هذه السنة سار الفرنج وحصروا مدينة حماة في جمادى الاولى وطمع الافرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته من الافرنج ولم يكن غير توران شاه بدمشق يثوب عن أخيه وليس عنده كثير من العسكر وكان توران شاه أيضاً كثير الانهماك في اللذات * ماثلاً الي الراحة * ولما حصروا

حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال السلطان وهو مريض واشتد حصار الافرنج لحماة وطال زحفهم عليها حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرا ثم جد المسلمون في القتال واخرجوا الافرنج الى ظاهر السور وأقام الافرنج كذلك على حماة أربعة أيام ثم رحلوا عنها الى حارم وعقب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي وكان له ابن من أحسن الناس شبايا مات قبله بثلاثة أيام

وفي هذه السنة قبض الملك الصالح ابن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كشتكين وكان قد تغلب على الامر وكانت حارم لكشتكين فارس الملك الصالح اليهم فلم يسدوها اليه فأمر كشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه فأمر بتعذيب كشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات من العذاب وأصر أصحابه على الامتناع ووصل الافرنج الي حارم بعد رحيلهم عن حماة وحصروا حارم مدة أربعة أشهر فأرسل الملك الصالح مالا للافرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم وقد بلغ أهله الجهد وبعد أن رحل الافرنج عنها أرسل الملك الصالح اليها واستتاب بقلعة حارم مملوكا لابيها اسمه سرخك *

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة وفي هذه السنة طلب توران شاه من أخيه السلطان بعلبك وكان السلطان قد أعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بالمقدم لما سلم دمشق الى صلاح الدين ولم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك فأرسل الى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصي بها ولم يسلمها فأرسل السلطان وحصره بعلبك وطال حصارها فأجاب ابن المقدم الى تسليمها على عوض فعوض عنها وتسلمها السلطان واقطعها أخاه توران شاه *

وفيهما كان بالبلاد غلاء عام وتبهه وباء شديد * وفيها سير السلطان ابن أخيه
تقي الدين عمري حماة وابن عمه محمد بن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ
بلادهما فاستقر كل منهما ببلده *

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة وفيها سار السلطان وفتح حصنا
كان بناه الافرنج عند مخاضة الاجران بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب
* وفيها كان حرب بين عسكر السلطان ومقدمهم تقي الدين عمر بن شاهنشاه
ابن أيوب وبين عسكر قليج أرسلان صاحب الروم . وسبها ان حصن رعبان
كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج وأرسل اليه عسكرا كثيرا
ليحصروه وكانوا قريب عشرين ألفا وسار اليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم
وكان تقي الدين يفتخر ويقول هزمت بألف عشرين ألفا

﴿ ذكر وفاة المستضىء وخلافة الامام الناصر وهو رابع ثلاثينهم ﴾

في هذه السنة ثاني ذي القعدة توفي المستضىء بأمر الله أبو محمد الحسن وأمه
أم ولد أرمنية وكانت خلافته تسع سنين وسبعة عشر يوما وكان حسن السيرة
وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبوبكر منصور المعروف بابن العطار بعد
عضد الدين الوزير فلما مات المستضىء قام ظهير الدين ابن العطار وأخذ البيعة لولده
الامام الناصر لدين الله * ولما استقرت البيعة للامام الناصر حكم استاذ الدار مجد الدين
أبو الفضل وقبض في سابع ذي القعدة على ابن العطار ونقل الي التاج وأخرج ميتا
على رأس جمال ليلة الاربعاء ثاني عشر ذي القعدة فثارت به العامة وألقوه من
على رأس الجمال وشدوا في ذكره جبلا وسحبوه في البلد وكانوا يضعون في يده
مغرفة يعنى انها قلم وقد غمست تلك المغرفة في العذرة ويقولون وقع لنا يامولانا
، هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم ثم خلع منهم ودفن

وفي هذه السنة في ذي القعدة نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك فطلب عوضها الاسكندرية فاجابه السلطان الي ذلك وأقطع بعلبك لعز الدين نخر شاه بن شاهنشاه بن أيوب فسار اليها نخر شاه وسار شمس الدولة توران شاه الي الاسكندرية وأقام بها الي أن مات *

﴿ ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل ﴾

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسة وفي هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية وكان مرضه السل وطال وكان عمره نحو ثلاثين سنة وكنت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة ابيض اللون عاقلاً عادلاً عفيفاً شديد الغيرة لا يدخل بيته غير الخدم اذا كانوا صغاراً فاذا كبر أحدهم منعه وكان عفيفاً عن أموال الرعية مع شح كان فيه وأوصي بالملكه بعده الي أخيه عز الدين مسعود بن مودود وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجار شاه فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيام *

وفي هذه السنة سار السلطان الي جهة قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ووصل الي رعبان ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الارمني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى اطلقها

وفيها توفي شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالاسكندرية وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون اليه الاموال من زبيد وعدن وغيرها وكان أجود الناس واسخام كفا يخرج كل ما يحمل اليه من اموال اليمن ودخل الاسكندرية ومع هذا فلما مات كان عليه نحو

مئتي الف دينار مصرية فوفها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل الي مصر
في هذه السنة في شعبان واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن
شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك *

ثم دخل سنة سبع وسبعين وخمسمائة وفيها عزم البرنس صاحب الكرك
على المسير الي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحي
الشرقية وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان بدمشق فجمع
جموعا وقصد بلاد الكرك وأغار عاها وأقام في مقابلة البرنس ففرق البرنس
جموعه وانقطع عزمه عن الحركة *

وفيها وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف نخشي السلطان
صلاح الدين على اليمن فجهز اليه عسكريا مع جماعة من أمرائه فوصلوا الي اليمن
واستولوا عليه وكان نواب توران شاه على عدن عز الدين عثمان وعلى زبيد
حطان بن كامل بن منقذ الكنانى من بيت صاحب شيزر *

﴿ ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب ﴾

في هذه السنة في رجب توفى الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين
محمود بن زنكى بن اقسنقر صاحب حلب وعمره نحو تسع عشرة سنة ولما
اشتد به مرض القولنج وصف له الاطباء الخرفات ولم يستعمله وكان
حليما عفيف اليد والفرج واللسان ملازما لامور الدين لا يعرف له شيء مما
يتعاطاه الشباب وأوصى بملك حلب الي ابن عمه عز الدين مسعود صاحب
الموصل فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قياز من الموصل الي حلب
واستقر في ملكها . ولما استقر مسعود في ملك حلب كاتبه أخوه عماد
الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار في ان يعطيه حلب ويأخذ منه سنجار

فأشار قياز بذلك فلم يمكن مسعودا الا موافقته فأجاب الى ذلك فسار عماد الدين الى حلب وتسلمها وسلم سننجارا الى أخيه مسعود وعاد مسعود الى الموصل

﴿ ذكر مسير السلطان صلاح الدين الى الشام ﴾

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسة وثمانون وفيها خامس محرم سار صلاح الدين من مصر الى الشام * ومن عجيب الاتفاق انه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه أخذ كل منهم يقول شيئاً في الوداع وفراقه وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد

تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار
فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه وتكدر المجلس على
الحاضرين فلم يعد صلاح الدين بعدها الى مصر مع طول المدة وسار
السلطان وأغار في طريقه على بلاد الافرنج وغنم ووصل الى دمشق في
حادى عشر صفر من هذه السنة . ولما سار صلاح الدين الى الشام اجتمعت
الافرنج قريب الكرك ليكونوا على طريقه فانهم فرخشاه نائب السلطان
القرصة وسار الى الشقيف بعساكر الشام وفتحها وأغار على ما يجاوره من
بلاد الافرنج وأرسل الى السلطان وبشره بذلك *

﴿ ذكر ارسال سيف الاسلام الى اليمن ﴾

في هذه السنة سير السلطان أخاه سيف الاسلام طغتكين الى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها وكان بها حطان بن منقذ الكناني وعز الدين عثمان الزنجيلي قد عادا الى ولايتها فان الامير الذي كان سيره السلطان نائباً

الى اليمن تولى وعزلها فعادت بين حطان وعثمان الفتن قائمة فوصل سيف الاسلام الى زبيد فتحصن حطان في بعض القلاع فلم يزل سيف الاسلام يتلطف به حتى نزل اليه فأحسن صحبته ثم ان حطان طالب دستوراً الى الشام فلم يجبه الا بعد جهد فجز حطان اثقاله قدامه ودخل حطان ليودع سيف الاسلام فقبض عليه وأرسل فاسترجع اثقاله وأخذ جميع أمواله . وكان من جملة ما أخذه سيف الاسلام سبعون غلاف زردية مملوءة ذهباً عيناً ثم سجن حطان في بعض قلاع اليمن فكان آخر العهد به . فأما عثمان الزنجيلي فانه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام وسير أمواله في البحر فصادفهم مركب فيها أصحاب سيف الاسلام فاخذوا كل مالعثمان وصفت بلاد اليمن لسيف الاسلام *

﴿ ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما استولى عليه من البلاد ﴾

في هذه السنة سار السلطان من دمشق في ربيع الاول ونزل قريب طبرية وشن الغارات على بلاد الافرنج مثل بانياس وجنين والنور فغنم وقتل وعاد الى دمشق ثم سار عنها الى بيروت وحصرها وأغار على بلادها ثم عاد الى دمشق ثم سار من دمشق الى البلاد الجزرية وعبر القرات من البيرة فسار معه مظفر الدين بن زين الدين وكان حينئذ صاحب حران وكاتب السلطان مملوك تلك الاطراف واستمالهم فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وصار معه ونازل السلطان الرها وحصرها وملكها وسلمها الى مظفر الدين كوكبوري بن قطب الدين بن ينال بن حسان المنبجى فسار ينال الى عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم سار صلاح الدين الى الحابور وملك قرسيسية وماكسين وعربان والحابور واستولى على

خابور جصيعة ثم سار الى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم ملك القلعة ثم
أقطع نصيبين أميراً كان معه يقال له أبو لهيजा السمين ثم سار عن نصيبين
وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قياز
للحصار وشحنوها بالرجال والأسلحة فحصر الموصل وأقام عليها منجنيقاً قاموا
عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق وضابق الموصل فنزل السلطان محاذة باب
كندة ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر ونزل تاج الملوك توري أخو
صلاح الدين على باب العمادى وجري القتال بينهم وكان ذلك في شهر رجب
فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل الى سنجار وحاصرها وملكها
واستتاب بها سعد الدين بن معين الدين من اكابر الامراء وأحسنهم صورة
ومعنى ثم سار السلطان الى حران وعزل في طريقه عن نصيبين أبا لهيجا
السمين

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولاً في بحر أيلة
وسار في البحر فرقتان فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه وفرقة سارت
نحو عيذاب يفسدون في السواحل وبلغتوا المسلمين في تلك النواحي فانهم لم
يعهدوا بهذا البحر افرنجاً قط وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائباً عن أخيه
السلطان فعمر أسطولاً في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين الحاجب لؤلؤ
وهو متولي الاسطول بديار مصر وكان مظفراً شجاعاً فسار لؤلؤ مجدداً في
طلبهم وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسروهم ثم سار في طلب الفرقة
الثانية وكانوا قد عزموا على الدخول الى الحجاز ومكة والمدينة حرسهما الله
تعالى فسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابع فآدرتهم بساحل الخوار وقاتلوا أشد

قتال فظفره الله تعالى بهم وقتل لؤلؤ أكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم الي مني لينحروا بها وعاد بالباقيين الي مصر فقتلوا عن آخرهم وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقة من بين أهله وكان فرخشاه شجاعاً كريماً فاضلاً وله شعر جيد ووصل خبر موته الي صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية فارسل الي دمشق شمس الدين بن محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور وفيها توفي بدمشق مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الفقيه الشافعي ولد سنة خمس وخمسمائة وهو الملقب قطب الدين وكان اماماً فاضلاً في العلوم الدينية قدم الي دمشق وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين وكان السلطان يقرئها اولاده الصغار*

﴿ ذكر مملكة السلطان صلاح الدين من البلاد ﴾

ثم دخت سنة تسع وسبعين وخمسمائة وفيها ملك السلطان حصن آمد بعد حصار وقتال في العشر الاول من محرم وسلمها الي نور الدين محمد بن قره أرسلان بن داود بن سكرمان بن أرتق صاحب حصن كينفا ثم سار الي الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها ثم سار الي عينتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود ابن زنكي وكان قد سلم نور الدين عينتاب الي اسماعيل المذكور فبقيت معه الي الآن فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها اليه فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان ومن جملة أمرائه ثم سار السلطان الي حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي وطال الحصار عليه وكان قد كثرت اقتراحات أمراء

حلب عليه وقد ضجر من ذلك وكره حلب لذلك فاجاب السلطان الي تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيدين والخابور والرفة وسروج واتفقوا على ذلك وسلم حلب الي السلطان في صفر من هذه السنة فكان ينادى أهل حلب على عماد الدين المذكور « يا حمار . بعث حلب بسنجار . » واشترط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور الي خدمته بنفسه وعسكره اذا استدعاه ولا يحتج بحجة عن ذلك ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر * مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوك توري بن أيوب أخو

السلطان الأصغر وكان كريما شجاعا طعن في ركبته فانفلقت فمات منها

ولما استقر الصلح عمل عماد الدين زنكي دعوة للسلطان واحتفل فيينماهم

في سرورهم اذ جاءهم انسان فاسر الي السلطان بموت أخيه توري فوجد عليه

في قلبه وجدا عظيما وأمر بتجهيزه ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحدا ممن

كان في الدعوة بذلك لثلا يتكده عليهم ما هم فيه وكان يقول السلطان ما وقعت

علينا حلب رخيصة بموت توري وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم

ولما ملك السلطان حلب أرسل الي حارم وبها سرخك الذي ولاه

الملك الصالح في تسليم حارم وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال

وكتب سرخك الافرنج فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم الي

السلطان فتسلمها وقرر أمر حلب وبلادها وأقطع اعزاز أميرا يقال له سليمان

ابن جندر

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قياز *

ولما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي وسار الى دمشق وتجهز منها للغزو فعبه نهر الاردن تاسع جمادى الآخرة فاغار على بيسان وحرقتها وشن الغارات على تلك النواحي ثم تجهز السلطان للكرك وأرسل الى نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقيه على الكرك فسار واجتمعوا عليها وحصر الكرك وضيق عليها ثم رحل عنها في منتصف شعبان وسار معه أخوه وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر الى مصر نائب عنه موضع الملك العادل ووصل السلطان الى دمشق وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها وسيره اليها في شهر رمضان من هذه السنة وأحضر ولده الظاهر منها الى دمشق *

وفي هذه السنة في أواخرها توفي شاهر من بن سكرمان بن ظبير الدين ابراهيم بن سكرمان القطبي صاحب خلاط وقد تقدم ذكر ملك شاهر من المذكور في سنة احدى وعشرين وخمسة مائة وكان عمر سكرمان لما توفي أربعاً وستين سنة ولما مات سكرمان كان بكثر مملوك أبيه بميفارقين فلما سمع بكثر بموته سار من ميفارقين ووصل الى خلاط وكان أكثر أهلها وممالك شاهر من متفقين معه وأول وصوله استولي على خلاط وتملكها وجلس على كرسي شاهر من واستقر في مملكة خلاط حتى قتل في سنة تسع وثمانين وخمسة مائة حسبما يذكره ان شاء الله تعالى



﴿ ذكر غزو السلطان الكرك ﴾

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسة مائة وفيها في ربيع الآخر سار السلطان من دمشق للغزاة وكتب الي مصر فسارت عساكرها اليه ونازل الكرك وحاصره وضيق على من به ربض الكرك وبقيت القلعة وليس بينها وبين الربض غير خندق حبيب وقصد السلطان طمه فلم يقدر لكثرة المقاتلة فجمعت الافرنج فارسها وراجلها وقصدوه ولم يمكن السلطان الا الرحيل فرحل عن الكرك وسار اليهم فأقاموا في أماكن وعرة وأقام السلطان قبالتهم وسار من الافرنج جماعة ودخلوا الكرك فعلم بامتناعه عليه وسار الي نابلس ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسي فآكثر ثم نزل الي سبسطية وبها مشهد زكرياء عليه السلام فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ثم سار الي جبنين ثم عاد الي دمشق *

وفي هذه السنة توفي شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل ابن أبي سعيد أحمد وكان قد سار من عند الخليفة الي السلطان في رسالة ومعه شهاب الدين بشير ليصلح بين صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل فلم ينتظم حال واتفق انهما مرضا بدمشق وطلبا المسير الي العراق وسارا في الحر ومات بشير في السخنة ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة ودفن بمشهد البوق وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا

وفيها في محرم أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قياز من الحبس وأحسن اليه



﴿ ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل ﴾

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسة وثمانين وفيها حصر السلطان الموصل وهو حصاره الثاني فأرسل اليه عز الدين والدته وابنة عمه نور الدين بن زنكي وغيرها من النساء وجماعة يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم فردهم واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لا سيما وفيهن بنت نور الدين وحاصر الموصل وضايقتها وبلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخر من هذه السنة فسار من الموصل الي جهة خلاط باستدعاء أهلها ليلكها وفي هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قره أرسلان بن داود صاحب حصن كينا وآمد وملك بعده ولده سكيان ولقب قطب الدين وكان صغيرا فقام بتدييره القوام بن سماق الاسعدي وحضر سكيان الي السلطان وهو نازل على ميا فارقين فاقره على ما كان بيد والده وأقام معه أميراً من أصحاب سكيان المذكور *

﴿ ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميا فارقين ﴾

لما رحل السلطان عن الموصل جعل طريقه على ميا فارقين وكانت لصاحب ماردين الذي توفي وفيها من يحفظها من جهة شاه أرمن صاحب خلاط المتوفي فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادى الاولي ثم ان السلطان رجع عن قصد خلاط الي الموصل فجاءه رسل عز الدين مسعود يسأل الصلح واتفق حينئذ أن السلطان مرض وسار من كافر زمارعائدا الي حران فلحقته رسل صاحب الموصل بالاجابة الي ماطلب وهو أن يسلم صاحب الموصل السلطان شهرزور واعمالها وولاية القرايلى وجميع ما وراء الزاب وأن

يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل وماييده وأن يقرب اسمه على الدراهم والدنانير وتسلم السلطان ذلك واستقر الصالح وأمنت البلاد ووصل السلطان الي حران وأقام بها مريضاً واشتد به المرض حتى أيسوا منه ثم انه عوفي وعاد الي دمشق سنة اثنتين وثمانين من محرم . ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه بن شاذي صاحب حمص الي حمص وكاتب بعض اكابر دمشق في أن يسلموا اليه دمشق اذا مات السلطان

وفي هذه السنة ليلة عيد الاضحى شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي فأصبح ميتا قيل ان السلطان هو الذي دس عليه من سقاه سما لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه . والامات أقر السلطان حمص وما كان بيده علي ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنا عشرة سنة وخلف صاحب حمص شيأ كثيرا من الدواب والآلات وغيرها فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عوده من حران وأخذ اكثرها ولم يترك الا ما لا خير فيه

• ﴿ ذكر نقل الملك العادل من حلب واخراج الملك الافضل

ابن السلطان من مصر الي دمشق ﴾

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة وفيها أحضر السلطان ولده الملك الافضل من مصر وأقطعه دمشق وسببه أن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان كان نائب عمه بمصر وكان معه الملك الافضل فأرسل تقي الدين يشتكي من الافضل اني لا اتمكن من استخراج الخراج فاني اذا احضرت من عليه الخراج واردت عقوبته يطلقه الملك الافضل فارسل السلطان أخرج ابنه الافضل من مصر وأقطعه دمشق وتغير السلطان علي تقي الدين

في الباطن فانه ظن انه انما أخرج ولده من مصر ليمتلك مصر اذا مات السلطان ثم أحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل معه ولده العزيز عثمان ابن السلطان نائباً عنه بمصر واستدعى تقي الدين من مصر . فقيل انه توقف عن الحضور وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد افريقية وبرقة من المغرب وبلغ السلطان ذلك فساءه وأرسل يستدعي تقي الدين ويلاطفه فحضر . ولما حضر تقي الدين الى السلطان زاده على حماة منبج والمرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع اعمالها واستقر العادل والعزيز عثمان في مصر . ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل اقطعه عوضاً حران والرها*

﴿ ذكر وفاة البهلوان وملك اخيه قزل ﴾

وفي هذه السنة في اولها توفي البهلوان محمد بن الدكر صاحب بلد الجبل وهمدان والري واصفهان واذربيجان وارانة وغيرها من البلاد وكان عادلاً حسن السيرة وملك البلاد بعده اخوه قزل ارسلان واسمه عثمان وكان السلطان طغريل بن ارسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان وله خطبة في بلاده وليس له من الامر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل وكثر جمعه واستولى على بعض البلاد وجرت بينه وبين قزل حروب

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك واخذ قافلة عظيمة من المسلمين واسرهم فارسل السلطان يطلب منه اطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت

بينهم على ذلك فلم يفعل فغدر السلطان انه ان اظفره الله به قتله بيده

﴿ ذكر غزوات السلطان وفتوحاته ﴾

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وفيها جمع السلطان العساكر وسار بفرقة من العسكر وضائق الكرك خوفا على الحجاج من صاحب الكرك وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل فاغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية وغنموا شيئا كثيرا ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته فارسلت الافرنج الى القومص المذكور القسوس والبطرك يهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه فصار معهم واجتمع الافرنج للقاء السلطان

﴿ ذكر وقعة حطين وهي الوقعة العظيمة التي

فتح الله بها الساحل وبيت المقدس ﴾

ولما أخذ السلطان مدينة طبرية اجتمعت الافرنج وملوكهم بفارسهم وراجهم وساروا الى السلطان فركب السلطان من عند طبرية وسار اليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال ولما رأى القومص شدة الامر حمل على مقدمة المسلمين وهناك تقى الدين صاحب حماة فافرج له وعطف عليه ونجا القومص ووصل الى طرابلس وبتى مدة يسيرة ومات غنبا ونصر الله تعالى المسلمين وأحدقوا بالافرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلا وأسرروا وكان من جملة من أسر ملك الافرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب حبل وابن الهنغري ومقدم الداوية وجماعة من الابدستارية

وما أصيب الا فرنج منذ خرجوا الي الشام في سنة احدى وتسعين واربعائة
الي الآن بمصيبة مثل هذه الواقعة

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته وأحضر ملك الا فرنج
وأجلسه الي جانبه وكان الحر والعطش به شديدا فسقاه السلطان ماء مثلوجا
فستى ملك الا فرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك فقال له السلطان هذا
الملعون لم يشرب الماء باذنى فيكون أمانا له ثم كلم السلطان البرنس ووبخه
وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين وقام السلطان بنفسه فضرب
عنقه فارتعدت فرائض ملك الا فرنج فسكن جاشه . ثم عاد السلطان الي طبرية
وفتح قلعتها بالامان ثم سار الي عكا وحاصرها وفتحها بالامان ثم أرسل الي أخيه
العادل فنازل مجد اليابا وفتحه عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا
الناصره وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلشا والغولة وغيرها من البلاد المجاورة
لعكا بالسيف وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الاماكن وأرسل فرقة الي
نابلس فلكوا قلعتها بالامان ثم سار الملك العادل بعد فتح مجد اليابا الي يافا
وفتحها عنوة بالسيف ثم سار السلطان الي تبنين ففتحها بالامان ثم سار الي صيدا
فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لتسع بقين من جمادى الاولى
من هذه السنة ثم سار الي يروت فحاصرها وتسلمها في السابع والعشرين من
جمادى الاولى بالامان وكان حصرها مدة ثمانية أيام . وكان صاحب حبيل من
جملة الاسرى فبذل حبيل بان يسلمها ويطلق سراحه فأجيب الي ذلك وكان
صاحب حبيل من أعظم الا فرنج واشدهم عداوة للمسلمين ولم تكن عاقبة اطلاقه
حميدة وأرسل السلطان وتسلم حبيل وأطلقه وفيها حضر المركيس في سفينة
الي عكا وهي للمسلمين ولم يعلم المركيس بذلك واتفق هجوم الهواء فراسل

المركيس الملك الافضل وهو بعكا يقترح أمرا بعد أمر والملك الافضل يجيب الى ذلك المركيس الى أن هب الهواء فأقلع المركيس الى صور واجتمع عليه الافرنج الذين بها وملك صور وكان وصول المركيس الى صور واطلاق الافرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالامان وحملهم الى صور من أعظم أسباب الضرر الذي حصل حتى راحت عكا وقوى الافرنج بذلك

ثم سار السلطان الى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما وتسلمها بالامان سلخ جمادي الآخرة ثم بث السلطان عسكره ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنظرون وغير ذلك . ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر وضايق السلطان السور بالنقابين واشتد القتال ونقبوا السور وطلب الافرنج الامان فلم يجبهم السلطان الى ذلك وقال لا آخذها الا بالسيف مثل ما أخذها الافرنج من المسلمين فعاودوه في الامان وعرفوه ما هم عليه من الكثرة وانهم ان يسوا من الامان قاتلوا خلاف ذلك القتال فأجابهم السلطان الى ذلك وشرط أن يؤدي كل من بهامن الرجال عشرة دنانير عشرة دنانير وتؤدي النساء خمسة ويؤدوا عن كل طفل دينارين وأن من عجز عن ذلك يكون أسيرا فأجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب وكان يوما مشهودا ورفعت الاعلام الاسلامية على أسوار المدينة ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور نغان المرتبون في ذلك ولم يحملوا الا القليل

وكان على رأس قبة الصخرة صليب مذهب قتلوا المسلمون واقتلعوه فسمع لذلك ضجة لم يعهد مثلها من الافرنج بالتفجع والتوجع وكان الافرنج قد عملوا غربي المسجد الاقصي نهرا ومستراحا فأمر السلطان بازالة ذلك

واعادة الجامع اى ما كان عليه . وكان نور الدين محمود بن زنكى قد عمل منبراً بحلب تمب عليه مدة وقال هذا لاجل القدس فأرسل السلطان أخصر المنبر من حلب وجمعه في المسجد الاقصى وأقام السلطان بعد فتح القدس بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس الشفعية

ثم رحل السلطان الى عكا ورحل منها الى صور وصاحبها المراكيس قد حصنها بالرجال وحفر خندقها ونزل السلطان على صور تاسع عشر رمضان وحاصرها وضيقها وطلب الاسطول فوصل اليه في عشر شوال فاتفق أن الافرنج كبسوم في الشوانى وأخذوا خمس شوان ولم يسلم من المسلمين الا من سبع ونجا وأخذ الباقون وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في آخر شوال أول كانون الاول وأقام بعكا وأعطى المساكين الدستور فسار كل واحد الى بلده وبقي السلطان بعكا في حلقتة وأرسل الى هونين وفتحها بالامان

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة سار شمس الدين محمد بن المقدم بعد فتح القدس جاجا وكان هو أمير الحاج الشامي ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج في عام واحد فسار ووقف بعرفات ولما أفضأ أرسل اليه طاستكين أمير الحاج العراقى يمنعه من الافاضة قبله فلم يلتفت اليه فسار العراقيون واقتتلوا مع الشاميين فقتل بينهم جماعة وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال فجرح ومات شهيدا ودفن بمقبرة المعلى ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة فشتي السلطان في هذه السنة بعكاشم

سار بمن معه وقصد كوكب وجعل على حصارها أميراً يقال له قايماز النجمي وسار منها في ربيع الاول ودخل دمشق ففرح الناس بقدمه وكتب الى الاطراف باجتماع العساكر وأقام في دمشق خمسة أيام وسار من دمشق منتصف ربيع الاول ونزل على بحيرة قدس غربي حمص فأنته العساكر بها فأولهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين . ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الاكرادوشن الغارات على بلاد الافرنج وسار من حصن الاكراد فنزل على أنطرسوس فوجد الافرنج قد أدخلوا أنطرسوس فسار الى مرقية فوجدهم قد أدخلوها أيضاً فسار تحت المرقب وهو الاستبار فوجده لا يرام ولا لاحد فيه مطمع فسار الى جبلة ووصل اليها ثامن جمادى الاولى وتسلمها حالة وصوله فجعل فيها لحفظها الامير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر ثم سار السلطان الى اللاذقية فوصل اليها في الرابع والعشرين من جمادى الاولى ولها قلعتان فحصر القلعتين . ولما ملك السلطان اللاذقية سلمها الى الملك المظفر تقي الدين فعمرها وحصن قلعتها . وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع والبرامجة عليها كما فعل بقلعة حماة ثم رحل السلطان عن اللاذقية في التاسع والعشرين من جمادى الاولى الى صهيون فحاصرها وضايقتها وطلب أهلها الامان فلم يجبهم الا على امان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوا الي ذلك وتسلم السلطان قاعة صهيون وسلمها الي أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين ثم فرق عسكره في تلك الجبال فلكوا حصن بلاطوس وكان الافرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه وملكوا حصن العبد وحصن الجماهونين ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ووصل الي قلعة بكراس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشيفر فحصرها

ووجدها منيعة وضايقها فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الفزع وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان فأرسل السلطان الملك الظاهر صاحب حلب فحاصر سرمينية وضايقها وملكها واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم الحصن وعفى أثره وكان في الحصن وفي الحصون المذكورة من أسري المسلمين الجم النغير فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة ثم سار السلطان من الشفر الي برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها بالزحف وملكها بالسيف في السابع والعشرين من جمادى الآخرة وسبي وأسرو وقتل أهلها . قال مؤلف الكامل ابن الاثير كنت مع السلطان في مسيره وفتح هذه البلاد طالباً للغزاة فأحكي ذلك عن مشاهدة ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد وهو على العاصي بالقرب من أنطاكية فأقام عليه أياماً حتي تلاحق به من تأخر من العسكر ثم سار الي دربساك ونزل عليها ثامن رجب وحاصرها وضايقها وتسلمها بالأمان على شرط أن لا يخرج منها أحد الا بئيا به فقط وتسلمها تاسع عشر رجب . ثم سار عن دربساك الي بغراس فحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان دربساك وأرسل بيمند صاحب انطاكية الي السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل اطلاق كل أسير عنده فأجابه السلطان الي ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر وكان صاحب انطاكية حينئذ أعظم ملوك الافرنج في هذه البلاد فان أهل طرابلس سلموا اليه طرابلس

ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة سار الي حلب ثالث شعبان وسار منها الي دمشق واعطي عماد الدين زنكي دستورا وكذلك اعطي غيره من العساكر الشرقية وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر

ابن عبد العزيز رضى الله عنه فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي وكان مقبلا هناك وكان من عباد الله تعالى الصالحين وله كرامات ظاهرة . وكان مع السلطان أبو فليته الامير قاسم بن مهنا الحسيني صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وشهد معه مشاهدته وفتوحاته وكان السلطان يتبرك برؤيته ويتيمن بصحبته ويرجع الي قوله ودخل السلطان دمشق في شهر رمضان المعظم فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا فقال السلطان ان العمر قصير والأجل غير مأمون وكان السلطان لما سار الي البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحاصرها وخلي أخاه العادل في تلك الجهات يباشر ذلك فأرسل أهل الكرك يطلبون الامان فأمر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسليمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد *

ثم سار السلطان من دمشق في منتصف رمضان الي صفد فحصرها في ذي القعدة وسير أهلها الي صور وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم اسباب الضرر على المسلمين ظهر ذلك فيما بعد ثم سار السلطان الي القدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار الي عكا فاقام فيها حتي انسلخت السنة * وفي هذه السنة ارسل قزل ابن الدكر يستنجد بالخليفة الامام الناصر على طغريل بن ارسلان بن طغريل السلجوقي ويحذره عاقبة امره فأرسل الخليفة عسكرا الي طغريل والتقوا ثامن ربيع الاول قرب همدان فانهزم عسكر الخليفة وغنم طغريل أموالهم وأسروا مقدم العسكر جلال بن عبد الله وزير الخليفة * ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة وفيها سار صلاح الدين ونزل بمرج عيون وحضر اليه صاحب شقيف ارتون وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان وكان

اسم صاحب الشقيف ارناط فقال له السلطان في التسليم فقال لا يوافقني عليه
اهلى فامسكه السلطان وبعثه الى دمشق فحبس *

﴿ ذكر حصار الافرنج عكا ﴾

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان بالامان فكثروا
جمعهم حتي صاروا في عالم لا تحصى كثرته وأرسلوا الى البحرين يستنجدون
وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه وقالوا هذا
نبي العرب يضرب المسيح فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من الافرنج
في البحر عالم لا يحصون كثرة وساروا الي عكا من صور ونازلوها في منتصف
رجب من هذه السنة وضايقوا عكا وأحاطوا بسورها من البحر الى البحر
ولم يبق للمسلمين اليها طريق فسار اليهم السلطان ونزل قريب الافرنج وقائلهم
في مستهل شعبان وباتوا على ذلك وأصبحوا فحمل تقي الدين صاحب حماة
من ميمنة السلطان على الافرنج فأزالهم عن موقفهم والتصق بالسور وانفتح
الطريق الي المدينة يدخل المسلمون ويخرجون وأدخل السلطان الي عكا عسكر
نجدة وكان من جملتهم أبو الهيجاء السمين وبقي المسلمون ينادون القتال
ويراحونه الي العشرين من شعبان ثم كان بين المسلمين وبينهم وقعة عظيمة
فان الافرنج اجتمعوا وضربوا مع السلطان مصاف وحملوا على القلب فزالوه
وأخذوا يقتلون في المسلمين الي أن بلغوا خيمة السلطان وانحاز السلطان الي
جانب وانضاف اليه جماعة وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتال الميمنة فحمل
السلطان على الافرنج الذين خرقوا القلب وعطف عليهم العسكر فانهم قتلوا
وكان قتلي الافرنج نحو عشرة آلاف نفس ووصل المهزومون بعضهم الي طبرية
وبعضهم وصل الي دمشق *

وجافت الأرض بعد هذه الواقعة ولحق السلطان مرض وحدث له قولنج فإشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر شهر رمضان الي الخروبة فلما رحل تمكن الافرنج من حصار عكا وانبسطوا في تلك الأرض . وفي تلك الحال وصل اسطول للمسلمين في البحر مع حسام الدين لؤلؤ وكان شهما فظفر ببطسة للافرنج فاخذها ودخل بها الى عكا فقويت قلوب المسلمين وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر الي أخيه السلطان فقويت نفوس المسلمين بوصوله

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

فيها توفي بالحروبة الفقيه عيسى وكان مع السلطان وهو من أعيان عسكره وكان جنديا فقيها شجاعا وكان من أصحاب الشيخ أبي القاسم البرزي ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة وفيها رحل السلطان عن الخروبة وعاد الى قتال الافرنج على عكا وكان الافرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبراج طول البرج ستون ذراعا جاءوا بنخشبها من جزائر البحر وعملوها طبقات وشحنوها بالسلاح والمقاتلة وأبسوها جلود البقر والطين بالخل لثلاث تعمل فيها النار فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الاول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح ثم أحرقوا الثاني والثالث وانبسطت نفوس المسلمين بذلك بعد الكآبة ووصلت الي السلطان العساكر من البلاد وبلغ المسلمين وصول ملك الامان وكان قد سار من بلاده وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل فاهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية فسلط الله تعالى على الامان الغلاء والوباء فهلك أكثرهم في الطريق . ولما وصل ملكهم الي بلاد الارمن نزل في نهر هناك يفتسل ففرق وأقاموا ابنه مقامه فرجع من عسكره طائفة

الى بلادهم ولم يصل مع ابن ملك الالمان الى الافرنج الذين على عكا غير قدر
ألف مقاتل وكفى الله المسلمين شرهم وبقى السلطان والافرنج على عكا يتناوشون
القتال الى العشرين من جمادي الآخرة فخرجت الافرنج من خنادقهم
بالفارس والراجل وأزالوا الملك العادل عن موضعه وكان معه عسكر مصر
فعطفت عليهم المسلمون وقتلوا من الافرنج خلقا كثيرا فعادوا الى خنادقهم
وحصل للسلطان منقص فانقطع في خيمته ولولا ذلك لكانت الفيصلة ولكن
اذا أراد الله أمرا فلا مرد له

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

وفي هذه السنة لما قوي الشتاء واشتدت الرياح أرسل الافرنج
المحاصرون عكا سرا كبهم الى صور خوفا عليها أن تنكسر وانفتح الطريق الى عكا
في البحر وأرسل البديل اليها وكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف
الواصلين اليها فحصل التفريط بذلك لضعف البديل

وفيها في ثامن شوال توفي زين الدين يوسف بن زين الدين على كوچك
صاحب اربل وكان مع السلطان بعسكره ولما توفي أقطع السلطان اربل أخاه
مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين على كوچك وأضاف اليه شهرزور
وأعمالها وارتجع ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها وسار مظفر الدين
الي اربل وملكها

وفيها أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها
وسميساط والموزر الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما في يده وهو
ميا فارقين ومن الشام حماة والمعة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبله واللاذقية
وبلاطنس وبكراس

﴿ ذكر استيلاء الافرنج على عكا ﴾

ثم دخت سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستمر حصار الافرنج لعكا الى هذه السنة وكانوا قد أحاطوا بها من البحر الى البحر وحفروا عليهم خندقا فلم يتمكن السلطان من الوصول اليهم وكانوا محاصرين لعكا وهم كالمحصورين من خارجهم من السلطان واشتد حصارهم لعكا وضعف من بها عن حفظ البلد وعجز السلطان عن دفع العدو عنهم فخرج الامير سيف الدين على بن أحمد المشطوب وطالب الامان من الافرنج على مال وأسرى يقومون بها للافرنج فاجابوهم الي ذلك وصعدت أعلام الافرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الاخرى من هذه السنة واستولوا على البلد بمافيه وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد وقالوا انما نحبسهم ليقوموا بالمال والاسرى وصيلب الصلبوت وكتبوا الى السلطان بذلك فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك وطلب منهم اطلاق المسلمين فلم يجيبوا الي ذلك فعلم منهم الغدر واستمر أسرى المسلمين ثم قتل الافرنج منهم جماعة كثيرة واستمر الباقون في الاسر

وبعد استيلاء الافرنج وتقرير أمرها رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية والمسلمون يساورونهم ويتخطفون منهم ثم ساروا من قيسارية الى أرسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم ووصلوا الي سوق المسلمين فقتلوا من السوق خلقا كثيرا ثم سار الافرنج الي يافا وقد اخلاها المسلمون فملكوها

ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها ما حصل لعكا فسار اليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين في تقيع أسوارها وتخريبها فدكها الي الارض ولما فرغ السلطان من تخريب عسقلان رحل ثاني شهر

رمضان الي الرملة بنحرب حصنها وخرّب كنيسة لدّ ثم سار الي القدس وقرر
 أموره وعاد الي مخيمه بالنطرون ثامن شهر رمضان ثم تراسل الافرنج
 والسلطان في الصّاح على أن يتزوج الملك العادل باخت ملك الانكتارويكون
 للملك العادل القدس ولامرأته عكا فحضر القسيسون وانكروا عليها ذلك
 الا أن يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال ثم رحل الافرنج من يافا الي
 الرملة وبقوا كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات فلقوا من ذلك
 شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الاوحال بينهم فلما رأي السلطان ذلك
 وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور وسار الي القدس لسبع بقين من
 ذي القعدة ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه وأخذ السلطان في
 تعمير القدس وتحصينه وأمر العسكر بنقل الحجارة وكان السلطان ينقل
 الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدي به العسكر فكان يجتمع عند العمال في اليوم
 الواحد ما يكفيهم عدة أيام *

﴿ ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر ﴾

كان الملك المظفر قد سار الي البلاد المرتجعة من كوكبوري التي زاده
 اياها عمه السلطان من وراء الفرات وهي حران وغيرها فامتدت عين الملك
 المظفر الي بلاد مجاوريه واستولى على السويداء وحاني والتقى مع بكتمر
 صاحب خلاط فكسره وحاصره بخلاط وتملك معظم البلاد ثم رحل عنها
 ونازل ملاذكرد وهي لبكتمر وضايقتها وكان في صحبته ولده الملك المنصور
 محمد فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد عليه حتى توفي به يوم الجمعة
 لاحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة وأخفى الملك المنصور
 وفاته ورحل عن ملاذكرد ووصل الي حماة ودفنه بظاهرها وبني الي جانب

التربة مدرسة وذلك مشهور هناك *

وكان الملك المظفر شجاعاً شديداً البأس ركناً عظيماً من أركان البيت الأيوبي وكان عنده فضل وأدب وله شعر حسن واتفق في ليلة الجمعة التي توفي فيها الملك المظفر أن توفي حسام الدين بن محمد بن لاجين وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان فأصيب السلطان في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته *

ولما مات الملك المظفر راسل ابنه الملك المنصور السلطان واشترط شروطاً نسبه السلطان فيها إلى العصيان وكاد أمره يضمحل بالكلية فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان فمابرح العادل بأخيه السلطان يراجع ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان وقرر للملك المنصور حماة وسلمية والمرة ومنبج وقلعة نجم وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه العادل بعد أن شرط السلطان أن العادل ينزل عن كل ما له من الاقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف خاصه بمصر وأن يكون عليه في كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس ولما استقر ذلك سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة أعني سنة ثمان وثمانين ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماة صحبتته فلما رأى السلطان الملك المنصور نهض واعتنقه وغشيه بالبكاء وأكرمه وأنزله في مقدمة المسكر *

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة في شعبان قتل قزل أرسلان واسمه عثمان بن الدكر

وهو الذي ملك أذربيجان وهمدان واصفهان والري بعد أخيه محمد بن
 البهلوان وكان قد قوي عليه السلطان طغريل السلجوقي وهزم عسكر بغداد
 كما تقدم ذكره ثم ان قزل ارسلان تغلب واعتقل السلطان طغريل في بعض
 البلاد وسار قزل ارسلان بعد ذلك الي اصفهان وتمصب على الشفعية وأخذ
 جماعة من أعيانهم فصلبهم وعاد الي همدان وخطب لنفسه بالسلطنة ودخل
 لينام على فراشه وتفرق عنه اصحابه فدخل اليه من قتله على فراشه
 ولم يعلم قاتله *

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قايخ ارسلان صاحب بلاد الروم
 الي صلاح الدين . وسببه ان والده فرّق مملكته على أولاده وأعطى ولده
 هذا ملطية ثم تغلب بعض اخوته على أبيه وألزمه باخذ ملطية من أخيه المذكور
 نخاف من ذلك وسار الي السلطان ملتجئاً اليه فآكرمه السلطان وزوجه
 بابنة أخيه الملك العادل وعاد معز الدين الي ملطية في ذي القعدة . قال ابن
 الاثير لما ركب صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه ترجل معز الدين
 وترجل السلطان ولما ركب السلطان عضده قيصر شاه وأركبه وكان تلاء
 الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان اذ ذلك فدوى
 ثياب السلطان أيضا فقال بعض الحاضرين في نفسه ما بقيت تبالي يا ابن
 أيوب بأى موة تموت يركبك ملك سلجوقي ويصالح قاشك ابن أتابك زنكي
 وفيها قتل أبو الفتح يحيى الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم
 الفيلسوف بقلعة حلب مجوساً أمر بخنقه الملك الظاهر غازي بأمر والده
 السلطان قرأ المذكور الاصولين والحكمة بمراغة على مجد الدين ثم سافر الي
 حلب وكان علمه اكبر من عقله فنسب الي انحلال العقيدة وانه يعتقد مذهب

الفلاسفة فأفتي الفقهاء باباحة دمه لما ظهر من سوء مذهبه واشتهر عنه وكان
اشدهم في ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهبل * حكى الشيخ سيف الدين
الآمدى قال اجتمعت بالسهروردي في حلب فقال لي لا بد أن أملك الارض
فقلت من أين لك هذا قال رأيت في المنام كأنى شربت ماء البحر فقلت لعل
ذلك يكون اشتهار علمك وما يناسب هذا فرأيت لا يرجع عما وقع في نفسه
ووجدته كثير العلم قليل العقل وكان عمره لما قتل ثمانية وثلاثين سنة وله عدة
مصنفات في الحكمة منها التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات وكتاب
الهياكل وحكمة الاشراق وكان يزعم انه يعرف السيمياء وله نظم حسن *
ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وفيها سارت الافرنج الي عسقلان
وشرعوا في عمارتها في محرم والسلطان بالقدس . وفيها قتل المركيس صاحب
صور لعنه الله تعالى قتله الباطنية وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان الي صور *

﴿ ذكر عقد الهدنة مع الافرنج وعود السلطان الي دمشق ﴾

وسبب ذلك ان ملك الانكثار مرض وطال عليه البيكار فكتب الي
الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح فلم يجب السلطان الي ذلك
ثم اتفق رأى الامراء على ذلك لطول البيكار وضجر المسكر وكثرة نفقاتهم
فاجاب السلطان الي ذلك واستقر أمر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر
شعبان وتحالفوا على ذلك في يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان ولم
يخلف ملك الانكثار بل أخذوا يده واعتذر بأن الملوك لا يخلفون وقنع
السلطان بذلك وحلف الكندهري ابن أخته وخليفته في الساحل وكذلك
حلف غيره من عظماء الافرنج ووصل ابن الهنغرى وباليان الي خدمة السلطان
ومعها جماعة من المقدمين وأخذوا يد السلطان واستخفوا الملك العادل والملكين

الأفضل والظاهر والملك المنصور والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص
والامجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك والامير بدر الدين دلدوم
الياروقي صاحب تل باشر والامير سابق الدين عثمان ابن الداية صاحب شيزر
والامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار
وعقدت الهدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة اشهر
أولها أبلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان *

وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الافرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها
وحيفا وعملها وعكا وعملها وأن تكون عسقلان خراباً واشترط السلطان
دخول بلاد الاسماعيلية في عقد هدنته واشترط الافرنج دخول صاحب
انطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم وأن تكون لده الرملة مناصفة بينهم وبين
المسلمين فاستقرت القاعدة على ذلك

ثم رحل السلطان الى القدس في رابع شهر رمضان وتفقد أحواله
وأمر بتسديد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس وهذه
المدرسة كانت قبل الاسلام تعرف بصند حنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم
مريم ثم صارت في الاسلام دار علم قبل أن يملك الافرنج القدس ثم لما
ملك الافرنج القدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام فلما فتح السلطان
القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها الى القاضي بهاء الدين
ابن شداد

ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة من الحجارين لتخريب
عسقلان وأمر أن يخرج من بها من الافرنج وعزم على الحج والإحرام من
القدس وكتب الي أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن بذلك ثم شبطه الامراء

وقالوا لا نعتد على هدية الافرنج خوفا من غدرهم فانتقض عزمه عن ذلك
ثم رحل السلطان عن القدس لخمس مضين من شوال الى نابلس ثم الى
بيسان ثم الى كوكب فبات بقاعتها ثم رحل الى طبرية ولقيه بها الامير بهاء
الدين قراقوش الاسدي وقد خلص من الأسر وكان قد أسر بعكاملما أخذها
الافرنج مع من أسرفسار قراقوش مع السلطان الى دمشق ثم سار منها الى مصر
ثم سار السلطان الى بيروت ووصل الى خدمته بيمند صاحب انطاكية
يوم السبت الحادي والعشرين من شوال فاكرمه السلطان وفارقه في غد
ذلك اليوم وسار السلطان الى دمشق ودخلها يوم الاربعاء لخمس بقين من
شوال وفرح الناس به لان غيبته عنهم كانت مدة أربع سنين وأقام العدل
والاحسان بدمشق وأعطى السلطان العساكر الدس-تور فودّعه ولده الملك
الظاهر وداعا لالقاء بعده وسار الى حلب وبقي عند السلطان بدمشق ولده
الافضل والقاضي الفاضل وكان الملك العادل قد استأذن السلطان وسار من
القدس الى الكرك لينظر في مصالحه ثم عاد الى دمشق طالبا البلاد الشرقية
التي صارت له بعد تقي الدين فوصل الى دمشق في الحادي والعشرين من
ذي القعدة وخرج السلطان لقاؤه . وفي يوم الخميس السادس والعشرين من
شوال من هذه السنة توفي الامير سيف الدين المشطوب بنابلس وكانت
اقطاعه فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس وأقطع الباقي للامير
عماد الدين أحمد بن المشطوب وأميرين معه

﴿ ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ﴾

﴿ وأخبار الذين تولوا بعده ﴾

في هذه السنة أعني سنة ثمان وثمانين وخمسمائة في منتصف شعبان

توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان
 ابن قطلومس بن أرسلان بينو بن سلجوق وكان ملكه في سنة احدى وخمسين
 وخمسة وكان ذا سياسة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة وكان له
 عشرة بنين قد ولي كل واحد منهم قطرا من بلاد الروم واكبرهم قطب الدين
 ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور وكان قد أعطاه أبوه سيواس فسولت له
 نفسه القبض على أبيه واخوته والانفراد بالسلطنة وساعده على ذلك صاحب
 ارزكان فسار قطب الدين ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة
 قونية وقال لولده وهو في قبضته أنا بين يديك أنفذ أوامرك ثم انه اتهم على
 والده بأنه جعله ولي عهده ثم سار الى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه
 صاحب قيسارية ووالده في القبضة معه وهو يظهر أن ما فعله إنما هو بأمر
 والده فخرج عسكر قيسارية لحربه فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند
 اشتغال العسكر بالقتال فرصة فهرب الي ولده سلطان شاه صاحب قيسارية
 فأكرمه وعظمه كما يجب عليه فرجع قطب الدين ملكشاه الي قونية وخطب
 لنفسه بالسلطنة وبقي أبوه يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منهم واحده
 ينتقل الي الآخر حتي حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان
 صاحب برغلو فقوي أباه قليج وأعطاه وجمع له وحشد وسار معه الي قونية
 فلما وأخذها من ابنه ملكشاه ثم سار الي اقصر واتفق أن عز الدين قليج
 أرسلان مرض ومات في التاريخ المذكور فأخذه ولده كيخسرو وحاذبه الي
 قونية فدفنه بها واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه بتليل فاستمر كيخسرو
 في ملك قونية اذ ثبت انه ولي عهد أبيه ثم ان ركن الدين سليمان أخا غياث
 الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية فهرب كيخسرو الي

الشام مستجيرا بالملك الظاهر صاحب حلب ثم مات ركن الدين سليمان سنة
 ستمائة وملك بعده ولده قليج ارسلان بن سليمان فرجع كيخسرو الي بلاد
 الروم وازال ملك ابن سليمان وملك بلاد الروم جميعها واستقرت له السلطنة ببلاد
 الروم وبقي كذلك الي أن قتل وملك بعده ابنه عز الدين كيكاووس بن كيخسرو
 ثم توفي كيكاووس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقباد بن
 كيخسرو وتوفي كيقباد سنة أربع وثلاثين وستمائة وملك بعده ولده غياث
 الدين كيخسرو وكسره التتر سنة احدى وأربعين وستمائة وتضعضع حينئذ ملك
 السلاطين السلجوقية ببلاد الروم ثم مات غياث الدين كيخسرو وانقضي بموته
 سلاطين بلاد الروم في الحقيقة لان من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير
 مجرد الاسم وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين وعز الدين فلكا
 معا مدة مديدة ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة وهرب أخوه عز الدين الي
 القسطنطينية وتغاب على ركن الدين معين الدين البرواناه والبلاد في الحقيقة
 للتتر ثم ان البرواناه قتل ركن الدين وأقام ابنا لركن الدين يخطب له بالسلطنة
 والحكم للبرواناه وهو نائب للتتر على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

وفي هذه السنة غزا شهاب الدين الغوري الهند ففتم وقتل مالا يحصى .
 وفيها خرج السلطان طغريل من الحبس بعد قتل قزل ارسلان بن الدكز
 وكان قزل قد اعتقله حسبا تقدم ذكره في سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وفيها
 توفي راشد الدين سليمان بن محمد وكنيته أبو الحشر صاحب دعوة الاسماعيلية
 بقلاع الشام واصله من البصرة



﴿ ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف ابن أيوب ﴾

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسة مائة والسلطان بدو شق على اكل ما يكون من المسرة
 وخرج الي شرقي دمشق متصيذاً وغاب خمسة عشر يوماً وصحبته أخوه الملك
 العادل ثم عاد الي دمشق وودعه أخوه العادل وداعاً لالقاء بعده فمضى الي الكرك
 وأقام به حتي بلغه وفاة السلطان وأقام السلطان بدمشق وركب في يوم الجمعة خامس
 عشر صفر وتلقى الحجاج وكان عاداته ان لا يركب الا وهو لابس كز اغند فركب ذلك
 اليوم وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم ولم يلبس الكز اغند
 ثم ذكره وهو راكب فطلب الكز اغند فلم يجده قد حملوه معه ولما التقى
 الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج ووصل اليه مع الحجاج ولد أخيه
 سيف الاسلام صاحب اليمن ثم عاد السلطان بين البساتين الي جهة المنيع
 ودخل الي القلعة على الجسر وكانت هذه آخر ركباته فلحقه ليلة السبت
 سادس عشر صفر كسل عظيم وغشيته نصف الليل حتى صفراوية وأخذ
 المرض في التزايد وفصده اطباء في الرابع فاشتد مرضه وحدث به في التاسع
 رعدة وغاب ذهنه وامتنع من تناول المشروب واشتد الارجاف في البلد
 وغشى الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته وحقن في العاشر
 حقتين فحصل له راحة وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً ثم لحقه عرق
 عظيم حتى نفذ من الفراش واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه وهي
 ليلة السابع والعشرين من صفر وحضر عنده الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة
 ليبيت عنده في القلعة بحيث ان احتضر في الليل ذكره بالشهادة وتوفي
 السلطان في الليلة المذكورة اعني في الليلة المسفرة عن نهار الاربعاء السابع والعشرين
 من صفر بعد صلاة الصبح وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر

وفاته ووصل القاضي بهاء الدين بن شداد بعد وفاته وانتقاله الى رحمة الله تعالى وكرامته وغسله النقيه الدولي خطيب دمشق وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الاربعاء المذكور في تابوت مسجي بثوب وجميع ما احتاجه من الثياب في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من جهة حل عرفها وصلى الناس عليه ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها وكان نزوله الي جدته وقت صلاة العصر من النهار المذكور .

وكان الملك الانضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عند ما اشتد مرضه وجلس للعزاء في القلعة وأرسل الملك الافضل الكتب بوفاة والده الي أخيه العزيز عثمان بمصر والى أخيه الظاهر غازي بحلب والى عمه الملك العادل ابي بكر بالكرك ثم ان الملك الافضل عمل لوالده تربة قرب الجامع وكانت دارا لرجل صالح ونقل اليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ومشى الملك الافضل بين يدي تابوته واخرج من باب القلعة على دار الحديث الي باب البريد وأدخل ووضع قدام المنبر وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين ثم دفن وجلس ابنه الملك الافضل في الجامع للعزاء ثلاثة أيام وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة مالا عظيماً *

وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكرت في شهر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وكان عمره قريباً من سبعة وخمسين سنة وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وملكه للشام قريباً من تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبناتاً واحدة وكان اكبر اولاده الملك الافضل نور الدين على بن يوسف ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة وكان العزيز

عثمان أصدر منه نحو سنتين وكان الظاهر صاحب حلب أشهر منهما وبقيت
البنات حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر

ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة واربعين درهما وجرم
واحد صوري وهذا من دخل الديار المصرية والشلم وبلاد الشرق واليمن
دليل قاطع على فرط كرمه ولم يخلف داراً ولا عقاراً. قال العماد الكاتب
حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج عكا من خيل عرب واكلديش
فكان اثني عشر ألف رأس وذلك غير ما أطلقه من اثمان الخيل المصابة في
القتال فلم يكن له فرس يركبه الا وهو وهو ب أو موعود به *

ولم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى الا في جماعة وكان اذا عزم على أمر
توكل على الله ولا يفضل يوماً على يوم وكان كثير سماع الحديث النبوي وقراً
مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي وكان حسن الخلق صبوراً على ما يكرهه
كثير النفاة عن أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير
عليه. وكان يوماً جالساً فرمى بهض المماليك بعضاً بسرموزة فأخطأته ووصات
الى السلطان ووقفت بالقرب منه فالتفت الى الجهة الاخرى ليتغافل عنها .
وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد بمجلسه الا بخير وطاهر اللسان فما ولع
بشتم قط . قال العماد الكاتب مات بموت السلطان الرجال . وفات بفواته
الافضال . وغاضت الايادي . وفاضت الاعادي . وانقطعت الارزاق .
وادلهمت الآفاق . وجمع الزمان بواحدة وسلطانه . ورزى الاسلام بمشيد أركانه .

﴿ ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان ﴾

ولما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر في الملك بدمشق
وبلادها المنسوبة اليها ولده الملك الافضل نور الدين على وبالديار المصرية

الملك العزيز عثمان وبجلب الملك الظاهر غياث الدين غازي وبالكرك والشوبك
 والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب وبحمزة وسلمية
 والمرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر
 تقي الدين عمر وببعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه
 ابن شاهنشاه بن أيوب وبمحصر والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد بن شيركوه
 ابن شاذي وبيد الملك خضر بن السلطان صلاح الدين بصرى وهو في
 خدمة أخيه الملك الافضل . وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون منهم
 سابق الدين عثمان ابن الداية بيده شيزر وابوقبيس وناصر الدين بن كورس
 ابن خماردكين بيده صهيون وحصن برزية وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين
 ياورق بيده تل باشر وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون وعز الدين
 ابراهيم بن شمس الدين المقدم بيده بفراس وكفر طاب وفائية *

والملك الافضل هو الاكبر من أولاد السلطان والمعهود اليه السلطنة
 اواستوزر الملك الافضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الاثير مصنف المثل
 السائر وهو أخو عز الدين بن الاثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل فحسن
 للملك الافضل طرد أمراء أبيه فقارقه الى أخويه العزيز والظاهر قال
 اجتمعت اكابر الامراء بمصر وحسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ووقعوا في
 أخيه الافضل فقال الى ذلك وحصلت الوحشة بين الاخوين الافضل والعزيز

تم بحمد الله وعونه والحمد لله رب العالمين والصلاة

والسلام على سيدنا محمد وآله

وصحبه اجمعين





تمّ طبع هذا الكتاب الجليل في آخر يوم من شهر ربيع الثاني سنة
١٣١٧ في مطبعة المؤيد والآداب على نفقة وذمة (شركة طبع الكتب
العربية بمصر)

وقد قرّر مجلس ادارة الشركة أن تكون علامتها على طبع كل كتاب
تنتجه وضع طابعها الخاص في آخره وهو هذا :





2276
977
.367

JUN 15





32101 073505487

